

الحرب والمكيدة

فى شعر داهية العرب عمرو بن العاص

(وقعة صفينَ نموذجاً)

دراسة موضوعية فنية

دكتور

محمد عبد الحميد سالم

أستاذ الأدب القديم ونقده

بكلية الألسن - جامعة عين شمس

الحرب والمكيدة

فى شعر داهية العرب عمرو بن العاص

(وقعة صفّينَ نموذجًا)

دراسة موضوعية فنية

دكتور:

محمد عبد الحميد سالم

أستاذ الأدب القديم ونقده

بكلية الألسن ـ جامعة عين شمس

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء:

إلى روح والدىّ الكريمين
تغمدها الله بواسع رحمته، وأسكنهما فسيحَ جنّاته.
"ربّ ارْحمهما كما رَبّيانى صغيرا "

وإلى حفيداتى العزيزات:
- سارة - ويارا عصام الدين
و
- أسِيل - وأيْسِل حسام الدين
حفظهنّ الله ، وبارك فيهنّ ، وحقق الخيرَ على أيديهنّ.

د/ محمد سالم

مقدمة

لفت نظرى حين اطلاعى على بعض كتب التراجم ـ ما قاله ابن عبد البر فى كتابه: (الاستيعاب فى معرفة الأصحاب: ٣٣١/٨ ـ ٣٣٢)، وهو بصدد تعريفه بعمرو بن العاص؛ إنه "كان شاعرًا حسن الشعر، حُفظ عنه الكثير فى مشاهد شتى".

أما أنه شاعر فليس هذا بغريب. أما أن ينعت شعره بأنه (حسن)، وأن يحصى بأنه (كثير فى مشاهد شتى"؛ فهذا هو اللافت لنظرى، الدافع إلى تحقيقه.

ثم طالعت بعض مصادرنا التاريخية فوقفت على قول ابن كثير (البداية والنهاية: ٢٦/٨) عن عمرو: ".. وله أمثال حسنة وأشعار جيدة".

ثم زادنى يقينًا بشهرة عمرو شاعرًا، ما أورده نصر بن مزاحم فى كتابه (وقعة صفين/ ٤١٢) من قول الإمام علىّ ـ كرّم الله وجهه ـ لعبد الله بن العباس ـ رضى الله عنه ـ (حين وصله كتاب من عمرو، بتدبير من معاوية بن أبى سفيان لغاية سياسية ـ مُذيَّلاً بقصيدة من شعره) ـ قوله: "أجبه (أىْ عما ورد فى الكتاب نثرا)، وليردّ عليه شعرَه الفضلُ بن العباس؛ فإنه شاعر".

حاولت الحصول على ديوان شعر لعمرو . فلم أعثر له إلا على إشارة إلى (قصيدة الجلجليّة) التى "كتبها عمرو بن العاص إلى معاوية فى جواب كتابه إليه يطلب خراج مصر، ويعاتبه على امتناعه عنه.

وتضيف تلك الإشارة أنه "توجد منها نسختان فى المكتبة الخديوية بمصر. وذكر جملةً منها ابنُ أبى الحديد فى (شرح نهج البلاغة: ٥٢٢/٢)". بَيْد أننى وجدت ابن مزاحم قد ضمن كتابه (وقعة صفين) طائفة كبيرة من هذه الأشعار الخاصة بنشاط عمرو ودوره فى تلك الوقعة؛ وهو كمٌّ جدُّ كبير، يمكن على ضوئه تحديد ملامح شعره؛ ومن ثَمَّ اكتفيت به، وصدرت عنه مصدرًا من المصادر الأساسية التى أعانت على بناء هذه الكلمات التى أقدمها تحت عنوان: (الحرب والمكيدة فى شعر داهية العرب عمرو بن

العاص: وقعة صفّين نموذجا دراسة موضوعية فنية)؛ لأسبرغوْر تلك الحقبة الشائكة الدامية من تاريخنا من جهة؛ ولأقف على شاعرية عمرو ودور شعره فيها من جهة أخرى.

هذا، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم على النحو الوارد فيه؛ من وضع عنوان لكل موقف ـ يتضمن شعرًا لعمرو بن العاص ـ وذلك لأمرين:

أولهما: بيان مناسبة النص وتوضيح بيئته الخاصة؛ حتى يتسنى فهمه فهما صحيحا.

ثانيهما: بيان مدى ارتباط عمرو فى كثير من شعره ارتباطا ـ يكاد يكون ـ دقيقا بهذه المواقف، وما دار فيها، وما صيغت به من كلام منثور، سواء أكان على لسانه أم لسان غيره؛ وقيامه بنظم هذا المنثور ـ وكأنه راوٍ أمين ـ مُستخدمًا الكثير مما قيل نثرا فى بنية النص ـ الشعرىّ ـ الخاص بهذا الحدث أو ذاك ـ وتشكيله.

وبالله التوفيق والسداد،،

دكتور/ محمد عبد الحميد سالم

القاهرة فى يوم الثلاثاء الموافق ١٥/٦/٢٠١٠م

نبذة عن الشاعر وأطوار حياته:

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سُعيد بن سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب ابن لُؤَىّ بن فهر بن مالك بن النّضر بن كنانة. يكنى أبا عبد الله، ويقال: أبو محمد؛ وهما ولداه اللذان شهدا معه صفين. وكثيرًا غيرها من الحروب قبلها وبعدها(*).

جعل الزّركلىّ مولده سنة (٥٠ ق.هـ)، ووفاته سنة (٤٣هـ). أما عن تاريخ وفاته ـ فمع الاختلاف فيه ـ فإن الأصح هو ما ذكر هنا، وهو "الذى جزم به يونس وغيره من المتقنين" على حدّ تعبير ابن حجر[1]؛ وعليه يكون عُمْر عمرو يوم وفاته:

(*) ترجم له الكثير من المصادر والمراجع ، منها ـ حسب الترتيب (الألفبائىّ) ـ

ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣هـ ـ بذيل كتاب الإصابة ـ ج/٨، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦م ـ مكتبة الكليات الأزهرية.

ـ الإصابة فى تمييز الصحابة؛ لابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢هـ، ج/٧، الطبعة الأولى (المشار إليها فى المصدر السابق).

ـ الإعلام للزركلى ج/٥، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان.

ـ الإمامة والسياسة ـ وهو المعروف بتاريخ الخلفاء ـ لابن قتيبة الدينورى، المتوفى سنة ٢٧٦هـ ـ ج/١ ـ الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٣م ـ البابى الحلبى وأولاده بمصر.

ـ البداية والنهاية؛ لابن كثير الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤هـ ج/٨ ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦م ـ مكتبة المعارف بيروت، ومكتبة النصر، الرياض.

ـ البيان والتبين، للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ، ج/١ـ٢، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجى ـ الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٥.

ـ تاريخ الطبرى ـ تاريخ الرسل والملوك ـ لابن جرير الطبرىّ المتوفى سنة ٣١٠هـ، تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الثالث والرابع والخامس ـ الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٧م ـ دار المعارف بمصر. ـ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلانى، المتوفى سنة ٨٥٢هـ ـ الجزء الثامن ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٦هـ ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة فى الهند بمحروسة حيدر أباد الدكن. =

(٩٣) سنة. وهذا مخالف لما ذهب إليه أكثر المؤرخين[٢] من أن عمره يوم وفاته كان (٩٠) عاما. وبناء على ما ذكر ابن حجر في قوله: إنه " قد عاش بعد عُمر عِشرين

= ـ جمهرة أنساب العرب؛ لابن حزم الأندلسيّ المتوفى سنة ٤٥٦هـ، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون ـ الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٧م ـ دار المعارف بمصر.
ـ حياة الصحابة؛ محمد يوسف الكاندهلوى ـ الجزء الأول والثانى ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان.
ـ السيرة النبوية، لابن هشام، حققها و... مصطفى السّقا ـ و ـ إبراهيم الأبيارى ـ و ـ عبد الحفيظ شلبى؛ دار إحياء التراث العربى ـ بيروت .
ـ طبقات فحول الشعراء؛ لابن سلام الحجمى المتوفى سنة ٢٣١هـ ، قرأه وشرحه محمود شاكر ـ مطبعة المدنى بالقاهرة.
ـ عيون الأخبار؛ لابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦هـ ـ الجزء الأول ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣م.
كتاب العقد الفريد؛ لابن عبدربه الأندلسى، شرحه، و... أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبيارى ـ الأجزاء من الثانى إلى السادس ـ دار الكتّاب العربى سنة ١٩٨٦م.
ـ كتاب الولاة والقضاة، تأليف أبى عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى ـ مهذبا ومصححا بقلم (رفن كَست) ـ مؤسسة قرطبة ـ الهرم ـ مصر.
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦هـ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ الجزء الثانى والثالث ـ المكتبة الإسلامية ـ بيروت.
ـ المعارف، لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ؛ حققه وقدّم له د/ثروت عكاشة ـ الطبعة الرابعة سنة ١٩٨١م ـ دار المعارف بمصر.
ـ وقعة صفين، لنصر بن مزاحم المنقرى المتوفى سنة ٢١٢هـ، تحقيق عبد السلام هارون ـ دار الجيل ـ بيروت سنة ١٩٩٠م.
نهج البلاغة ـ مجموع ما اختاره الشريف الرضى من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ شرح الشيخ محمد عبده ـ الجزء الأول والثانى والثالث ـ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ـ لبنان.
(١) فى (الإصابة: ١٢٤/٧).
(٢) منهم: المسعودى، فى (مروج الذهب: ٣٢/٣)؛ وابن عبد البر، فى (الاستيعاب: ٣٣٠/٨)؛ وابن حجر، فى: (الإصابة: ١٢٣/٧ ـ ١٢٤)؛ وغيرهم.

سنة ... وكان عُمرُ عُمَّر ثلاثا وستين" ؛ يكون سِنُّ (عمرو) يوم وفاة (عُمر): (٧٠) عامًا؛ وعليه يكون تاريخ مولد ابن العاص سنة (٤٧ ق.هـ)، لا (٥٠ ق.هـ) كما ذهب الزركلي. ويُعضِّد ذلك ما ذُكر في رواية ابن حجر: "وقد ذكروا أنه كان يقول: أذكر ليلة ولد عمر بن الخطابَ... فكان عمره لما ولد سبع سنين".

هذا، وقد كان المستهزئون بالرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم الذين أنزل الله فيهم قوله "إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر فسوف يعلمون" ـ "كانوا خمسة نفر من قومهم ، وكانوا ذوى أسنان وشرف في قومهم... منهم من بني سهم العاص بن وائل"[٣]؛ الذى نزلت فيه (إن شانئك هو الأبتر) ـ "والأبتر الذى ليس له ولد ـ فأراد أنه ينقطع ذكره"[٤]. وقد كان يعالج الخيل والإبل في حياته؛ كما ذكر ابن قتيبة[٥].

أما أم عمرو بن العاص فهى سَبِيّة ـ كان يُعيَّر بها ـ من بنى عَنَزةَ؛ اختلف في اسمها ولقبها فمن قائل إن اسمها (النابغة بنت خزيمة من عنزة)[٦]؛ ومن اكتفى بقوله: (أمه النابغة من عَنَزة)[٧]، ولكن ابن عبد البر بروايته يقطع في التعريف بها بلسان عمرو نفسه، حيث يقول: "وذكروا أنه جُعل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرو بن العاص عن أمه، وهو على المنبر، فسأله، فقال: أمى سلمى بنت حَرْملة، تلقّب بالنابغة من بنى عنزة، أحد بنى جلان، أصابتها رماح العرب، فبيعت بعكاظ، فاشتراها الفاكِهُ بن المغيرة، ثم اشتراها منه عبد الله بن

---

(٣) (السيرة النبوية : ٤٠٨/١ ـ ٤٠٩).

(٤) (المعارف /٢٨٥) وانظر كذلك: (مروج الذهب: ٣٢/٣).

(٥) (المعارف /٥٧٦).

(٦) (الولاة والقضاة /٦).

(٧) (المعارف / ٢٨٥).

جُدْعان. ثم صارت إلى العاص بن وائل، فولدت له، فأنجبت، فإن كان جُعل لك شيءٌ فخذه"[8]. بل قد عُيِّر عمرو من أجلها بأسوأ من ذلك كثيرا؛ منه ما ذكره ابن عبدربه من (وُفُودِ أرْوَى بنت عبد المطلب على معاوية، وتعنيفها له، وتهديدها إياه.. فقال لها عمرو بن العاص: كفىّ أيتها العجوز الضالة، وأقصرى من قولك مع ذهاب عقلك، إذ لا تجوز شهادتك وحدك!. فقالت له: وأنت يا ابن النابغة؛ تتكلم، وأمك كانت أشهر امرأة تغنى بمكة، وآخذهن لأُجرة..."[9] إلخ الرواية وهى جَدّ قبيحة:

وممن له منزلة خاصة عند عمرو بن العاص - مولاه (وَردان)، وكان ذا رأى وفكر[10].

هذا، ومن أبرز صفات عمرو أنه كان أدعج، أبلج، قصير القامة، يحجل فى مشيته، مختالا بنفسه، حتى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حينما رآه - بعد إسلامه - يمشى، قال: " ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميرًا"[11].

ومما أجمع عليه المؤرخون أنه كان معدودًا من دهاة العرب وأحد رؤسائهم وشجعانهم وأبطالهم وفرسانهم وشعرائهم، وخطبائهم، وحكمائهم وذوى آرائهم.

يقول ابن عبد البر: " وكان عمرو بن العاص من فرسان قريش وأبطالهم فى الجاهلية ، مذكورًا بذلك فيهم، وكان شاعرًا حسن الشعر، حُفظ عنه الكثير فى

(٨) (الاستيعاب : ٣٢٢/٨ - ٣٢٣).
(٩) (العقد الفريد : ١٢٠/٢).
(١٠) (المعارف /٢٨٧).
(١١) (الإصابة : ١٢٢/٧ - ١٢٣).

مشاهد شتّى.. وكان أحد الدهاة فى أمور الدنيا المقدّمين فى الرأى والمكر والدهاء"[١٢].

ويقول ابن عبدربه: "الدهاة أربعة: معاوية للرويّة، وعمرو بن العاص للبديهة؛ والمغيرة للمعضلات، وزياد لكل صغيرة وكبيرة"[١٣].

ويقول ابن حجر بسنده عن الشعبى: "دهاة العرب أربعة: معاوية، وعمرو، والمغيرة، وزياد. فأما معاوية فللحلم، وأما عمرو فللمعضلات، وأما المغيرة فللمبادهة، وأما زياد فللصغير والكبير... وقال أبو عمرو: كان عمرو من أبطال قريش فى الجاهلية مذكورًا بذلك، وفضائله ومناقبة كثيرة جدًّا"[١٤].

هذا، ومما شهر به عمرو كذلك رجاحة العقل، وسعة المعرفة؛ وقوة الحافظة، وفصاحة اللسان، ونصاعة البيان، وقوة الحجة، وحسبنا دليلاً أنه "لما أسلم كان النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يُقرّبه، ويُدْنيه؛ لمعرفته، وشجاعته"[١٥]؛ كما ـ روى عن النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وعن السيدة عائشة. وروى عنه الكثير، منهم: ولداه عبد الله ومحمد، وقيس بن أبى حازم، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبو قيس مولى عمرو، وعبد الرحمن بن شماسة وغيرهم[١٦].

---

(١٢) (الاستيعاب : ٣٣١/٨ ـ ٣٣٢).

(١٣) (العقد : ٧/٥).

(١٤) (تهذيب التهذيب : ٥٧/٨).

(١٥) (الإصابة : ١٢٣/٧)..

(١٦) (المصدر السابق، الصفحة نفسها وانظر كذلك (تهذيب التهذيب : ٥٦/٨).

ويقول ابن كثير: "وقد كان معدودًا من دهاة العرب وشجعانهم، وذوى آرائهم، وله أمثال حسنة، وأشعار جيدة، وقد رُوى عنه أنه قال: "حَفِظتُ من رسول الله ألف مثل ..." (١٧).

ويذكر ابن حجر: "أن رجلا قال لعمرو : ما أبطأ بك عن الإسلام، وأنت أنت فى عقلك؟ قال: إنّا كنا مع قوم لهم علينا تقدُّمٌ، وكانوا ممن يُوارى حلومَهم الخبالُ، فلما بُعث النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، فأنكروا عليه لُذنابهم، فلما ذهبوا، وصار الأمر إلينا، نظرنا، وتدبّرنا، فإذا حقٌ بيّن، فوقع فى قلبى الإسلام..." (١٨).

ويروى الجاحظ عن ابن سلام الحجمىّ قال: " كان عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ إذا رأى رجلا يتلجلج فى كلامه، قال: خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد"(١٩).

هذا، ومن أوضح سمات عمر وكذلك الطمع فى الدنيا، وحب المال والحرص على نمائه واستثماره حتى أخريات حياته ـ ولا غرابة فقد "كان تاجرًا... وكان يختلف بتجارته إلى مصر، وهى الأُدُم والعطر"(٢٠). وإن كان ابن قتيبة فى حديثه ـ عن (صناعات الأشراف) أشار إلى أنه كان جزّارًا (٢١)ـ وحسبنا دليلا على حبه

(١٧) (البداية والنهاية : ٢٦/٨).

(١٨) (الإصابة : ١٢٢/٧).

(١٩) (البيان والتبين : ٣٩/١) وانظر: (كتاب الحيوان: ٥٨٧/٥) مع اختلاف فى الرواية قليلا. ويوضح ابن عبد البر هذا الأمر فى قوله (الاستيعاب : ٣٣٢/٨): "وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إذا استضعف رجلا فى رأيه وعقله، قال: أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد، يريد خالق الأضداد".

(٢٠) (الولاة والقضاة /٧).

(٢١) (المعارف / ٥٧٥).

للمال ما جاء على لسان من لا ينطق عن الهوى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حينذ أراد أن يُولّى عمرًا ـ بعد إسلامه بشهور قلائل ـ على غزاة ذات السلاسل؛ يقول عمرو: " بعث إلى النبىّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال: خذ عليك ثيابك. وسلاحك، ثم ائتنى ، فأتيتُه، فقال: إنى أريد أن أبعثك على جيش، فيُسلمّك الله. ويُغنّمك، وأرغب لك من المال، رغبةً صالحة. فقلت: يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال ، بل أسلمت رغبة فى الإسلام، قال: يا عمرو؛ نعم المالُ الصالح للمرء الصالح"[٢٢].

ويذكر المسعودى عن الواقدى، قال: "دخل عمرو... يوما على معاوية بعدما كبر ودقّ... فأخذا فى الحديث... فقال عمرو: يا أمير المؤمنين ما بقى مما تستلذّه، فقال:... فما شئٌ ألذّ عندى من شراب بارد فى يوم صائف، ومن أن أنظر إلى بَنِىّ وبنى بَنِىّ يدورون حولى. فما بقى منك يا عمرو: قال: مالٌ أغرسُه فأصيبُ من ثمرته ومن غلّته"[٢٣].

هذا، ومما يدل على حرصه على المال والشح به؛ ما جاء فى خطبة للإمام على ـ كرّم الله وجهه ـ : " عجبا لابن النابغة، يزعم لأهل الشام أن فىّ دُعابة... إنه ليقول فيكذب، ويَعِدُ فيخلف ، ويَسأل فيُلْحِف ، ويُسأل فيبخل"[٢٤]. فلا غرابة إذًا أن "خلّف أموالا عظيمة" على رواية ابن حجر[٢٥]. أو أن يخلّف "من العين ثلاثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار، ومن الوَرِق ألف درهم. وغلّة مائتى ألف دينار بمصر، وضيعته المعروفة بمصر بالوَهْط قيمتها عشرة آلاف

---

(٢٢) (الإصابة: ١٢٤/٧). وانظر كذلك (الاستيعاب: ٣٢٦/٨)، و(حياة الصحابة : ٤٨١/١).

(٢٣) (مروج الذهب : ٣١/٣- ٣٢).

(٢٤) (نهج البلاغة : ١٤٧/١).

(٢٥) (تهذيب التهذيب : ٥٧/٨).

ألف درهم" على رواية المسعودى الذى ذيّلها بأبيات من قصيدة لابن الزَّبير الأسدىّ؛ متخذا عمرًا وثروته وليجة للنصح والاعتبار، وعدم التكالب على الدنيا وما فيها؛ وهى:

ألم يَر أنّ الدهرَ أخْنَتْ صُروفُه ... على عمرٍو السَّهْمىِّ تُجْبَى له مصرُ

فلم يُغْنِ عنه حَزْمُه واحتيالُه ... ولا جمعُه لّما أُتيح له الدّهرُ

وأمسى مُقيمًا بالعراء ، وضُلِّلتْ ... مكايدُه عنه وأموالُه الدُّثْر[٢٦]

أما ما ذكره الكندىّ من أن عمرًا مات "ولم يترك إلا سبعة دنانير"[٢٧] فهو غريب لم تسكن نفسى إليه.

هذا إلى غير ذلك من سمات عمرو التى يختص بها كل طور من أطوار حياته التى تتلخص عندى فيما يأتى :

الطور الأول : طور الكفر والجحود والطغيان:

ويبدأ هذا الطور من ظهور الإسلام؛ إلى نهاية شهر المحرّم سنة٨ هـ - وهو طور كان فيه عمرو خصمًا عنيفًا ومقاتلاً جبارًا، وعدوًّا لدودًا للإسلام فى الوقت

(٢٦) (مروج الذهب : ٣٢/٣).

(٢٧) (الولاة والقضاة/٣٤).

الذى كان فيه حصنا حصينًا لقريش، وأحد رؤسائها، ومحل ثقتها؛ وحسبنا دليلا على ذلك ما يأتى :

١) أنه كان أحد الرّجليْن اللذين أرسلتهما قريش إلى الحبشة فى طلب المهاجرين إليها؛ يقول ابن هشام: " ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجليْن من قريش جَلْديْن إلى النجاشىّ فيردّهم عليهم...؛ فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو ابن العاص، وجمعوا لهما هدايا للنجاشىّ ولبطارقته، ثم بعثوهما إليه فيهم" ـ ومع الحيل والمحاولات التى قام بها عمرو؛ لم يصلا إلى الغاية؛ لعدْل النجاشى وحزمه فى قوله: "ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لى بها... فخرجا من عنده مقبوحيْن"[٢٨].

٢) اختياره ضمن القوة البشرية الباطشة ـ ثلاثين رجلا من قريش أو أربعين كما تقول الرواية ـ لحماية (عير أبى سفيان) الذى كان سببا فى (غزوة بدر) [٢٩].

٣) كما أنه كان من صناديد قريش فى غزوتى أحد والخندق. وقد ذكر هشام مقطعة له فى غزوة أحد تُحدّث بالعداوة والبغضاء للإسلام، وتؤكد شماتته وبهجته بالفوز والانتقام، يقول فيها: (الطويل)

خرجنا من الفَيْفا عليهم كأنّنا ... مع الصُّبح من رَضْوى الحَبيكُ المُنَطَّقُ

تمنّتْ بنو النَّجارِ جهْلاً لقاءنا ... لدى جَنْب سَلْعٍ والأمانىُّ تصْدُقُ

(٢٨) (السيرة النبوية : ٣٣٣:٣٣٨/١)، وانظر كذلك: (تاريخ الطبرى: ٣٣٥/٢)، و(البداية والنهاية: ١٢٥/٨)، و(حياة الصحابة: ٣٣١/١: ٣٣٩).

(٢٩) (السيرة النبوية: ٦٠٦/١).

فمــا راعهــم بالــشرّ إلا فُجــاءةً ‏ كــراديسُ خيــلٍ فــى الأزقّــة تمْـرُق
أرادوا لكيْمــا يــستبيحوا قِبابَنــا ‏ ودون القِبــابِ اليـومَ ضـربٌ مُحـرَّقُ
وكانت قِبابًا أُومِنَـتْ قبـل مـا تُـرى ‏ إذْ رامهــا قــومٌ أُبيحــوا وأُحْنِقُــوا
كــأنّ رءوسَ الخــزرَجِيّين غُــدْوةً ‏ وأيمانَهــم بالـمُــشْرفيَّة بَــرْوقُ

كما ذكر له قصيدة فى الغزوة نفسها، يقول فيها: (مجزوء الكامل)

لَّمــا رأيْــتُ الحــربَ ينْــ ‏ ــزُوا شــرُّها بالرَّضْــفِ نــزْوَا
وتناولــتْ شــهباءُ تَلْحُــو (م) ‏ النَّــاسَ بالــضَّرَّاءِ لَحْــوَا
أيْقنْــتُ أن المــوتَ حــقٌّ (م) ‏ والحيــاةَ تكــونُ لَغْــوَا

حَمَّلْــتُ أثــوابى علــى ‏ عَتَــدٍ يَبُــذُّ الخيــلَ رَهْــوَا
سَــلِس إذا نكَّــبْنَ فــى الْـ ‏ ـبَيْداء يَعْلــو الطِّــرفَ عُلْــوَا

وإذا تَنــــــــزَّلَ مـــــــاؤُهْ مـــن عِطْفِــهِ يــزدادُ زَهْــوَا

رَبِـــذٍ كيَعْفـــور الـــصَّرِ يمَــةِ راعَــه الرّامــونَ دَحْــوَا

شَـــنِجٍ نَـــساهُ ضـــابطٍ للخيـــل إرْخــاءً وعَــدْوَا

فَفِـــدًى لهـــم أُمِّـــى غــدا ةَ الـــروع إذْ يمـــشون قطْـــوَا

سَـــيْرًا إلى كـــبْش الْــــكَتِيبةِ إذْ جَلَتْهُ الشمسُ جَلْـوَا(٣٠)

---

(٣٠) (السيرة النبوية: ٣ /٦٥-٦٦، ١٥١ - ١٥٤). هذا وقد ذكر المحققون بهامش ص١٥١ معانى الكلمات الآتية: "الفيقا: القفر الذى لا ينبت شيئًا، وقصره هنا للشعر. ورَضْوى: اسم جبل، والحبيك: الذى فيه طرائق. والمنطق: المجزم. وسلع: اسم جبل، الكراديس: جماعة الخيل، وتمرق: تخرج. أحنقوا: أى أغضبوا. البَرْوق: نبات له أصول تشبه البصل".
كما ذكروا بهامش ص/١٥٤ معانى الكلمات التى وقفوا عندها فى القصيدة، وهى: "ينزو: يرتفع ويثب. والرّضف: الحجارة المحماة بالنار. شهباء: أى كتيبة كثيرة السلاح. وتلحو: تقشر وتضعف، تقول: لحوت العود: إذا قشرته. العتد: الفرس الشديد، يبذ: يسبق. والرهو: الساكن اللين. ماؤه: أى عرقه. والعطف: الجانب. والزهو: الإعجاب والتكبر. رَبذ: سريع. واليعفور: ولد الظبية، والصَّريمة: الرملة المنقطعة، وداعه: أفزعه. والرحو: الانبساط. شنج: منقبض. والنسا: عرقٌ مستبطن الفخذين. وضابط: ممسك. والإرخاء والعدو: ضربان من السير. القطو: شيء فيه تبختر كمشى القطاة. كبش الكتيبة: رئيسها. جَلَتْه: أبرزته". =

هذا، ومما يجسم حجم عمرو فى عداوته للإسلام؛ ويوضح خطورتـه عليـه؛ "أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم كان يدعو على أبـى سـفيان، والحـارث بـن هـشام، وعمـرو بـن العـاص، حتـى أنـزل الله تعـالى: "لـيس لـك مـن الأمـر شيء..."[٣١].

ولنترك عمرًا يُوجز لنا ـ بعد إسلامه ـ مواقفه فى تلك المرحلة بقولـه: "كنـت للإسلام مُجانبًا معاندا، حضرت بدرًا مـع المـشركين فنجـوت، ثـم حـضرت أُحـدًا فنجوت ثم حضرت الخندق فنجوت... وأنا بعْدُ ناءٍ عن الإسلام، وأرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم، فقَدمْتُ مكة، وجمعت رجالا من قومى، وكانوا يـرون رأيـى، ويسمعون منى، ويقدموننى فيما نابهم... قلت تعلمـون أنـى والله لأرى أمـر محمـد أمرًا يعلو الأمور علوًا منكرا، وإنى رأيت... (أن) نلحق بالنجاشى فنكون معه؛ فإن يظهر محمد كنا تحت يد النجاشى أحبّ إلينا من أن نكون تحت يد محمـد، وإن تظهر قريش فنحن مَنْ قد عرفوا ، قالوا هذا الرأى..." إلى آخر الرواية التى توضح كيف هدى الله عمرًا إلى الإسلام بنصيحة النجاشى وحسن إقناعه"[٣٢].

الطور الثانى : طور الإيمان والصلاح والتقوى والإخلاص:

ويبدأ هذا الطور منذ إسلامه فى أول صفر سنة ٨ هـ ـ هو وخالد بـن الوليـد، وعثمان بن طلحة ـ حتى سنة ٢٧هـ؛ حينما عزلـه عثمـان ـ رضـى الله عنـه ـ عـن إمارة مصر، وولّى عليها عبد الله بن سعد بن أبى السّرح ـ وقد اتسم عمرو فـى هـذا

= هذا، ولبيان دور عمرو فى غزوة الخندق انظر المصدر نفسه (٢٤٣/٣).

(٣١) (السيرة النبوية : ١١٥/٣) الحاشية رقم (١).

(٣٢) (البداية والنهاية: ٢٣٦/٤- ٢٣٧).

الطور بالحياء، والصلاح، والطاعة، وكرم الخلق، ونقاء السريرة، والإصرار على نُصرة الإسلام، والتضحية فى فتوحاته واتساع آفاقه. تلك المرحلة التى شَنَّفَ آذاننا عنها قبيصة بن جابر مُتَرَنِّمًا بشمائل صاحبه بقوله: "وصحبت عمرو بن العاص، فما رأيت رجلا أَبْيَنَ قرآنا ، ولا أكرمَ خُلقًا، ولا أشبه سريرةً بعلانيةٍ منه"(٣٣).

أجَلْ فرح الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعمرو ومَن آمن معه فى هذا اليوم، وتهلّل وجههُ الشريفُ بقدومهم المدينة، وبدخولهم عليه مسلمين، وبشّر أصحابه بقوله: "رمتكم مكةُ بأفلاذ أكبادها"(٣٤).

وعرف الرسول الحكيم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لعمرو قدره، فقرّبه ، وأمرّه ـ فى جمادى الآخرة سنة ٨ هـ ـ على سريّة نحو الشام ـ غزوة ذات السلاسل ـ فى خمسمائة مقاتل ، منهم من كبار المهاجرين الأولين أبو بكر وعمر(٣٥).كما ولاّه على (عمان)، وظلَّ أميرَها حتى قبض الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ (٣٦).

---

(٣٣) (الإصابة: ١٢٣/٧).

(٣٤) (الاستيعاب : ٣٢٣/٨-٣٢٤)، وانظر فى إسلام عمرو: (تاريخ الطبرى: ٢٩/٣ : ٣١)، و(السيرة النبوية: ٢٨٩/٣ - ٢٩١)، و(الإصابة: ١٢٢/٧-١٢٣)، و(تهذيب التهذيب: ٥٦/٨) و(المعارف/٢٦٧)، و(حياة الصحابة: ١٣٥/١ : ١٣٨) وغيرها.

(٣٥) انظر فى هذه الغزوة: (السيرة النبوية : ٤٠و٢٧٢ - ٢٧٤، ٢٥٤)، و(تاريخ الطبرى: ٢٩/٣٠ : ٣٢)، (البداية والنهاية: ٢٧٣/٤ : ٢٧٦) و(الإصابة: ١٢٤/٧) و(تهذيب التهذيب : ٥٦/٨)، و(حياة الصحابة: ٩٥/١، ٦٢/٢-٦٣) وغيرها كثير.

(٣٦) انظر فى إمارة عمرو على (عمان): (طبقات فحول الشعراء : ٢٠٧/٢)، و(الاستيعاب: ٣٢٨/٨) و(الإصابة: ١٢٣/٧)، و(تهذيب التهذيب: ٥٧/٨) وغيرها.

هذا، إلى جانب إشادة الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بإيمانه فى قوله: "أسلم الناس وآمن عمرو"(٣٧)؛ كما أطْرى صلاحه فى قوله: "عمرو بن العاص من صالحى قريش"(٣٨). بل عدّه ابن عبدربه من أشراف الكُتّاب فى قوله: "كُتاب النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم. كتب له عشرة كتاب: على بن أبى طالب، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان... وعمرو بن العاص..."(٣٩). وقد عرفنا من قبل ما نال عمرو من شرفٍ باستماعه أحاديث الرسول الأمين، وحفظها، وروايتها، كما روى عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ.

هذا، وقد أبلى عمرو بلاء حسنا فى كثير من المعارك فى فتح الشام أيام الصديق ـ رضوان الله عليه ـ وكان رهن السمع والطاعة لأوامره وتوجيهاته. يقول ابن كثير فيما تمّ سنة ١٣ هـ : " ولما فرغ الصديق من أمر جزيرة العرب بسط يمينه إلى العراق، فبعث إليها خالد بن الوليد، ثم أراد أن يبعث إلى الشام... فشرع فى جمع الأمراء فى أماكن متفرقة من جزيرة العرب. وكان قد استعمل عمرو بن العاص على صدقات قضاعة... فكتب إليه يستنفره إلى الشام: (إنى كنتُ قد ردَدْتك على العمل الذى ولاّكَهُ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مرة، وسماه لك، وقد أَحْبَبْتُ أبا عبد الله أن أُفْرِغَك لما هو خيرٌ لك فى حياتك ومعادك منه، إلا أن يكون الذى أنت فيه أحبَّ إليك). فكتب إليه عمرو بن العاص: إنى سهم من

(٣٧) (السيرة النبوية ٣/١١٥) الحاشية رقم (١) وانظر كذلك (الاستيعاب: ٨/٣٣٦)، فيما رواه أبو هريرة وعمارة بن حزم جميعا عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: "ابنا العاص مؤمنان : عمرو وهشام".

(٣٨) (الإصابة : ٧/١٢٤) ، و(تهذيب التهذيب : ٨/٥٦).

(٣٩) (العقد الفريد : ٤/١٦٨).

سهام الإسلام، وأنت عبد الله الرامي بها، والجامعُ لها، فانظر أشدَّها وأخشاها فارم بي فيها"[٤٠].

وقد سار عمرو على درب التضحية والفداء في أيام الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقد "كان من أمراء الأجناد في الجهاد بالشام في (زمنه)، وهو الذي افتتح قِنَّسْرِين، وصالح أهل حلب، ومنبج، وأنطاكية، وولاه عمر فلسطين"[٤١].

بل يقول ابن عبد البر: "وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد ولاّه بعد موت يزيد بن أبي سفيان فلسطين والأردن ... ثم جمع الشام كلها لمعاوية..."[٤٢].

ومما يثير الإعجاب والتقدير بعمرو، ويؤكد ثقة أمير المؤمنين عمر فيه؛ مجرياتُ الأحداث في (وقعة أجنادين)؛ حيث سار عمرو بجيشه، حتى نزل "على الروم بأجنادين... وعليهم الأرطبون، وكان الأرطبون أدهى الروم، وأبعدَها غورًا، وأنكأها فعلاً، وكان قد وضع بالرملة جندا عظيما وبإيلياء جُندا عظيما. فكتب عمرو إلى عمر بالخبر. فلما جاءه كتاب عمرو قال: قد رمينا أرطبونَ الروم بأرطبون العرب، فانظروا عما تنفرج".

تقول الرواية: "وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة، ولا تشفيه الرسل، فوليه بنفسه، ودخل عليه كأنه رسول، فأبلغه ما يريد... وقال الأرطبون في نفسه: والله إنّ هذا لعمرو أو أنه الذي يأخذ عمرو برأيه، وما كنت

(٤٠) (البداية والنهاية : ٢/٧) هذا، وقوله في الرواية (فشرع في جمع الأمراء) صوابه: (فشرع بجمع الأمراء).

(٤١) (الإصابة: ١٢٣/٧).

(٤٢) (الاستيعاب : ٣٢٨/٨- ٣٢٩).

لأصيب بأمر هو أعظم من قتله" وأعدّ لذلك خطته بعد أن يبرح عمرو مجلسه. "ففطن عمرو... فقال للأرطبون أيها الأمير إني قد سمعتُ كلامك، وسمعت كلامي، وإني واحدٌ من عشرة، بعثنا عمر بن الخطاب لنكون مع هذا الوالي لنشهد أموره، وقد أحببت أن آتيك بهم ليسمعوا كلامك، ويروْا ما رأيتُ. فقال الأرطبون: نعم! فاذهب فأتني بهم. ودعا رجلا فسارّه، فقال: اذهب إلى فلان فردّه. وقام عمرو فذهب إلى جيشه. ثم تحقق الأرطبون أنه عمرو بن العاص، فقال: خدعني الرجل؛ هذا والله أدهى العرب، وبلغت عمر بن الخطاب، فقال: لله دَرُّ عمرو" وبرواية الطبري: "هذا أدهى الخلق، فبلغت عمر، فقال: غلبه عمرو" "ثم ناهضه عمرو فاقتتلوا قتالا عظيما كقتال اليرموك ..." حتى انهزم الأرطبون. (٤٣)

هذا، وقد كتب عمر بن الخطاب ـ بعد أن فرغ من الشام كلها ـ إلى عمرو أن يسير إلى مصر، وقد تم له فتحها صلحا سنة ٢٠ هـ ـ بعد أحداث طوال ـ لعب الدهاء فيها دورًا ذا ثلاث شعب، أقوى من ضربات السيوف وطعنات الرماح؛ حتى تَمّ له الظفر على أهل مصر؛ "فتفرقوا وهم يقولون: لقد رمتكم العرب برجلهم. وبلغ عمر، فقال لجلسائه: والله إن حربه للَيِّنة مالها سطوة ولا سورة كسورات الحروب من غيره؛ إن عمرًا لَعِضٌّ. ثم أمّره عليها"(٤٤).

وظلَّ واليا عليها حتى مات عمر ـ رضى الله عنه ـ في ذى الحجة سنة ٢٣ هـ ، فأقرّه عثمان ـ رضى الله عنه ـ عليها أربع سنوات أو نحوها، ثم عزله عنها،

---

(٤٣) (تاريخ الطبرى : ٣/٦٠٥ ـ ٦٠٦)، و(البداية والنهاية: ٧/٥٤ ـ ٥٥) مع اختلاف طفيف بين الروايتين.

(٤٤) (تاريخ الطبرى : ٤/١١٠). هذا، وقول عمر ـ رضى الله عنه ـ "إن عمرًا لَعِضٌّ" من المثل العربي (إنه لعِضٌّ) أى داهٍ. انظر (مجمع الأمثال: ١/١٩ ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ طبقة السنة المحمدية سنة ١٩٥٥م).

وولاها عبد الله بن سعد بن أبى السرح العامرىّ، وكان أخا عثمان من الرّضاعة. وكان ذلك بدء الشربين عمرو وعثمان[٤٥].

وهكذا ظل عمرو محل ثقة وتقدير طيلة تلك المرحلة؛ وهاهو ذا يؤكد ذلك بقوله: "فوالله ما عدل بى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه فى أمر حَزَبَه منذ أسلمنا، ولقد كنا عند أبى بكر بتلك المنزلة، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة، وكان عمر على خالد كالعاتب"[٤٦].

الطور الثالث : طور الثأر والانتقام والتلبّس بالسلطان والتشبث بالدنيا

وقد امتد هذا الطور ستة عشر عامًا؛ تبدأ من تاريخ عزل عمرو عن ولاية مصر سنة ٢٧ هـ ، وتنتهى بموته يوم الفطر سنة ٤٣ هـ.

وهذا الطور بدوره ينقسم ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة الطعن فى الخليفة عثمان، والتعريض به وتأليب الناس عليه. وقد استمرت هذه المرحلة تسع سنوات، ظل عمرو فيها "بغير إمرة إلى أن كانت الفتنة بين على ومعاوية"[٤٧]. وهى تبدأ من تاريخ العزل سنة ٢٧ هـ، وتنتهى بقتل عثمان وتولية الإمام على الخلافة فى نهاية ذى الحجة سنة ٣٥هـ.

---

(٤٥) انظر أحداث فتح مصر وما يتصل بها فى: (تاريخ الطبرى : ١٠٤/٤: ١١٠)، و(الاستيعاب : ٣٢٩/٨)، و(الولاة والقضاة : ٧ : ١٠)، و(المعارف / ٥٦٩)، و(البداية والنهاية: ٩٧/٧ : ١٠٠)، و(الإصابة : ١٢٤/٧)، و(حياة الصحابة: ٢١٠/١ : ٢١٢) وغيرها.

(٤٦) (البداية والنهاية : ٢٣٨/٤).

(٤٧) (الإصابة : ١٢٤/٧).

المرحلة الثانية : مرحلة الفتنة بين علي ومعاوية، وقد قدم عمرو إلى الأخير منهما؛ للمطالبة بدم عثمان، وتدبير حرب صِفين. وتبدأ هذه المرحلة من انضمام عمرو إلى معاوية ومبايعته له بداية سنة ٣٦هـ[٤٨]، مرورا بالحرب والقتال، وانتهاءً بأمر التحكيم وما تم فيه في نهاية سنة ٣٧هـ .

المرحلة الثالثة: مرحلة افتتاح عمرو مصر بجيش معاوية في صفر سنة ٣٨هـ[٤٩]، وتوليته عليها حتى وفاته يوم الفطر سنة ٤٣هـ.

والذى يعنى البحث ـ هنا ـ هما المرحلتان الأولى والثانية من هذا الطور الأخير؛ فقد عُزل عمرو عن إمرة مصر، وهو شيخ كبير، يبلغ من العمر (٧٤) عاما. وعزيز على المرء أن ينـزل من الدَّرَج إلى الدَّرْك؛ وأن يهبط من عز وسلطان إلى ذلّ وحرمان؛ وبخاصة عمرو بن العاص ذاك الذى قضى عمره السابق ـ تقريبا ـ مُستويًا على عرش الزّعامة والرئاسة؛ فقد كان ـ كما ذكرنا من قبل ـ أحد رؤساء قريش فى الجاهلية. ثم هُدى إلى الإسلام فحظىَ بثقة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى قرّبه إليه، وأدناه منه، وولاّه ـ بعد شهور قلائل من إسلامه ـ إمارة غزوة السلاسل؛ ثم "استعمله ـ على عُمان، فل يزل عليها مدة حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقره عليها الصديق"[٥٠]. كما كان محل ثقة وتقدير وزعامة فى عهد أبى بكر. وكان ـ كذلك ـ من أمراء الأجناد فى فتح الشام فى عهد عمر الذى وَلاّه على فلسطين والأردن؛ ثم أمّره مصر بعد أن افتتحها عمرو سنة ٢٠ هـ. ولا ننسى تقريرَ الخليفة النقّادةِ ذى البصيرة النّافذة والرأى الثاقب ـ الفاروق عمر؛ يوم رأى

(٤٨) (تاريخ الطبرى : ٥٥٨/٤).

(٤٩) (تاريخ الطبرى : ٥٥٥/٤، ٩٤/٥).

(٥٠) (البداية والنهاية : ٢٥/٨).

عمرًا يمشي، فقال: "ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرًا".
وهاهو ذا بغيْر إمارة بعد أن نعم بها، وذاق حلاوتها سنين عددا.

وإذا كان الخليفة عثمان لم يك "يعزل أحدًا إلا عن شكاة أو استعفاء من غير شكاة" كما قال الطبرى[٥١]. فأىُّ جُرمٌ اقترفه عمرو؟ وأىُّ جريرهُ اكتسبها؟ وأىّ شكاة تلك التى أدت إلى عزله؟. أجل "إن الخوارج من المصريين ـ كما حدّثنا ابن كثير[٥٢] ـ كانوا محصورين من عمرو مقهورين معه، لا يستطيعون أن يتكلّموا بسُوء فى خليفة أو أمير، فمازالوا حتى شكوْه إلى عثمان لينـزعَه عنهم، ويُولّى عليهم مَنْ هو أليَنُ منه... فأرسل عثمان فجمع لابن أبى سرح جميع عمالةَ مصر... وبعث إلى عمرو يقول له: لا خير لك فى المقام عند من يُكرهك فاقدم إلىّ"، ويصدع عمرو بأمر الخليفة: خُلقًا ودينًا، لكنه ينتقل إلى المدينة وفى نفسه من عثمان الأمر العظيم والشرّ الكبير "فكلمه ـ (عمرو) ـ فيما كان من أمره بنفس ـ بفتح الفاء ـ وتقاولا".

هذا، ثم خرج عمرو من عند عثمان حانقا حاقدا عليه؛ وشرع يؤلّب كثيرا من الصحابة كعلىّ، وطلحة، والزبير عليه؛ بل كان يعترض الحجاج فيخبرهم بما فعل عثمان. وظل هكذا لا تهدأ له نفس، ولا تَفْتُر له عزيمة؛ حتى إذا ما أحيط بعثمان خرج من المدينة ناصحا أهلها بالهرب منها؛ وبخاصة من لم يستطع نصره منهم، خوفًا عليهم من عقاب الله لمن يدرك قتله ولم ينصره.

غادر عمرو المدينة إلى فلسطين، ونـزل بقصره (العجلان) فى أرض له ثمّة يقال لها: (السبع). وظل يتلقف أخبار عثمان، ويرصد القادمين من المدينة؛ ليقف على مجريات الأمور وما صنع به. فلما أخبره أحدُ القادمين إنه قد (تركه محصورًا

(٥١) (تاريخ الطبرى : ٢٥٣/٤).

(٥٢) (البداية والنهاية : ١٧٠/٧).

شديد الحصار) ، قال عمرو: "أنا أبو عبد الله: قد يُضربُ العَيْر والمِكْواةُ في النار". وحينما أخبره آخر أنه قد قتل، قال: "أنا أبو عبد الله إذا حككتُ قَرْحةً نكأْتُها، إنْ كنتُ لأُحرِّض عليه، حتى أني لأحرِّض عليه الراعي في غنمه على رأس جبل".

هذا، ثم بلغ عمرًا ما أساءه من البيعة لعليّ؛ فضاق صدره، واشتد عليه أمره بيد أنه فضل التأني والانتظار حتى تنجليَ الأمور وتتكشف الأحوال؛ وإذْ به يقف على قتل طلحةَ والزبيرِ في (موقعة الجمل) [٥٣]؛ فأصبح في أمر مريج وحال سيئة حالكة ـ وكانت الشام قد جمعت ـ من قبل ـ لمعاوية من عهد عمر[٥٤] ـ وها هو ذا معاوية يعظم شأن قتل عثمان، ويحرِّض على الطلب بدمه ـ مع أنه لم يُهرع لنجدته، ولم يستجب لاستغاثته[٥٥] ـ وهاهم أولاء أهل الشام يبايعونه بالخلافة، ويحضّونه على ما يرى. فماذا يفعل عمرو؟ أيلتجيء إلى عليّ وهو يعلم علم اليقين ألاّ خير له عنده، ولن يَشركَه في شيء من أمره؟ أم ينحو نحو معاوية، وفيه بغيتُه، وهو أحبّ إليه من عليّ؟ إن عمرًا لن يقطع أمرًا حتى يدعو ابْنَيْه، ليُفتياه فيما أُرْتج عليه. وها هو ذا عبدُ الله ابنُه يذكّره برضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه، ورضى الخليفتين من بعده كذلك؛ راجيًا منه أن يعتزل في بيته حتى يجتمع أمر المسلمين على إمام فيبايعه.

وها هو ذا محمدٌ يناقض أخاه ويقول لأبيه: "أَنت نابٌ من أَنْياب العرب، فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر. وليس لك فيه صوت ولا ذكر". وعلى الرغم من

---

(٥٣) انظر أخبار هذه الوقعة في: (تاريخ الطبري : ٤ / ٤٥٥ : ٥٤٧)، و(مروج الذهب: ٢/٣٦٦: ٣٨٠) و(البداية والنهاية : ٧/٢٣٠ : ٢٤٩) و(الإمام والسياسة: ١/٨٥) وغيرها.

(٥٤) (الاستيعاب : ٨/٣٢٨).

(٥٥) (الإمامة والسياسة : ١/٩٨).

إدراك عمرو هذا البْون الشاسع بين الرأيين ـ إذ الأول منهما يدعوه إلى ما هو خير له في آخرته وأسلم له في دينه. أما الثاني فيدعوه إلى ما هو أنْبهُ له في دنياه، وشرٌّ له في أخراه ـ مع ذلك؛ فقد آثر عمرو الدنيا، وشَد رحاله هو وابناه إلى معاوية(٥٦). مع ما يعلمه عمرو من أنّ معاوية على الباطل، وأن عليا على الحق(٥٧)؛ ولكنها الدنيا، وإصرار عمرو على تعويض ما سلب منه، إلى غير ذلك من ألوان ما يهواه عمرو في حياته. على حدّ قوله من قصيدته النونية التي ستأتي قريبا:

فاخترت من طمعي دُنيا على بَصَرٍ
وما معي بالذي أختارُ برهانُ
إني لأعرفُ ما فيها وأُبْصِرُه
وفيّ أيضا لما أهواه ألوانُ

(٥٦) انظر هذه الأحداث في (الطبري : ٣٥٧/٤: ٣٥٨، ٥٥٨ : ٥٦١) و(البداية والنهاية: ١٧٠/٧ : ١٩١) و(الاستيعاب : ٣٢٩/٨ ـ ٣٣٠). و(الإمامة والسياسة: ٩٦/١).

هذا، وقول عمرو: "أنا أبو عبد الله: قد يُضْرب العَيْر والمكواةُ في النار" يقصد المثل العربيّ: "يَضْرط العير والمكواة في النار".

(يضرب للرجل يُخالف الأمر، فيجزع قبل وقوعه فيه) انظر: (مجمع الأمثال للميداني: ٩٥/٢).

أمَّا قوله: "أنا أبو عبد الله: إذا حككت قرْحة نكأتها"؛ فالمثل لعمرو بن العاص؛ برواية إذا حككت قرحة أدْيتها" انظر (مجمع الأمثال: ٢٨/١).

(٥٧) انظر: (وقعة صفين: ٣٧، ٢٢٣)، و(مروج الذهب : ٢٩/٣)، و(حياة الصحابة : ٢٩/٣) وغيرها.

(مرحلة التفاوض بين معاوية وعمرو)

كان معاوية بن أبى سفيان من الذين أبْوا مبايعة على ـ كرم الله وجهه ـ بالخلافة؛ متكئًا على دعواه ـ هو ومن آزره ـ أن عليًّا قتل عثمان، وآوى قتلته[٥٨]. فلما فرغ الإمام علىٌّ من (وقعة الجمل) أرسل جرير بن عبد الله البجلىّ يدعوه إلى الدخول فى طاعته [٥٩]. ومما جاء فى هذا الكتاب ـ على ما ذكر نصر بن مزاحم فى كتابه (وقعة صفين/ ٢٩ـ٣٠) ـ:

"أما بعد فإن بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام، لأنه بايعنى القومُ الذين بايعوا أبابكر وعمرَ وعثمانَ على مابُويعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يُردّ؛ وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل فسمّوْه إمامًا كان ذلك لله رضا؛ فإن خرج مِنْ أمرهم خارجٌ بطعْنٍ أو رغبة ردّوه على ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غيرَ سبيل المؤمنين، وولّاه الله ما تولّى، ويُصليه جهنم وساءت مصيرا... فادخل فيما دخل فيه المسلمون؛ فإن أحبَّ الأمور إلىّ فيك العافية، إلا أن تتعرض للبلاء. فإن تعرضت له قاتلتُك واستعنت الله عليك. وقد أكثرت فى قتلة" عثمان فادخل فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكم القوم إلىّ أحملُك وإياهم على كتاب الله. وأما تلك التى تريدها فخُدعةُ الصبىِّ عن اللبن. ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنّى أبْرأ قريشٍ من دم عثمان. واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا تعرض فيهم الشورى. وقد أرسلت إليك

(٥٨) انظر: (البداية والنهاية : ٧/٢٥٤: ٢٥٩).

(٥٩) انظر: (وقعة صفين: ٣٣ـ ٣٤)، و(تاريخ الطبرى: ٤/٥٦١ ـ ٥٦٢)، و(البداية والنهاية: ٧/٢٥٤) وغيرها .

وإلى مَنْ قِبلك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والهجرة. فبايع ولا قوّة إلا بالله".

وحينما قرأ معاوية الكتاب دعا معاوية ثقاته ليعرف رأيهم. "فقال عتبة بن أبي سفيان...: اجتمعْنَ على هذا الأمر بعمرو بن العاص، وأثْمِنْ له بدينه، فإنه من قد عرفت" وقد اعتزل أمرَ عثمانَ في حياته، وهو لأمرك أشدُّ اعتزالاً إلاّ إنْ يرَ فرصة"[٦٠].

صدَع معاويةُ برأى أخيه، وكتب إلى عمرو، وهو بفلسطين: "أما بعد فإنه كان من أمر عليٍّ وطلحةَ والزّبيْرِ ما قد بلغك، وقد... قدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة عليّ. وقد حبست نفسى عليك حتى تأتينى. أَقْبِلْ ، أُذكراك أمرًا"[٦١].

فَضّ عمرو الكتابَ، وعلم ما فيه؛ فاستدعى ابنيه ـ على عادته ـ ليرى رأيهما؟ "فقال عبد الله: أرى أن نبيّ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قُبض، وهو عنك راض، والخليفتان من بعده، وقُتل عثمانُ وأنت عنه غائب؛ فقرّ في منزلك فلست مجعولًا خليفة، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دُنيا قليلة، أوشك أن تهْلِك فتشقى فيها.

وقال محمد: أرى أنك شيخ قريش وصاحب أمرها؛ وإن تصرَّم هذا الأمرُ وأنت فيه خامِلٌ تصاغر أَمْرُك؛ فالْحق بجماعة أهل الشام فكن يدًا من أياديها، واطلب بدم عثمان، فإنك قد استنمت فيه إلى بنى أمية. فقال عمرو: أما أنت يا عبد الله فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى؛ وأما أنت يا محمد فأمرتنى بما هو خير لى فى دنياى، وأنا ناظر فيه"[٦٢].

---

(٦٠) (وقعة صفين/٣٣).

(٦١) السابق / ٣٤ . وانظر (الإمامة والسياسة: ١/٩٥).

(٦٢) (وقعة صفين: ٢٤ ـ ٣٥) وانظر (الإمامة والسياسة: ١/٩٦) .

فلما جنّ عليه الليل مدّته ربّة النظم بقصيدته القافية ـ التى ضمّنها ما أحدق به من أحداث، وما طرقه من هموم، وما اعتمل فى نفسه تجاه هذه أو تلك ـ ورفع بها صوته، "وأهله ينظرون إليه، فقال: (الطويل)

تطاولَ ليلى للهموم الطّوارقِ ... وخَوْلَ التى تَجْلو وُجوهَ العَواتقِ

وإنّ ابنَ هندٍ سائلى أن أزورَه ... وتلك التى فيها بناتُ البَوائقِ

أتاهُ جريرٌ من علىٍّ بخُطّةٍ ... أمرّتْ عليه العيشَ، ذاتِ مضائق

فإن نال منّى ما يُؤمِّل رَدَّه ... وإن لم ينلْه ذَلَّ ذُلَّ المُطابق

فوالله ما أدرى وما كنتُ هكذا ... أكُونُ ، ومهما قادنى فَهْوَ سابقى؟!

أُخادِعُه إن الخداعَ دَنيَّةٌ ... أم اعطيه من نفسى نصيحةَ وامِق؟!

أَوَ اقْعُدُ فى بيتى وفى ذاك راحةٌ ... لشيخٍ يخافُ الموتَ فِى كلِّ شارق

وقد قال عبدُ الله قولاً تعلَّقتْ ... به النَّفسُ إن لم يَعْتَلِقْنى عوائقى

وخالفــه فيــه أخــوه محمــدٌ وإنّى لصُلب العُود عند الحقائق.[٦٣]

هذا، ولم يكتف عمرو باستشارة ولديه، بل دعا غلامه وَرْدان "وكان داهيا فقال عمرو: يا وردان ارحل، يا وردان احطط، يا وردان ارحل. فقال وَرْدان: أما إنّك إن شئتَ نبّأتُك بما نفسك، فقال عمرو: هات يا وَرْدان، فقال: اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك، فقلتَ مع عليٍّ الآخرةُ بلا دنيا، ومع معاويةَ دُنيا بلا آخرة، فأنت واقفٌ بينهما. فقال عمرو: ما أخطأت ما فى نفسى، "فما ترى يا وَردان؟ فقال: أرى أن تقيم فى منزلك؟ فإن ظهر أهلُ الدين عشتَ فى عَفْو دِينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك. فقال عمرو: الآن حين شهرتنى العرب بمسيرى إلى معاوية"[٦٤].

ولقد صوّر عمرو ـ فى التّوّ والحال ـ ما دار بينه وبين وَرْدان ؛ وكأنى به ينظم ما قيل نثرا؛ محدِّدا غايته، راضيًا باختياره؛ مُعلّلا له فى قوله: (البسيط)

يا قاتلَ اللهُ وَرْدانًا وقِدْحَتَه أبْدى لَعَمْرُك ما فى النفس وَرْدانُ

لما تعرّضَتِ الدنيا عرضْتُ لها بحرص نفسى وفى الأَطباعِ إدهانُ

نفسٌ تَعُفُّ وأخرى الحرصُ يَغْلِبُها والمرءُ يأكل تبْنًا وهْوَ غَرْثانُ

(٦٣) (وقعة صفين/٣٥). "والبوائق: الدواهى. المطابق: المشى فى القيد. الحقائق ـ جمع الحقيقة وهى: ما يحق على المرء أن يحميه".

(٦٤) (الإمامة والسياسة: ١/٩٦) وانظر كذلك : (وقعة صفين: ٣٥ ـ ٣٦).

أمــا علــىٌّ فَــدِينٌ لــيس يَــشْرَكُه ... دُنيــا ، وذاك لــه دُنيــا وسُــلطانُ

فاخترتُ من طمعى دُنيا علـى بَـصرٍ ... ومــا معــى بالــذى أختــارُ بُرهــانُ

إنــى لأعــرفُ مــا فيهــا وأُبــصرُه ... وفــىَّ أيــضًا لمــا أهــواه ألــوانُ

لكن نفسى تحبُّ العيشَ فى شرفٍ ... ولـيس يرضــى بـذُلِّ العـيشِ إنـسانُ

أمــرٌ لعَمْــرُ أبــيكمْ غــيرُ مُــشْتَبِهٍ ... والمرءُ يَعْطسُ، والوسنانُ وسـنانُ[٦٥].

هذا، ولما قدم عمرو إلى معاوية، وعرف ما عنده من أخبار، وما يحيط به من أخطار؛ مما كان من أمر محمد بن أبى حذيفة الذى كسر سجن مصر، وخرج وأصحابه متمرّدين؛ وما كان من أمر قيصر وزحفه بجيش الروم للتغلب على الشام؛ وما كان من أمر علىٍّ الذى نزل الكوفة استعدادًا للسير إلى الشام ـ لما عرف عمرو هذا، هوّن على معاوية شأن الأوّليْن، وهداه إلى علاجهما؛ حيث يبعث إلى الأول منهما خيلا تقتله أو تأسره؛ ويُهدى إلى الثانى هديّةً سنيّةً، ويسأله الموادعة التى سيرحب بها. "وأما علىّ ـ على رواية ابن قتيبة[٦٦] ـ فوالله إن له فى الحرب لحظًا ما هو لأحد من الناس؛ وإنه لصاحب الأمر. قال معاوية: صدقت، ولكنى أقاتله

(٦٥) (وقعة صفين /٣٦): "والقِدحة ـ بالكسر من قولهم اقتدح الأمر: دبّره ونظر فيه. والإدْهان: المصانعة والغش واللين" وقوله: (والمرء يعطس) من عطس الرجل... هلك والعاطوس من الرجال الذى يُستقدم فى الغمرات.

(٦٦) (الإمامة والسياسة: ٩٨) وانظر كذلك فيما سبق ـ مع اختلاف بسيط (وقعة صفين : ٣٧ ـ ٣٨).

على ما بأيدينا، ونلزمه دم عثمان. فقال عمرو: واسوأتاه؛ إن أحق الناس ألا يذكر عثمان لأنا ولا أنت. قال معاوية: ولم؟ فقال عمرو: أما أنت فخذلته ومعك أهل الشام، واستغاثك فأبطأت عليه؛ وأما أنا فتركته عَيانًا، وهربت إلى فلسطين. قال معاوية : دعني من هذا؛ هلمّ فبايعني. قال عمرو: لا والله لا أعطيك من ديني حتى آخذ من دُنياك. قال معاوية: صدقت، سَلْ تُعطَ. قال عمرو: مصر طعمة..."

ولقد صوّر عمرو - على ما اعتدنا منه - هذا الموقف في مقطّعة له، يقول فيها: (الطويل)

مُعاوِىَ لا أُعطيك دِينى ولم أَنَلْ ... بذلك دُنيا، فانظُرَنْ كيف تصنعُ؟

فإن تُعطنى مصرًا فأرْبحْ بصفقةٍ ... أخذتَ بها شيخًا يَضُرُّ وينفعُ

وما الدينُ والدنيا سواءً ، وإننى ... لآخذُ ما تُعطى ورأسىَ مُقْنَع

ولكننى أُغْضى الجفُونَ وإننى ... لأَخْدعُ نفسِى والْمُخادِعُ يُخْدَعُ

وأُعطيك أمرًا فيه للمُلك قوّةٌ ... وإنّى به إن زلّتِ النّعلُ أضْرَعُ

وتمنعنى مصرًا وليست برغبةٍ   وإنى بذا الممنوعِ قِدْمًا لُمولعُ[٦٧].

وحينما رأى عتبة بن أبى سفيان تردد معاوية فى قبول هذا الشرط نصحه بالموافقة[٦٨]، بل بات عنده ليلتها، وقال بصوت جَهْوَرِىّ شعرًا ليصل إلى معاوية، منه:

أيُّها المانعُ سَيفًا لم يُهزْ   إنما مِلْتَ على خَزٍّ وقزْ

أعْطِ عمرًا إن عمرًا تارِكٌ   دينَهُ اليوم لدنيا لم تُحَزْ

أعْطِه مصرًا وزِدْه مثلَها   إنما مصرُ لمن عَزَّ وبزْ[٦٩].

... إلخ.

فلما سمع معاوية قول أخيه، طلب عمرا، وآتاه سُؤْلَه (مصرَ طُعمة) ـ وإن كان ابناه لم يقنعا بها[٧٠] ـ وكتب له معاوية كتابا بذلك، ضمّنه عمرو ما يضْمن له حقّه، وما يَحول دون غدر معاوية به.

---

(٦٧) (وقعة صفين/ ٣٩). وقد ورد البيت الأول والثانى فى (مروج الذهب: ٣٦٣/٢)، و(عيون الأخبار: ١٨١/١). وقوله: (ورأسىَ مُقْنع): من أقنع رأسه وعنقه: رفعهما وشخص ببصره نحو الشىء فى ذل وخشوع.

(٦٨) (وقعة صفين/ ٣٩)، و(الإمامة والسياسة: ٩٧/١).

(٦٩) (وقعة صفين: ٣٩ ـ ٤٠).

(٧٠) (الإمام والسياسة / ٩٨) ، (وقعة صفين/٤٠).

هذا، ويعود عمرو بكتابه إلى أهله مسرورًا، فيتعجّب ابنُ أخ له ـ جاءه من مصر ـ "وكان فتًى شابًّا داهيةً حليمًا ـ "وقال: يا عمرو؛ ألا تخبرني بأيّ رأى تعيش في قريش، أعطيت دينَك، ومُنّيتَ دنيا غيرك. أتُرى أهْلُ مصرَ ـ وهم قتلة عثمانَ ـ يدفعونها إلى معاوية وعليّ حيّ؟ أو تراها إن صارت إلى معاوية لا يأخذها بالحرف الذى قدمه فى الكتاب؟ فقال عمرو: يا ابن الأخ؛ إن الأمر لله دون معاوية"[71].

وقال الفتى فى ذلك شعرًا مُعرِّضًا بعمرو ومعاوية، مُحقِّرًا صنيعهما، ومُهّددًا إياهما بالإمام عليٍّ وبلائه فى حروبه: (الوافر)

ألا يا هندُ أختَ بنى زيادِ ... دُهِى عمرٌو بداهيةِ البلاد
رُمِى عمرٌو بأعْورَ عَبْشَمِىٍّ ... بعيدِ القَعرِ مَخْشىِّ الكِياد.

ومنه:

ألا يا عمرُو ما أحْرزتَ مصرًا ... وما ملتَ الغداةَ إلى الرشاد
وبعتَ الدينَ بالدنيا خَسارًا ... فأنت بذاك من شرِّ العباد.

وفيه يقول مُهّددًا:

(٧١) (وقعة صفين/٤١)، و(الإمامة والسياسة: ١/٩٧).

ألم تعـــرفْ أبـــا حـــسن عليًّـــا ... ومـــا نالـــتْ يـــداه مـــن الأعـــادى

عَـدَلْتَ بـه مُعاويـةَ بـنَ حـربٍ ... فيابُعْـدَ البيـاضِ مـن الـسوادِ[٧٢]

تقول الرواية : فقال عمرو: يا ابن أخى؛ لو كنتُ مع علىٍّ وسعنى بيتى، ولكنى الآن مع معاوية. فقال له الفتى: إنك لم تُرد معاويةَ لم يُردْك، ولكنك تريد دنياه، وهو يريد دينك"[٧٣].

وقد بلغ معاويةَ أمرُ الفتى، فطلبه، فهرب، فلحق بعلىّ، ونقل إليه هذا النبأ اليقين، فسرَّ عليًّا ذلك، وقرَّبه، وقال رِجزًا فيه تسفيه لهما، وتعريض بهما، وإعلان الحرب عليهما[٧٤].

وهكذا تم الاتفاق بين معاويةَ وعمرو، وعلى هذا النحو اجتمعا، وإن كانا "لايجتمعان على خير أبدًا" كما قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بعض المشاهد[٧٥].

(٧٢) (وقعة صفين/ ٤١ـ ٤٢).

(٧٣) السابق / ٤٢)، وانظر: (الإمامة والسياسة: ٩٧/١) مع اختلاف بسيط فى الرواية.

(٧٤) اطلبه فى (وقعة صفين/ ٤٢: ٤٤). وانظر فى كل هذه الشروط المشار إليها هنا، فى المصادر الآتية ـ على اختلاف بينها تفصيلا أو ايجازا ـ (وقعة صفين/٢٧ : ٤٣). و(الإمامة والسياسة: ٩٢/١ : ٩٧)، و(مروج الذهب: ٣٦٣/٢ : ٣٨١)؛ و(عيون الأخبار: ١٨١/١) و(العقد الفريد: ٣٤٦/٤) وغيرها كثير.

(٧٥) انظرها فى (وقعة صفين: ٢١٨ ـ ٢١٩)، و(العقد الفريد: ٣٤٦/٤) .

(مراحل الحرب والقتال بصفين
وأثرها في رؤية عمرو الشعرية) (٧٦)

بدأت طلائع الحرب بالإثارة والتحريض والتهديد، قبل تلاحم الجيوش، وقد لعبت الخطب والكتب والأشعار دورا رئيسًا في هذه المرحلة(٧٧).

ثم لما بلغ معاويةَ أنّ عليًّا أخذ يشق طريقه إلى صفّين، وأنه آلى على نفسه أن يُباشر الحرب بشخصه ـ استشار عمرًا، فقال له: "أما إذ بلغك أنه يسير فسِرْ بنفسك، ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك. قال: أمّا إذًا يا أبا عبد الله فجهِّز الناس. فجاء عمرو فحضّض الناس" وهوّن لهم شأن أهل العراق، واستخف بقوتهم(٧٨). بل قال حينما بلغه مسيرُ عليّ إلى صفين ـ مشيدا بيقظته ومهدّدًا بقوته: (الرجز)

لا تحسبنِّي يا عليُّ غافلاً لأُورِدَنَّ الكوفةَ القَنَابِلا

بجمعيَ العامَ وجمعيّ قابلا.

فيرد عليٌّ ـ كرّم الله وجهه ـ مهدّدًا بزحفه، مشيدا بعدته وعتاده، وذلك بقوله: (الرجز)

لأُوردنَّ العاصيَ ابنَ العاصي سبعين ألفًا عاقِدى النّواصي

---

(٧٦) للوقوف على أحداث موقعة صفين يمكن الرجوع إلى ما يأتي: كتاب (وقعة صفين) لنصْر بن مزاحم، و(الإمامة والسياسة: ٩٢/١: ١٤٠)، و(تاريخ الطبرى: ٥٦٣/٤ : ٥٧٥، ج/٥: ص/٥: ٧١)، و(مروج الذهب: ٣٨٤/٢ : ٤١٤)، و(البداية والنهاية: ٢٥٣/٧: ٢٨٨) وغيرها.

(٧٧) أنظر المصار السابقة؛ وبصفة خاصة (وقعة صفين/٤٤ : ١٤٠).

(٧٨) (تاريخ الطبرى: ٥٦٣/٤)، وانظر: (البداية والنهاية: ٢٥٤/٧ ـ ٢٥٥).

مُـــسْتَحْقِبين حَلَـــقَ الــدِّلاصِ　　قــد جَنَبُــوا الخيــلَ مــع القِــلاصِ

أُسودَ غِيل حين لا مناص(٧٩).

هذا، ويكتب معاويةُ فى أجناد أهل الشام، ويعقد لواءه لعمرو، فيعقد عمرٌو لابنيه عبد الله ومحمد، كما يعقد لغلامه وردان فيمن عقد. وقد عرف أن عليا قد عقد لغلامه قَنْبر، فيرتجز قائلا: (الرجز)

هــل يُغْنِــيَنْ وَرْدانُ عَنِــى قَنْــبرا　　وتُغنِــىَ الــسّكونُ عنــى حِمْيَــرا

إذا الكماةُ لبسوا السَّنوَّرَا؟!

ويبلغ ذلك عليًا، فيقول فى معنى قوله السابق:

لأُصــبِّحنَّ العاصــىَ ابــنَ العاصــى　　ســبعين ألفًــا عاقِــدى النَّواصــى

مُجنِّـــبين الخيـــلَ بـــالقِلاص　　مُـــسْتحِقبين حَلَـــق الـــدِّلاَصِ.

تقول الرواية: "فلما سمع ذلك معاوية قال (لعمرو): ما أرى ابن أبى طالب إلاّ قد وفِىَ لك"(٨٠).

---

(٧٩) (وقعة صفين/ ١٣٦ - ١٣٧) "القنابل - فى رجز عمرو -: جمع قنبلة - بالفتح - وهى جماعة الخيل" أما قول على: (قد جنبوا الخيل مع القلاص)؛ فقد "كانت العرب إذا أرادت حربا، فساروا ركبوا الإبل وقرنوا إليها الخيل لإراحة الخيل وصيانتها".

(٨٠) (تاريخ الطبرى: ٤/٥٦٣).

هذا، ولم يقف دور عمرو بن العاص عند تحريض الجند، وتحضيض الناس، وإعداد القواد وتكتيب الكتائب، والتهوين من شأن خصمه، والاستخفاف بقوته فحسب ـ بل أولى عنايته أيضا بأسلحته وعتاده. وها هو ذا يشيد بما يمتاز به فرسه ـ الذى أعدّه ليوم صفين ـ من شموخ وارتفاع؛ وعِظم وضخامة؛ وعَدْو ووثْب، وسرعة وانطلاق؛ وذلك في قوله ـ على ما جاء فى (كتاب العقد الفريد: ٥/٢٨٣: ٢٨٤) ـ: (الرمل)

شُبَّتِ الحربُ (فأعددتُ لها   مُفْرِغَ الحارِكِ مَحْبوكَ الثَّبَجْ)

يصل الشدَّ بشدٍّ (فإذا   وَنَت الخيلُ عن الشدِّ مَعَجْ)

جُرْشُعٌ أعْظَمُه جُفْرَتُه   فإذا ابتلَّ من الماء خَرجْ.

(حرب الفرات)

أقبل علي ـ كرم الله وجهه ـ في جيوشه، وجاء معاوية في جنوده، والتقيا بصفين في أوائل ذى الحجة سنة ٣٦هـ. وكان معاوية قد سبق بجيشه فنزل على مشرعة الماء في مكان سهل فسيح، وقد أجمعوا أمرهم على أن يمنعوا أهل العراق من الماء؛ ليموتوا عطشًا، كما منعوا عثمان منه. ولم يلتفت معاوية إلى نداء الإمام عليّ بترك الماء بينهم جميعا؛ إذ لم تُقدم الجيوش للقتال على الماء. كما لم يلتفت إلى نصيحة عمرو بن العاص له في قوله:

"خلّ بينهم وبين الماء فإن عليًّا لم يكن ليظمأ وأنت ريّان، وفي يده أعنّة الخيل، وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت. وأنت تعلم أنه الشجاع المطرق، ومعه أهل العراق وأهل الحجاز. "[٨١]؛ لم يلتفت معاوية إلى قول هذا أو ذاك مقتنعا برأى الوليد بن عقبة، وعبد الله بن أبى سرح، والسّليل السّكونى، ويزيد بن أسد القَسْرىّ، الذين رفعوا الماء سلاحا فى وجه جيش أهل العراق.

ومن ثمَّ غُلب عمرو على أمره، وقُهر على مسايرة قومه، وأصبح ممن يحول بين أهل العراق والماء، ومن يُهدّد به فى معمعة اللقاء، إذ الحرب خدعة على حدّ اعترافه وتبريره[٨٢].

بَيْد أن الأمر كان على ما توقع عمرو فى كلمته لمعاوية، إذ بعث "علىٌّ - كما يقول ابن كثير[٨٣] - الأشعث بن قيس الكندىّ فى جماعة ... فتراموْا بالنّبل ساعةً، ثم تطاعنوا بالرّماح أخرى، ثم تقاتلوا بالسيوف بعد ذلك كلّه، وأمدّ كلٌّ طائفة أهلُها، حتى جاء الأشتر النخعىّ من ناحية العراقيين وعمرو بن العاص من ناحية الشاميّين. واشتد الحرب بينهم أكثر مما كانت... ثم مازال أهل العراق يكشفون الشاميين عن الماء حتى أزاحوهم عنه، وخلّوْا بينهم وبينه...". وعلى رواية نصر بن مزاحم:

"فحملوا على عمرو ومن معه... فأزالوهم عن الماء حتى غمست خيلُ علىّ سنابكها فى الماء"[٨٤].

---

(٨١) (وقعة صفين/ ١٦٣).

(٨٢) السابق / ١٧٠.

(٨٣) (البداية والنهاية: ٢٥٦/٧ - ٢٥٧).

(٨٤) (وقعة صفين/١٦٣) وانظر الأحداث السابقة فى هذا المصدر (من ص / ١٦٠ : ١٦٣، ١٧٠)، و(الإمامة والسياسة: ١٠٣/١ : ١٠٥)، و(البداية والنهاية: ٢٥٦/٧ : ٢٥٧) وغيرها.

هذا، وقد شق صوت الأشتر النّخعى، سماء المعركة مُلْقِيًا الرعبَ فى قلب عمروِ بن العاص ومَنْ معه، وهو يحمل عليهم فى هذا اليوم - يوم الفرات - مرتجزًا مُهدِّدًا بقوله: (مجزوء الرجز)

وَيْحكَ يا ابنَ العاصى تنَحَّ فى القواصى

واهرَب إلى الصّياصى اليومَ فى عِراصى

نأخُذُ بالنّواصى لا نَحذَرُ التَّناصى

نحن ذوى الخِماصِ لا نقرُبُ المعاصى

فى الأَدْرُعِ الدِّلاصِ فى الموضع المُصاصِ.

فيجيبه عمرو راميا إياه بالسذاجة فيما يبغيه، والكذب فيما يدّعيه، والخلف لما ينويه، داعيا إياه أن يُقيّم تركته لورثته، لأن الموت سيأتيه، ورَمْسَه سيطويه وهو لا محالة ماكث فيه، فيقول: (مجزوء الرجز)

وَيْحكَ يا ابنَ الحارثْ أنت الكذوبُ الحانثْ

أنت الغريرُ الناكِثْ أَعِدَّ مالَ الوارثْ

وفى القبور ماكِثْ[٨٥].

---

(٨٥) (وقعة صفين/١٧٠ - ١٧١.

هذا، ولما غَلب أهل العراق على الماء قال عمرو: " يا معاوية ما ظنك بالقوم إن منعوك الماء كما منعتهم أمس؛ أتُراك تُضاربهم عليه كما ضاربوك عليه، وما أغنى عنك أن تكشف لهم السَّوْءة. قال: دع عنك ما مضى منه، ما ظنك بعليّ؟ قال: ظنى أنه لا يستحل منك ما استحللت منه، وأن الذى جاء له غيرُ الماء، فقال له معاوية قولا فأغضبه"[٨٦]. فنظم عمرو قصيدة قصيرة مُعرِّضا فيها بسياسة معاوية وقِصَر نظره، شامتًا به، مُعيِّرا إياه بالهزيمة، ومنذره بما سينزل عليه من أهل العراق إن عاجلاً أو آجلاً ـ حيث ـ يقول: (المتقارب)

أمرتُكَ أمرًا فسخّفْتَه ... وخالَفنى ابنُ أبى سَرحَةْ

فأغمضْتَ فى الرأى إغماضةً ... ولم ترَ فى الحرب كالفُسْحَةْ

فكيف رأيتَ كباشَ العراقِ ... ألم يَنْطِحُوا جمْعنا نطْحَهْ

أظنُّ لها اليومَ ما بعدها ... وميعادُ ما بيننا صُبْحَهْ

فإن ينطحونا غدًا مثلَهِا ... نكنْ كالزّبيرىِّ أو طلْحَةِ

وإن أخّروها لما بعدها ... فقد قدّموا الخبْطَ والنّفْحهْ

---

(٨٦) (السابق / ١٨٥ ـ ١٨٦) ، و(الإمامة والسياسة : ١/١٠٥ ـ ١٠٦).

وقد شرب القومُ ماءَ الفراتِ   وقلّدك الأشترُ الفضْحَةْ[87].

نعم ظفر أهل العراق بالماء، بَيْد أن خلق فارس الإسلام عليّ ـ كرَّم الله وجهه ـ أبت عليه إلا أن يبعث إلى معاوية قائلا (إنا لا نكافئك بصنعك هلمّ إلى الماء، فنحن وأنتم فيه سواء)، فأخذ كل واحد منهما بالشريعة مما يليه" على رواية ابن مزاحم[88].

أما على رواية ابن كثير ـ البداية والنهاية: ٢٥٧/٧ ـ:"ثم اصطلحوا على الورود حتى صاروا يزدحمون فى تلك الشريعة، لا يكلم أحدٌ أحدًا، ولا يؤذى إنسانٌ إنسانا".

وندم معاوية على ما كان منه وقال: "لله دَرّ عمروٍ؛ ما عصيتُه فى أمر قطُّ إلا أخطأتُ الرأى فيه"، ثم تراضيا معًا[89].

(استئناف القتال بعد توقّفه في شهر المحرّم سنة ٣٧ هـ)

تناهى الفريقان عن القتال إلى أن ينقضى شهر المحرم؛ مراعاة لحرمته من جهة؛ ورجاءً أن يصلح الله بين الفريقين، ويجمع شملهما من جهة أخرى؛ ومن

(٨٧) (وقعة صفين/ ١٨٦). "والخبط: الضرب الشديد. والنفحة: الدفعة من العذاب".

(٨٨) (السابق / ١٩٣).

(٨٩) السابق الصفحة نفسها.

ثمَّ اختلفت رسل الصلح إليهما، وتعدَّدت محاولاتهم، واستنفدوا طاقتهم دون جدوى[٩٠].

ولما انسلخ المحرم كان التأهب للحرب ـ بعد أن أعذر إليهم عليّ حين أرسل مَنْ يُنادى عند غروب الشمس: "يا أهل الشام؛ ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم: إنى قد استدمتكم واستأنيت بكم لتُراجعوا الحقَّ، وتُنيبوا إليه، واحْتججتُ عليكم بكتاب الله، ودعوتكم إليه، فلم تتناهَوْا عن طغيان، ولم تُجيبوا إلى حق، وإنى قد نبذت لكم على سواء، إن الله لا يحبّ الخائفين"[٩١].

هبّ كل فريق يكتّب كتائبه، ويعبّىء عساكره، ويحرّض جنوده. يقول ابن مزاحم: "وبات علىٌّ ليلته كلَّها يُعبِّىء الناس، حتى إذا أصبح زحف بالناس، وخرج إليه معاوية فى أهل الشام، فأخذ علىّ يقول: مَن هذه القبيلة؟ ومَن هذه القبيلة؟ يعنى قبائل أهل الشام فيسمُّوْن له، حتى إذا عرفهم وعرف مراكزهم، قال للأزد: اكفونى الأزد... وأمر كلَّ قبيلة من أهل العراق أن تكفِيَه أختها من أهل الشام...". وكذلك كان صنع معاوية[٩٢].

ويثير عمرو بن العاص حمية أهل الشام، ويشعل حماسهم، ويفجّر ضغائنهم نحو الإمام علىّ، مذكرا إياهم بدم عثمان، مبرّرًا لهم أن قتالهم فى سبيل الله، مناديًا إياهم بقوله:

---

(٩٠) انظر طرفا من هذه المحاولات فى (وقعة صفين/ ١٩٦ : ٢٠٢).

(٩١) (وقعة صفين/ ٢٠٣).

(٩٢) السابق / ٢٢٧ : ٢٢٩.

يأيُّهـا الجنـدُ الـصليبُ الإيمـانْ قومــوا قيامًــا واسـتعينوا الــرحمنْ

إنــى أتــانى خــبرٌ فأشـجانْ أنّ عليًّــا قتـــل ابـــن عفّـــانْ

رُدّوا علينا شيْخَنا كما كانْ[٩٣].

والتحم الجيشان يوم الأربعاء أول يوم من صفر سنة ٣٧هـ. واستمرت المعارك بينهما تَتْرى بعد هذا اليوم.ويظل كل فريق يحرّض جنوده، ويهدّد خصومه فى كل معركة، إلى أن كانت معركة الأربعاء الثامن من صفر سنة ٣٧هـ؛ تلك المعركة التى التقى فيها الجيشان، واحتدم بينهما القتال زهاء نهارهم، حتى إذا ما جنّهم المساء، انصرف كل منهما دون بلاء. ولعل هذه النتيجة لم تُرض عمرا، ومن ثم أطلق صوته، مُلوِّحًا بإحكام خُططه فى حربه، مُهدّدًا بذلك الإمام عليا، ومنذره لقاء جيش كثيف يُصبحُهم فيطحنهم طحنا ـ وذلك فى قوله: (الرجز)

لا تأمننَّــا بعـــدَها أبــا حــسنْ إنــا نُمِــرُّ الحــربَ إمْــرارَ الرَّسَــنْ

لتُـــصْبَحُنَّ مثلَهــــا أُمَّ لُـــبَنْ طاحِنــــةً تـــدُّقكُم دَقَّ الحُفَـــنْ[٩٤].

(٩٣) (السابق / ٢٢٨).

(٩٤) السابق / ٢٤٢ . "والرَّسَنُ : الحبل . وإمراره: إحكام فتله. واللّبنُ : جمع لبون، وهى ذات اللبن من الإبل. عنى كثرة ما بهذه الحرب من الإبل وركبانها. والحفن: جمع حفنة، بالفتح، وهى ملء الكفين من طعام، ولا يكون إلا من شىء يابس كالدقيق ونحوه".

(دُعاء عليٍّ معاويةَ إلى البراز[٩٥])

تعددت المعارك، واشتد القتال بين الفريقين، وكثرت الضحايا، وانهمر الدماء، وفاضت الأرواح؛ ومن ثَمَّ أراد الإمام عليّ أن يستعجل النهاية لهذه الحروب. تقول الرواية:

"ثم قام عليّ بين الصفين، ثم نادى: يا معاوية... فبرز معاويةٍ ومعه عمرو بن العاص... وقال لمعاوية: ويحك! علام يقتتل الناس بيني وبينك، ويضرب بعضهم بعضا؟!، إبرز إلىّ فأينا قتل صاحبَه فالأمر له". فيلتفت معاوية إلى عمرو ليفتيه فى هذا الأمر، فيقول عمرو: "لقد أنصفك الرجل، واعلم أنك إن نكلت عنه لم تزل سُبّةً عليك وعلى عقبك ما بقى عربىّ. فقال معاوية: يا عمرو ليس مثلى يُخدع عن نفسه، والله ما بارز ابن أبى طالب رجلا إلا سقى الأرضَ من دمه، ثم انصرف راجعا... وعمرو معه". وإن كان قد حقدها على عمرو، مع أنّه قال له: ما أظنك إلا مازحًا. ثم قال معاوية: مشيرا إلى خبث عمرو فى نصحه: (الكامل)

يا عمرُوٍ إنّك قد قَشَرْتَ لِىَ العصا	برضاك فى وسَط العجاجِ برازى
يا عمرُو إنك قدِ أشرتَ بظِنّةٍ	إن المبارزَ كالجُدَىِّ النازى
...	...
ولقد أعدْتَ، فقلتُ: مِزْحَةُ مازحٍ	والمَزْحُ يحملُه مقالُ الهازى

(٩٥) انظر (الإمامة والسياسة: ١/١٠٦).

فإن الذى مَنّتْك نفسُك خاليًا قتلى، جزاك بما نويتَ الجازى

فلقد كشفتَ قِناعَها مذمومةً ولقد لبستَ بها ثيابَ الخازى"[٩٦]

وفى رواية أخرى: "فقال معاوية: ويحك يا عمرو، والله إن تريد إلا أن أقتل فتصيب الخلافة بعدى. اذهب إليك، فليس مثلى يخدع"[٩٧].

وتمدّنا الرواية بأن عمرًا قال: "إيهًا أيها الرجلُ، أتَجْبُنُ عن خَصْمك، وتتّهم نصيحك؟! وقال مجيبًا له" مُدافعًا عن نفسه، مُنزهًا إياها عن الدَّخَن والدَّخَل؛ ومُستخّفًا بمعاوية، متهكّمًا بتفكيره وتأويله، مُعرِّضًا بجُبْنه وخَوَره:

مُعاوِىَ إن نكلت عن البراز لك الويلاتُ فانظرْ فى المخازى

مُعاوِىَ ما اجْتَرَمْتُ إليك ذنبًا وما أنا فى التى حَدثتْ بخازى

وما ذنبى بأنْ نادَى علىٌّ وكبْشُ القوم يُدْعى للبراز؟!

فلو بارزتَه بارزتَ ليثًا حديدَ النّابِ يَخْطَفُ كُلَّ بازى

ويزعم أننى أضمرتِ غشًّا جزانى بالذى أضْمرتُ جازى

(٩٦) (وقعة صفين: ٢٧٤ ـ ٢٧٥).

(٩٧) السابق / ٣١٦.

أَضَبْعٌ فـى العَجاجـةِ يـا ابـنَ هنـدٍ وعند الباه كـالتّيْس الحجـازى؟![98].

(مبارزة عمرو عليًّا وسلاحُ وقايته من طعنته)

ويحمل جيش العراق على جيش الشام، فى واحدة من المعارك، ويحتدم القتال بينهما، ويهجم عمرو مُعْلِمًا، مرتجزا مشيدا بقوته وشجاعته، مهددًا ببلائه فى حروبه مع كثير من القبائل، وذلك فى قوله: (الرجز)

شِـدُّوا علـىَّ شِـكّتى لا تنكـشفْ بعـد طُلَـيْحٍ والزُّبيْـر فـأتلفْ
يـومٌ لهمـدانَ ويـومٌ للـصَّدِفْ وفـى تمـيمٍ نخـوةٌ لا تنحـرِفْ
أضْـرِبُها بالـسيف حتـى تنصرفْ إذا مَـشِيتُ مِـشْيَةَ العَـوْدِ الـصَّلِفْ
ومثلـهـا لِحمْيَـرٍ أو تنحـرِفْ والرَّبَعيّـون لهـم يـومٌ عَـصِيفْ.

فيعترضه الإمام على ـ دون أن يعرفه عمرو ـ مرتجزا... "ثم طعنه فصرعه، واتّقاه عمرو برِجْله، فبدَتْ عورتُه، فصرف علىّ وجهه عنه وارتُثّ".

ويلقاه معاوية متهكما به، قائلا له: "احْمِدِ اللهَ واحْمِدْ عورتَك، أما والله أنْ لو عرفتَه ما أقحمتَ عليه. وقال...: (الوافر)

---

(98) السابق / ٢٧٦.

ألا لله مــن هَفَــوات عمــرٍو يُعــاتبنى علــى تركــى بــرازى

فقــد لاقــى أبــا حــسنٍ عليًّــا فــآب الــوائلىُّ مــآبَ خــازِى

فلــو لم يُبْــدِ عَورتَــه لَلاقــى بــه ليثًــا يُــذلِّلُ كــلَّ نــازى

فــإن تكــنِ المنايــا أخطأتْــه فقــد غَنَّــى بهــا أهــلُ الحجــاز.

فغضب عمرو، وقال : ما أشد تَغْبيطَك عليًّا فى أمرى هذا. هل هـو إلا رجـلٌ لقيه ابنُ عمه فصرعه، أفترى السماءَ قاطِرةً لذلك دمـا؟! قـال: ولكنهـا معقبـةٌ لـك خزيًا"[٩٩].

ويـأبى عمـرو إلا أن يـردّ عليـه بقـصيدته الـسينية؛ واثقـا بنفـسه، مـشيدا بفروسيته، مُهوِّنًا من شأن ما حدث لـه يـوم أن بـارز عليًّـا؛ ثـم يـستخف بشماتة معاوية به، مُعرّضًا بجُبنه وفزعه من مبارزة علـىّ، ومُخَوِّفًـا إيـاه بقـوة الإمـام علـى وبسالته، ومُعرِّضًا بضآلة شأن كل من يلقاه قياسًا به، وأخيرًا يُلزم معاويـة الحجـة إن أراد أن ينفىَ عن نفسه الخوْر والضعف، فليقف موقفه من علىّ، أو فلينظر إليه وهو مقبل فى خيله، يقول عمرو: (الطويل)

---

(٩٩) (السابق / ٤٠٦ : ٤٠٨) وانظر فى براز عمرو لعلى: (الإمامة والسياسة: ١٠٧/١). هذا، "والصدِف ـ بكسر الدال ـ (فى رجز عمرو): لقب عمرو بن مالك بن أشرس بن عفير بن عدّى بـن الحـارث بـن مـرة بن زيد بن كهلان".

مُعـاوِىَ لا تـشمتْ بفـارس بُهْمَـةٍ لَقِــى فارسًــا لا تَعْتريــه الفــوارسُ

مُعاوِىَ إن أبصرتَ فِى الخيل مُقْبلاً أبــا حــسنٍ يهـوِى دَهَتْــك الوســاوِسُ

وأيقنــتَ أنّ المــوتَ حــقٌّ وأنــه لنفسك إن لم تمْضِ فى الرّكْض حـابسُ

فإنــك لولاقِيتَــهُ كنــتَ بُومــةً أُتــيح لهــا صَــقْرٌ مــن الجــوّ آنِــس

ومـاذا بقـاءُ القـومِ بعـد اختباطـه وإنّ امــرأً يلقـــى عليًّـــا لآيـــسُ؟!

دعـاك فـصُمَّتْ دُونَـه الأُذْنُ هاربًـا بنفـسك قـد ضـاقت عليـك الأمـالِسُ

وأيقنـتَ أن المـوتَ أقـربُ موْعـدٍ وأن التــى نــاداك فيهــا الــدَّهارسُ

وتشمَتَ بى أن نـالنى حَـدُّ رُمحِـه وعَضّـضنى نـابٌ مـن الحـرب نـاهِسُ

أبــى اللهُ إلاّ أنــه ليــثُ غابــةٍ أبــو أشْــبُلٍ تُهــدَى إليــه الفــوارسُ

وأنـى امـرؤ بـاقٍ فلـم يُلـفَ شِـلْوُه بمْعــتركٍ تَــسْفِى عليــه الــروامِسُ

فإن كنت فى شكٍّ فَأَرْهِجْ عَجاجةً   وإلاّ فتلك التُّرَّهاتُ البسابسُ[100].

(خبر عمّار بن ياسر وأثره)

عمار بن ياسر هو ذلك الأسد الهصور، والمقاتل فى جيش علىّ بن أبى طالب. وقد أبلى فى الإسلام البلاء الحسن، وأطراه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مواطن كثيرة، وزكاه فى دنياه وأخراه بأحاديث جمة. وحسبه فضلا أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بشره هو وأهله بالجنة، بقوله الشريف: **"صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة"** فى مناسبة معروفة وقصة مشهورة.

هذا، وقد كان من عادة الفريقين التسامح عند التحاجز "وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء عسكر هؤلاء"، مما أتيح لرجل من أهل الشام يدعى (ذو الكلاع) أن يسعى للقاء رجل فى خيل علىّ، يدعى (أبو نوح الكلاعىّ)، قائلا له: "إنما دعوتك أحدّثك حديثا حدَّثناه عمرو بن العاص قديما فى إمارة عمر بن الخطاب...أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **"يلتقى أهل الشام وأهل العراق وفى إحدى الكتيبتين الحقُّ وإمام الهدى، ومعه عمار بن ياسر"**، قال أبو نوح: لعمرو الله إنه لفينا .. ورب الكعبة لهو أشدّ على قتالكم منى...".

ويتفق الرجلان أن يُبلغا هذا القول لعمرو ـ الذى لم يك يعلم بوجود عمار فى جيش علىّ ـ أن يبلغاه لعل الله أن يصلح بذلك بين الفريقين، وتضع الحرب أوزارها. ويجدّ الرجلان فى ذلك، ويلتقيان بعمرو ـ فى فترة المسامحة ـ ويُلقيان الخبر بين يديه، فينزعج انزعاجًا شديدا، مُطلِقًا صوته بانفعال وتعجّب مُتسائلا:

---

(١٠٠) (وقعة صفين/ ٤٧٣) البُهمة : الشجاع يستبهم على قرنه وجْهُ غلبته.

أفيكم عمار؟. فقال أبو نوح: لِمَ تسألُنى عنه؟ قال عمرو: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: "**إنّ عمارًا تقتله الفئة الباغية، وإنه ليس ينبغى لعمار أن يفارق الحق، ولن تأكل النارُ منه شيئًا)...**".

هذا، وقد شاع بين الفريقين ما سمعه عمرو من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول لعمار: "**يقتلك الفئة الباغية**" فيَكْبُر ذلك الأمرُ على معاوية، فيبعث لعمرو قائلا له:

"أفسدت علىَّ أهلَ الشام، أكلَّ ما سمعته من رسول الله تقوله؟، فقال عمرو: قلتها ولست والله أعلم الغيب، ولا أدرى أنّ صفّين تكون؛ قلتها وعمارُ يومئذ لك ولى، وقد رويتَ أنت فيه مثل الذى رويتُ فيه، فاسأل أهل الشام. فغضب معاوية، وتنمّر لعمرو، ومنعه خيره. فقال عمرو: لا خير لى فى جوار معاوية إن تجلّت هذه الحروب عنا. وكان عمرو حمىّ الأنف ـ كما تقول الرواية ـ فقال فى ذلك" شعرا مُبرِّرًا فيه سلوكه فيما رواه عن عمار؛ ومُتَّهِمًا معاوية بالحقد عليه وعدم الإخلاص له؛ ومذكرا إياه بوفائه له والعمل الدائب لفوزه ونصره؛ وأخيرًا يكشف له عن عزمه على مفارقته حتى تطيب له الشام بعد مغادرته ـ وذلك فى قوله: (الطويل)

تُعاتبُنى أنْ قلتُ شيئًا سمعتُهُ ... وقد قلتَ لو أنْصَفْتنِى مثلَه قبلِى؟!

أنَعْلُكَ فيما قلتَ نَعْلٌ تَبيتَةٌ ... وتزلَقُ بى فى مثل ما قُلتَه نَعْلى؟!

وما كان لى علمٌ بصفّينَ أنها ... تكونُ وعمّارٌ يحثُّ على قتلى

فلو كان لى بالغيب عِلمٌ كتمتُها وكابْدتُ أقوامًا مراجِلُهم تغلى
أبى الله أنّ صدرَك واغرٌ علىَّ بلا ذنبٍ جَنيْتُ ولا ذَحْل
سوى أننى، والراقصاتِ عشيَّةً بنصْرِك مدخولُ الهوى ذاهِلُ العقل
فلا وضعتْ عندى حَصانٌ قِناعَها ولاَ حَمَلَتْ وَجْناءُ ذِعْلِبَةٌ رَحْلى
ولازلتُ أُدعى فى لُؤَىٍّ بن غالبٍ قليلاً غَنائى لا أُمِرُّ ولا أُحْلى
إن الله أرْخَى من خِناقك مرَّةً ونِلْتَ الذى رجّيْتَ إن لم أزُرْ أهلِى
وأتركْ لك الشامَ الذى ضاقَ رُحْبُها عليك ولم يهْنِكْ بها العيشُ من أجْلِى.

فيجيب معاوية عليه بقصيدة على الوزن والقافية يترضّاه فيها "فلما أتى عمرًا شعرُ معاوية أتاه فأعتبه وصار أمرهما واحدًا"[(١٠١)].

(١٠١) انظر فى قصة أبى نوح الكلاعىّ وذى القلاع وما انتهت إليه القصة بلقاء عمرو بعمار وتحاورهما (وقعة صفين/ ٣٣٢: ٣٣٩). واقرأ موقف معاوية من عمرو، وما تلاه من شعر إلى آخر الرواية: فى (المصدر نفسه).

(مما أورده ابن مزاحم من أشعار بصفين)

هذا، ويورد ابن مزاحم طائفة مما قيل في صفين ـ شعرا ونثرا ـ فنقف من بينها على ما ذكره لعمرو بن العاص في مواقف شتى، وأغراض متعددة؛ منه قوله مفتخرا بنفسه:

(إذا تخازرْتُ وما بي من خَزَرْ) (ثم خَبَأْتُ العينَ من غير عَوَرْ)

(أُلْفَيْتَنِي أَلْوَى بعيدَ المُسْتَمَرْ) ذا صَوْلَةٍ في المُصْمَئِلاَتِ الكُبَرْ

(أحْمِلُ ما حُمِّلتُ من خيرٍ وشرْ) كالحيّة الصّمّاءِ في أصل الصَّخَرْ[١٠٢].

ومنه كذلك ما قاله في الغرض نفسه، مع تعريضه بقيادة الكوفة، مناديًا: (الرجز)

أنا الغُلامُ القرشيُّ المُؤتمنْ الماجِدُ الأبلجُ ليثٌ كالشَّطَنْ

يَرضى به الشامُ إلى أرض عَدن يا قادةَ الكوفةِ من أهل الفتن

يأيها الأشرافُ من أهل اليمنْ أضربُكم ولا أرى أبا حَسن

(١٠٢) (وقعة صفين/ ٣٧٠) "التّخازر: إظهار الخزر؛ وهو ضيق العين وصغرها ـ والألوى: الشديد الخصومة". وبعيد المُسْتَمر: قويّ في الخصومة لا يسأم المراس. والمصمئلات ـ بفتح الميم بعدها صاد ساكنة: الشدائد. من (اصمألّ): اشتد. واصمأل فلان: انتفخ غضبا فهو مصمئل.

أعنـى عليًّـا وابـنَ عـمٍّ المـؤتمَنْ كفـى بهـذا حزنًـا مـن الحَـزَنْ

فلما بُلِّغ عليٌّ بهذا النداء ضحك وقال: "أما والله لقد حادَ عُدَىٌّ الله عنى، وإنه بمكانى لعالم، كما قال العربىّ: (غير الوَهْيِ تَرقَعين وأنت مبصرة)، ويحكم؛ أرونى مكانه لله أبوكم، وخلاكم ذم"[١٠٣].

هذا، ويقول عمرو فى وصف القتال بين الفريقين، منصفا كلا منهما، مستنكرا على أهل العراق زحفهم وقتالهم اللذين لن يحقق بهما أحلامهم لقوة خَصمهم؛ داعيًا إياهم إلى إعمال عقولهم ليدركوا أن ما بين الطرفين من حجاج هو عند الله أدهى وأمر. ثم يشير إلى حرص كل من الفريقين على اكتمال عُدّته، وإحراز الظفر والفتك بخصمه، مبديا ألمه وأسفه على كثرة مَن تساقط من ضحايا من الطائفتين؛ فيقول مخاطبًا أهل العراق: (الطويل)

أجئـتمْ إلينـا تسفكون دِماءَنـا ومـا رُمْـتُمُ وَعْـرٌ مـن الأمـر أعْسَرُ

لعمرى لَما فيـه يكـونُ حِجاجُنـا إلى الله أدْهـى لـو عَقلْـتُم وأنكـرُ

تعـاورتُمُ ضـربًا بكـل مُهنَّـدٍ إذا شَـدَّ وَرْدانٌ تَقـدَّم قَنـبرُ

كتـائبُكم طـورًا تـشُدُّ، وتـارةً كتائبُنـا فيهـا القنـا والسَّنَوَّرُ

(١٠٣) السابق / ٣٧١ ـ ٣٧٢. "والوهى، بالفتح: الشق فى الشىء"..

إذا ما التقوْا يومًا تـدارك بيـنهم ... طِعانٌ ومـوتٌ فـى المعـارك أحمـرُ[١٠٤].

ويشيد عمرو ببلائه وبلاء جنده في وقعة كانت بينه وبين سُمير بـن الحـارث العجليّ، مشيرا إلى كثرة قتلاه فيها، وفى غيرها من المعارك التى خاضها من قبل. فيقول: (الطويل)

لعمرى لقـد لاقـتْ بـصفيّنَ خيلُنـا ... سُـميْرًا فلـم يعْـدِلْنَ عنـه تخوّفـا

قصدتُ لـه فـى وائـلٍ فـسَقيْتُه ... سِـمامَ زُعـافٍ يـترك اللـونَ أكْلَفـا

فمـا جَبُنـتْ بكـرٌ عـن ابـن مُعَمَّـرٍ ... ولكـن رجـا عَـوْدَ الهَـوادةِ فانكفـا

وخاف الذى لاقى الهُجَيْمِيُّ قبلـه ... تفـرَّق عنـه جمعُـه فَتُخطِّفـا

ونحـن قتلنـا هاشمًـا وابـنَ ياسـرٍ ... ونحن قتلنـا ابنَـىْ بُـدَيلٍ تعـسُّفا[١٠٥].

---

(١٠٤) السابق / ٣٧٤ تعاورتم: أى تداولتموه فيما بينكم. والسنَّور: جملة السلاح، ولبوس من سير يلبس فى الحرب كالدرع، والموت الأحمر: القتل والموت الشديد.

(١٠٥) السابق/ ٣٨٤.

هذا، ويقف عمرٌو إعجابًا وتقديرًا لفوارس قومه، ويتجلّى تقديره لهم فى الإشادة بشجاعتم وقوتهم وبسالتهم، وإطرائه كمال عدّتهم، وكثرة خبرتهم، وسرعة بديهتهم. فيقول: (الكامل)

أنْ لو شهدْتَ فوارسًا فى قومنا ... يوم القوارعَ مرَّ مرَّ الأجْهَلِ

لرأيتَ مأسدَةً شوارعَ بالقنا ... جُونَ الجلودِ من الحديد المُرسَلِ

مُتسرْبلين سوابغًا عاديَّةً ... أدْفوا الملوكَ بكل عَضْبٍ مِقْصَلِ

يمشون فى عَنَتِ الطريقِ كأنّهم ... أُسْدٌ تقلْقَلُ فى غريفِ الحِسْكِلِ

يَحْمون إذْ دُهموا، وذاك فَعالُهم ... عند البديهة فى عَجاج القسْطلِ

النازلون أمامَ كلِّ كريهةٍ ... تُخْشَى عوائدُها غَداةَ الفَيْصَلِ

والخيلُ غائرةُ العيونِ كأنما ... كُحِلتْ مآقيها بزُرْقِ الكعْطلِ

يَعْدون إذ ضَجَّ المنادى فيهمُ ... نحو المنادى بذْخَةً فى القَنْبُلِ

ودنـا الكمـاةُ مـن الكُمـاة وأعَملـتْ   زُرْقًـا تعـمُّ سـراتَهم كالمـشْعَلِ(١٠٦)

هذا، وقد "ذكروا أن عمرو بن العاص لما رأى الشرّ استقبل، فقال له معاوية: ائت ببنى أبيك فقاتل بهم؛ فإنه إن يكُ عند أحدٍ خيرٌ فعندهم. فأتى جماعة أهل اليمن فقال: أنتم اليومَ الناسُ وغدالكم الشان، هذا يوم له ما بعده من الأمر، احملوا معى على هذا الجمع. نعم، فحملوا وحمل عمرٌو وهو يقول (مثيرا حماسهم، حاضًّا لهم على الجدّ فى القتال مغريهم بشرف الولاء للخليفة عثمان: (الرجز)

أكــرمْ بجمــعٍ طيِّــبٍ يمــانْ   جِــدُّوا تكونــوا أوليــاءَ عثمــانْ

إنــى أتــانى خــبرٌ فأشــجانْ   أنَّ عليًّــا قتــل ابــنَ عفَّــانْ

خليفــةَ الله علــى تِبْيــانْ   رُدُّوا علينـا شيخَنًا كمـا كـانْ(١٠٧)".

(١٠٦) السابق/ ٣٧٨ - ٣٧٩. وقوله: جون الجلود...: "أى اسوّدت جلودهم من لبس الحديد والسلاح. والجُون بالضم: جمع جون، بالفتح، وهو الأسود. والبذْخة: المرة من البذخ وهو الكبر. والقنبل، بالفتح: الطائفة من الناس ومن الخيل".

(١٠٧) السابق/ ٣٩٩.

(محاولة معاويةَ خِداعَ ابن عباس)

يحاول معاوية جاهدًا بكل الحيل إدراك غايته، وإحراز بغيته؛ لما يَصْلاه من نيران القتال وتعدد المعارك واستمرارها. فلا غرابة أن تسوّل له نفسه خداع بعض رءوس القوم من أهل العراق؛ دعا عتبة أخاه وأرسله إلى الأشعث بن قيس "فإنه إن رضى رضيت العامة" عى حدّ قوله. وصدع عتبة بأمره، والتقى بالأشعث. ومما قاله له: "أيها الرجل؛ إن معاوية لو كان لاقيًا رجلا غير علىّ للقيك، إنك رأس أهل العراق، وسيد أهل اليمن...". وبعدما استمع الأشعث إليه ردّهُ خائبا حسيرًا[١٠٨]. ومن ثمّ طاش سهم معاوية، وخاب أمله فى هذه السفارة وعليه أن يجرب أخرى.

وهاهو ذا الآن يُولّى احتياله شطر ابن عباس، ويضرب له على نفس الوتر؛ ويلوك معه عَيْنَ الكَلِم، تقول الرواية: "إن معاوية لما يئس من جهة الأشعث قال لعمرو: إن رأس الناس بعد علىّ هو عبد الله بن عباس؛ فلو ألقيت (إليه) كتابًا لعلك ترقّقه به؛ فإنه إن قال شيئا لم يخرج علىّ منه، وقد أكلتنا الحرب، ولا أرانا نصل إلى العراق إلا بهلاك أهل الشام. قال له عمرو: "إن ابن عباس لا يُخدع، ولو طمعت فيه لطمعت فى علىّ. فقال معاوية: علىّ ذلك، فاكتب إليه". فكتب عمرو كتابه إلى ابن عباس مذيّلا إياه بقصيدة سينية شاكيا له فيها طول البلاء الذى ناء بكلكله على العباد؛ حتى أصبحوا لا يرون لهم طريقا إلى النجاة منه، ولا سبيلا لإحلال السلام عليهم إلا بتقوى ابن عباس ورفقه بالناس؛ وليس ذلك بغريب عليه، ولا ببعيد عنه، لسموّ أصلِه وطيب محتده؛ وشرف والده الذى لا يدانيه شرف.

(١٠٨) السابق/ ٤٠٨ - ٤٠٩.

ثم يعرِّض عمرو ببعض القادة فى جيش معاوية كبُسْر بن أرْطأة ومن نهج نهجه، وتغيِّى غايته ـ وكأن عمرًا بذلك يحاول التنصّل هو ومعاوية من تبعة استمرار القتال، ويلقى باللائمة عليهم، ويعلّق تأريث الحرب بهم، من جهة "والله يشهد إنهم لكاذبون". ومن جهة أخرى يمهّد لنفسه الاعتذار عما حدث، مبينًا أن هؤلاء قد جبلوا على الشر والضر، فلم يعرف الخير إلى نفوسهم سبيلا، ولا يجد السلم له فى حياتهم مستقرا؛ فمن الرحمة والعدل ألاّ يؤخذ الجمع بهم، ولا تقاس الأمور عليهم؛ عملا بقول الله ـ عز وجل ـ: **"ربنا لا تُؤاخذنا بما فَعل السفهاءُ منّا"**. يقول ابن العاص: (البسيط)

طال البلاءُ وما يُرجى له آسِى ... يعد الإله سوى رِفْقِ ابنِ عباس

قُولا له قولَ مَنْ يَرضى بحُظْوَتِه ... لا تنْسَ حَظَّك إن الخاسرَ النّاسى

يا ابنَ الذى زمزمٌ سُقيا الحجيجِ له ... أعْظِمْ بذلك من فخرٍ على الناس

كلٌّ لصاحبه قِرْنٌ يُساوِرُه ... أُسْدُ العرينِ أسودٌ بين أخياسِ

لو قِيس بينهمُ فى العُرب لاعتدلوا ... العُجْزُ بالعُجز ثم الرّاسُ بالرّاس

انظر فِدًى لك نفسى قبل قاصمةٍ ... للظّهر ليس لها راقٍ ولا آسى

إن العـراقَ واهـلَ الـشامِ لـن يجـدوا طعـمَ الحيـاةِ مـع المُـستغلقِ القاسـى

بُـسْرٌ وأصـحابُ بُـسْرٍ والـذين هُـمُ داءُ العــراقِ رجــالُ أهــلُ وَسْــواسِ

قــومٌ عُــراةٌ مــن الخــيرات كلُّهُــمُ فمــا يُــساوَى بــه أصـحابُه كاســى

إنى أرى الخيرَ فى سلْمِ الشآمِ لكـم

واللهُ يعلــمُ ، مــا بالــسِّلم مــن بــاس

فيهـا التُّقـى وأمـورٌ لـيس يجهلُهـا إلا الجهــولُ ومــا النَّــوْكى كأكيــاس.

يقول ابن مزاحم، "فلما فرغ من شعره عرضـه علـى معاويـةفقال معاويـة: (لا أرى كتابك على رقة شعرك)..."

ولما قرأ ابن عباس الكتاب عرضه على الإمام فـسخر منـه، وأشار أن يجيـب الفضل بنُ عباس عليه؛ فإنه شاعر مثله.

ومما كتبه الفضل بعد نثره قوله: (البسيط)

يا عَمرُو حَسبُك من خَـدْعٍ وَوَسْـواسِ فاذهب فليس لداء الجهلِ مـن آسـى

إلاّ تــواتُرَ طعْــن فــى نحــوركمُ يُشجى النفوسَ ويَشْفى نخوةَ الرّاس

ومنه:

لا بـارك اللهُ فـى مـصرٍ لقـد جَلَبـتْ شـرًّا، وحظُّـكَ منهـا حُـسْوَةُ الكـاسِ

يـا عمـرو إنـك عـارٍ مـن مغارمهـا والراقصاتِ ومن يوم الجِزا كاسـى[109]

(معاوية يحاول خِداعَ علىٍّ وإدخال الريبة فى نفسه)

واضح ـ كما أشرنا ـ أن معاويـة كلمـا ضـاقت بـه الحيـاة مـن وطـأة المعـارك واشتداد القتـال، وكثـرة الـضحايا ـ يقلـب أمـوره، ويقـدح فكـره علّـه يجـد فرجـا ومخرجا. وها هو ذا هنا يرى أن يكتب إلى علىّ ـ كرّم الله وجهه ـ يـسأله الـشام ـ وقد ردّه عنه من قبل ـ ويُلقى فى نفسه الشك والريبة. "فـضحك عمـرو... ثـم قـال له: أين أنت يا معاوية من خدعة علىّ؟! فقال: ألسنا بنى عبد مناف؟ قال: بلى، ولكن لهم النّبوة دونك، وإن شئت أن تكتب فاكتب".

كتب معاوية... وجاء ردّ علـىٍّ مُفنّـدًا كتابـه، مُـسفّهًا رأيـه، مُحَقّرًا شـأنه، مُهدّدًا إياه، مُعلنًا استمرار جهاده فى سبيل الله، قائلا: "وإنى لو قُتِلـتُ فـى ذات الله وحَييتُ، ثم قُتلتُ ثم حَييتُ سبعين مرة، لم أرجع عـن الـشدّة فـى ذات الله، والجهاد لأعداء الله..."

(١٠٩) السابق/ ٤١٠ ـ ٤١٤.

ويُخفى معاويةُ ردَّ الإمام على عمرو أياما، ثم يُقرئه إياه، فيشمت عمرو به "ولم يكن أحد من قريش أشد تعظيما لعليّ من عمرو منذ لقيه وصفح عنه" كما يقول نصر بن مزاحم. ثم ينظم عمرو قصيدته الدالية شامتًا بمعاوية، مُستخفًا بتفكيره، مُستنكرًا عليه عدم الأخذ برأيه ونصحه. ثم يُطْرى عليًّا جُرأته وقوته، وعدّته وعتاده؛ فيقول: (الوافر)

ألا لله دَرُّكَ يا ابنَ هندٍ ... ودَرُّ الآمرين لكَ الشهودِ

أتطمعُ لا أبَالَكَ فى علىٍّ ... وقد قُرِعَ الحديدُ على الحديد؟!

وترجو أن تُحيِّرَه بشكٍّ ... وترجو أن يَهابَكَ بالوعيد

وقد كشف القِناعَ وجرَّ حربًا ... يَشيبُ لهوْلها رأسُ الوليد

له جأواءُ مُظلمةٌ طحونٌ ... فوارِسُها تلهّبُ كالأسود

يقولُ لها إذا دَلفتْ إليه ... وقد مَلّتْ طِعانَ القومِ: عُودِى

فإن وردتْ فأوّلُها وُرودًا ... وإن صَدَرَتْ فليس بذى صدودِ

وما هىَ من أبى حسن بنُكْر ... وما هىَ من مسائك بالبعيد

وقلــتَ لـــه مقالـــةَ مُـــستكينٍ ضـــعيفِ الـــرُّكْنِ منقطِـــعِ الوريـــد:
دَعَنَّ الـشامَ حـسبُك يـا ابـنَ هنـدٍ مـــن الـــسَّوءاتِ والـــرأي الزَّهيـــد
ولـــو أعْطاكَهـــا مـــا ازدَدْتَ عِـــزًّا ولا لَـــكَ لـــو أجابـــك مـــن مَزيـــد
ولم تكــسِرْ بــذاك الــرأي عُــودًا لِركَّتِـــــه ولا مـــــادون عُـــــودِ.

تقول الرواية: "فلما بلغ معاوية قولُ عمرو دعاه، فقال: يا عمرو، إنني قد أعلم ما أردت بهذا. قال: ما أردت؟ قال: أردتَ تفْييل رأيي وإعظامَ عليٍّ، وقد فضحك. قال: أما تفييلى رأيك فقد كان. وأما إعظامى عليا فإنك بإعظامه أشدُّ معرفةً منى، ولكنك تطويه وأنا أنشره. وأما فضيحتى، فلم يُفتَضَحْ امرؤٌ لقىَ أبا حسن"(١١٠).

(معاوية يدفع بعضَ قواده إلى الأخذ بوِتْرهمْ من عليّ)

اجتمع عند معاويةَ ـ ذات ليلة ـ "عتبة بن أبى سفيان، والوليد بن عقبة، ومروان بن الحكم، وعبد الله بن عامر، وابنُ طلحة الطلحات، فقال عتبة: إن أمْرَنا وأمْرَ عليٍّ لعجبٌ ليس منّا إلا موتورٌ محاجّ. أما أنا فقتل جدّى، واشترك فى

(١١٠) السابق / ٤٧٠ ـ ٤٧٢ "والجأواء: الكتيبة يعلوها لون السواد لكثرة الدروع".

دم عمومتى يوم بدر. وأما أنت يا وليد فقد قتل أباك يـوم الجمـل، وأيْـتم إخوتـك. وأما أنت يا مروان...

قال معاوية: هذا الإقرارُ فأين الغُيُر ؟. قال مروان: أىُّ غُيُر تريد؟ قال: أريـد أن يُشْجَرَ بالرماح فقال: والله إنك لهازلٌ، ولقد ثقّلنا عليك. فقال الوليد فى ذلـك: (الوافر)

يقـول لنـا معاويـةُ بـنُ حـربٍ — أمـا فـيكمْ لـواترِكم طَلـوبُ

يـشدُّ علـى أبـى حـسنٍ علـىٍّ — بأسْـمَرَ لا تُهجِّنُـه الكُعـوبُ

...

فقلـتُ لـه، أتلْعـبُ يـا ابـنَ هنـدٍ — كأنـكَ وسْـطنا رجـلٌ غريـبُ

أتأمرُنـا بحيَّـةِ بطـنِ وادٍ — إذا نَهَـشَتْ فلـيس لهـا طَبيـبُ

دعـا للقـاه فـى الهجـاء لاقٍ — فأخطـأ نفـسَه الأجـلُ القريـبُ

سـوى عمـروٍ وَقتْـه خُـصْيتاه — نجـا ولقلْبـه منهـا وجيـبُ

... إلخ".

تقول الرواية: "فغضب عمرٌو وقال: إن كان الوليدُ صادقًا فليلْق عليًّا، أو ليقف حيث يسمع صوته". ونظم قصيدته الدالية مطريًا شجاعة الإمام علىّ وضراوته فى لقائه أعداءه، وفِرار خصومه منه مجرّد سماعهم ذكره. ثم يبرر صنيع علىّ معه معلنا أن طعنتَه إياه شرفٌ له. وأخيرا يعرّض بالوليد، ويلزمه حجته، فيقول: (الوافر)

يُذكِّرنى الوليدُ دُعا علىٍّ … وبطنُ المرءِ يملؤُه الوَعيدُ

متىّ يَذكرْ مشاهِدَه قريشٌ … يَطِرْ من خوفه القلبُ الشديدُ

فأما فى اللقاء فأين منه … معاويةُ بنُ حربٍ والوليدُ؟!

وعيّرنى الوليدُ لقاءَ ليثٍ … إذا مازار هابتْه الأسود

لقيتُ ولستُ أجهلُهُ عليًّا … وقد بُلَّتْ من العَلَق الكُبودُ

(فأطعنُه ويَقْطَعُنُنى خِلاسًا) … وماذا بعد طعنتِه أُريدُ؟!

فَرُمْها منه يا ابنَ أبى مُعَيْطٍ … وأنت الفارسُ البطلُ النّجيدُ

فأُقسمُ لو سمعتَ نِدا علىٍّ … لطار القلبُ وانتفخَ الوريدُ

ولــو لَاقيْتَــهُ شُــقِّتْ جيــوبٌ   عليك ولُطِّمتْ فيك الخدودُ(١١١).

(انكسار معاوية فى معارك الأيام الخمسة)

تعاظمت الأمور على معاوية، وضاق ذرعا بما حاق به من بعض أصحاب عليّ ـ كرّم الله وجهه ـ منهم: سعيد بن قيس فى همدان، والأشتر فى قومه، والمِرْقال، وعدىّ بن حاتم، وقيس بن سعيد فى الأنصار؛ فدعا عمرو بن العاص، وبُسْرَ بن أرطأة، وعُبيدَ الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد؛ وخلع عليهم ما أهمّه وغمّه من جهة أصحاب علىّ، ثم قال: "وقد عبّأت لكل رجل منهم رجلا منكم؛ فاجعلوا ذلك إلىّ ... فأنا أكفيكم سعيد بن قيس وقومه غدًا؛ وأنت يا عمرو لأِعْوَر بنى زُهرة المر قال، و...".

بدأ معاوية فى اليوم الأول، واشتد القتال بين الطائفتين، وعملت سيوف أهل العراق عملها فى معاوية وجنده، حتى إنه لم يجد إلا الهرب سبيلا، وفات همدانَ ركضا:

(١١١) السابق ٤١٧ ـ ٤١٨، هذا، وقوله: (فأطعنه ويطعننى خِلاسا) شطر بيت للسفاح التغلبىّ المتوفى سنة ٦٩ ق.هـ وتمامة:

فيطعننى وأطعنه خِلاسًا

كخطف الصّقر أعشاش القفار

انظر: (كتاب الأنوار ومحاسن الأشعار، للشمشاطى (القرن الرابع الهجرى): ٢٦٣/١، و(شعراء تغلب فى الجاهلية: أخبارهم وأشعارهم، د/على أبو زيد: ١٧٣/٢)، و(السّفاح التغلبىّ: حياته وشعره: د/محمد عبد الحميد سالم ص/٢٨٦.

وتقدم عمرو فى اليوم الثانى فى حماة الخبل قاصدًا المر قال؛ مُتَوعِّدًا إياه، مُبديًا ضيقه به، مُعْلِنًا الفتك به والخلاص منه؛ ملقيا الرعْب فى قلبه بقوله:

لا عيشَ إن لم أَلْقَ يومًا هاشما ذاك الذى أجْشَمنى المجاشما

ذاك الذى أقام لى المآتما ذاك الذى يَشتُمُ عِرْضى ظالما

ذاك الذى إن يَنْجُ منى سالما يكن شجًا حتى المماتْ لازما

"فطعن فى أعراض الخيل مُزْبدًا. فحمل هاشمٌ وهو يقول:

لا عيش إن لم ألْق يومى عَمْرًا ذاك الذى أحدث فينا الغدرا

...

فطاعن عمرًا حتى رجع، واشتد القتال وانصرف الفريقان... ولم يَسرّ معاويةَ ذلك". وعلى هذا النحو كان انهزام باقى أصحاب معاوية كل واحد منهم فى اليوم المرصود له.

وتقول الرواية: "إن معاوية أظهر لعمرو شماتةً، وجعل يُقرّعه ويوبخه، وقال: لقد أنصفتكم إذ لقيت سعيد بن قيس فى همدان وفررتم، وإنك لجبان. فغضب عمرو ثم قال: والله لو كان عليًّا ما قحمتَ عليه يا معاوية، فهلاّ برزت إلى

عليّ إذ دعاك إن كنت شجاعًا كما تزعم. وقال عمرو فى ذلك" قصيدة كافيّة قصيرة معرِّضًا بمعاوية؛ مُتهمًا إياه بالحنق عليه والكيد له: (الوافر)

تسيرُ إلى ابْن ذىَ يَزنٍ سعيدٍ — وتتركُ فى العَجاجة مَنْ دعاكا

فهل لك فى أبى حسنٍ عليٍّ — لعل اللهَ يُمْكِنُ من قفاكا؟!

دعاك إلى النزال فلم تُجبْه — ولو نازلتَه تَربتْ يداكا

وكنتَ أصمَّ ، إذ ناداك، عنها — وكان سكوتُه عنها مُناكا

فآب الكبشُ قد طحنَتْ رحاه — بنجْدَتِه ولم تَطْحنْ رَحاكا

فما أنصفتَ صحبَك يا ابنَ هندٍ — أتَفْرَقُه وتُغْضِبُ مَنْ كفاكا؟!

فلا واللهِ ما أضمرتَ خيرًا — ولا أظهرتَ لى إلا هواكا[112].

(112) السابق / ٤٢٦ : ٤٣٢.

(معركة عكٍّ وهمدانَ)

لما عظم الأمر واشتد الوطيس أمر معاوية عمرًا أن يُقدّم عكًّا والأشعريين إلى مَنْ بإزائهم من جيش عليٍّ. ولما علم معاوية أن همدان هى التى بإزاء عكّ، بعث إليه: "أنْ قدّم عكًّا إلى همدان، فتوجه عمرو إلى (عكّ) قائلا لهم:

"إن عليا قد عرف أنكم حيُّ أهل الشام، فعبّأ لكم حيَّ أهل العراق همدان؛ فاصبروا وهَبوا لى جماجمكم ساعة من النهار، وقد بلغ الحقّ مقطعه... فقالت عكّ: نحن لهمدان"، وازدادوا حماسًا بوعد معاوية لأبى مسروق العكىّ أنْ سَيُجْزل عطاءهم، ويضاعف أجرهم؛ إن هم أحرزوا النصر "فتقدمت عكٌّ ، ونادى سعيدُ بن قيس:

يالَ همدان خَدِّموا، فأخذت السيوف أرْجُل عكّ، فنادى أبو مسروق العكىّ: يا لَعكّ، بَرْكًا كَبَرْك الكمل - (بالكاف، لا بالجيم، لغة عكّ) - فبركوا تحت الحجف وشجروهم بالرّماح... فألقى القوم الرماح، وصاروا إلى السيوف، وتجالدوا حتى أدركهم الليل"، فنادت همدان عكًّا مُقِسمةً إنها لن تنصرف حتى ينصرفوا. "فأرسل معاوية إلى عكّ: أبرّوا قسَمَ القوم، وهلمّوا. فانصرفت عكّ، ثم انصرفت همدان، وقال عمرو: يا معاوية؛ لقد لقيتْ أُسْدٌ أُسْدا، ولم أر كاليوم قطّ، ولو أنّ معك حيًّا كعكّ، أو مع عليّ حيًّا كهمدان لكان الفناء".

وقد صوّر عمرو هذه الأحداثَ مشيدا بالفريقين فى قوله: (الخفيف)

إنّ عكًّا وحاشدًا وبَكيلاَ ... كأسود الضِّرابِ لاقتْ أُسودا

وجثا القومُ بالقنا وتساقَوْا ... بظُباتِ السيوفِ مَوْتًا عتيدا

لـيس يَـدْرون مـا الفــرارُ وإن كـا ... نَ فـــــرارًا لكـــــان ذاك سَــــديدا
ازورارِ المناكــــبِ الغُلْـــبِ بالـــشُّـ ... ـــمِّ وضــــربِ المُــــسَوِّمين الخُــــدودا
يعلــمُ اللهُ مــا رأيــتُ مــن القــوْ ... مِ ازوِرارًا ولا رأيـــــتُ صــــــدودا
غيرَ ضرْبٍ فـوق الطُّلَى وعلـي الهـا ... مِ وقَــرْعِ الحديــدِ يعْلــو الحديــدا
ولقــد فُــضّل المطيــعُ علــى العــا ... صــى ولم يبلغــوا بــه المجهــودا
ولقــد قــال قائــلٌ خَــدِّموا الـسُّو ... قَ، فخــرّت هنــاك عِــكٌّ قعــودا
كبُــرُوك الجمــالِ أثقلــها الحِمْـــ ... ـــلُ فمــا تــستقلُّ إلا وَئيــدا.(١١٣)

(١١٣) السابق / ٤٣٣ : ٤٣٥.

(معاوية بين مروان بن الحكم وعمرو بن العاص)

دعا معاوية مروان بن الحكم كاشفا له عن مدى ضيقه وقلقه وغمّه من الأشتر النَّخْعِىّ؛ إذ هو "رأسُ أهل العراق وعظيمُهم ومِسْعَرُ حربهم، وأولُ الفتنة وآخرُها"[114]. مقترحا عليه أن يخرج إليه فى كلاع ويحصب. فيعتذر مروان، لتفضيله عمرًا عليه بإعطائه مصر طعمة، قائلا له: "ادع لها عمرًا فإنه شعارك دون دِثارك...". ويعرض الأمر على عمرو فيخرج فى تلك الخيل. ويعلم الأشتر بخروجه، فيلقاه مُرتجزًا، مُهدّدًا، مُلقيًا الرعب فى قلبه : (الرجز)

ياليت شعرى كيف لى بعمرِو　　ذاك الذى أَوْجَبْتُ فيه نَذْرى

ذاك الذى أطلبُهُ بوِتْرى　　ذاك الذى فيه شِفاءُ صدرِى

ذاك الذى إن أَلْقه بعُمْرى　　تغلى به عند اللقاء قِدرى

أَوَلا فَربِّى عاذرى بعذرى.

فعرف عمرو أنه الأشتر، فملىء منه رُعبا، وفشل حَيْلُه، وضعفت حِيلتُه (وكيف لا؟ وقد ذاق على يديه مرّ الهزيمة يوم الفرات)؛ بَيْد أنه استحْيَى أن ينكص على عقبيه؛ فتقدم نحو الصوت، مرتجزًا - مشيدا ببلائه، مشيرا إلى كثرة ضحاياه فى معاركه، ومهدّدا الأشتر، مستعجلا نهايته، معلنا شوقه إلى لقائه - وذلك فى قوله :

---

(114) السابق / 470.

ياليتَ شعرى كيف لى بمالكِ كم كاهلٍ جَبَبْتُه وحاركِ
وفارسٍ قتلتُه وفاتكِ ونابلٍ فتَكْتُه وباتكِ
ومُقْدمٍ آبَ بوجْهٍ حالكِ هذا وهذا عُرضةُ المهالكِ.

تقول الرواية: "فلما غشيه الأشتر بالرمح زاغ عنه عمرو، فطعنه الأشتر في وجهه فلم يصنع الرمح شيئا، وثقُلَ عمرو فأمسك عِنان فرسه، وجعل يده على وجهه، ورجع راكضا إلى العسكر"؛ مما أثار استخفاف غلامٍ يحصبى به، هذا الذى ناداه: (يا عمرو؛ عليك العَفا، ماهبّت الصَّبا...) كما أثار غضب القحطانيين على معاوية الذى ولّى عليهم مَن لا يقاتل معهم. فترضّاهم، ووعدهم خيرًا(١١٥).

(معركة اليوم الأعظم وليلة الهرير وأثرها فى مُجْريات الأحداث بعدها)

ظلت المعارك بين الطائفتين على هذا النحو من الشدة والضراوة إلى أن كان اليوم الأعظم الذى يصوّر نصر بن مزاحم ما فيه من هول، فيقول:

"وزحف الناس بعضهم إلى بعض فارتموا بالنبل والحجارة حتى فنيت، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسّرت، ثم مشى القوم بعضهم إلى بعض بالسيف وعُمُد الحديد، فلم يسمع السامعُ إلا وقع الحديد بعضه على بعض؛ لهو أشدُّ هَوْلاً فى صدور الرجال من الصواعق، ومن جبال تهامة يدكّ بعضها بعضا... وانكسفت

(١١٥) السابق ٤٣٩ : ٤٤١.

الشمس بالنقع وثار القتام، وضلّت الألوية والرايات... فاجتلدوا بالسيوف وعُمُد الحديد من صلاة الغداة إلى نصف الليل، لم يُصلّوا لله صلاة... وافترقوا عن سبعين ألف قتيل فى ذلك اليوم وتلك الليلة، وهى ليلة الهرير)... ثم استمر القتال من نصف الليل الثانى إلى إرتفاع الضحى..."(١١٦).

ويقول المسعودى بعد وصفه تلك المعركة ما هو قريب مما رسمه ابن مزاحم:

"وتقطعت الألوية والرايات، ولم يعرفوا مواقيت الصلاة.. وكان الأشتر فى هذا اليوم ـ وهو يوم الجمعة على ميمنة علىّ، وقد أشرف على الفتح، ونادت مشيخة أهل الشام يا معشر العرب؛ اللهَ اللهَ فى الحرمات والنساء والبنات، وقال معاوية: هلمّ مُخبّآتِك يا ابن العاص فقد هلكنا، وتذكر وِلاية مصر"(١١٧). فأشار عمرو برفع المصاحف على الرماح والتحكيم إليها ـ والحرب خدعة ـ وانتهى الأمر إلى اختيار الحكمين: عمرو بن العاص عن أهل الشام، وأبى موسى الأشعرى عن أهل العراق. وكان ما كان من خدعة عمرو للأشعرى، وخَلْع علىّ والإبقاء على معاوية؛ مما هو مبسوط فى كثير من مصادرنا(١١٨).

هذا، وفى خديعة أبى موسى الأشعرى يقول عمرو بن العاص وهوفرح فخور، كاشفا عن خطته: (الطويل)

خَدعتُ أبا موسى خَديعةَ شَيْظِمٍ ... يُخادع سَقْبا فى فلاةٍ من الأرض

(١١٦) السابق / ٤٧٥.

(١١٧) (مروج الذهب : ٢/٣٩٩ ـ ٤٠٠.

(١١٨) انظر : (الإمامة والسياسة : ١/١١٥ : ١٤١)، و(وقعة صفين/ ٤٧٦ : ٥٢١)، و(تاريخ الطبرى: ٥/٤٨ : ٧١) و(مروج الذهب: ٢/٤٠٠ : ٤١٤) و(البداية والنهاية: ٧/٢٧٣ : ٢٨٨)، و(العقد الفريد: ٤/٣٤٦ : ٣٤٩).

فقلتُ لـه: إنـا كرهنـا كليْهمـا   فنخْلَعُهُمـا قبـل التَّلاتـل والـدَّحْض

فإنهمـا لا يُغـضيان علـى قـذًى   مـن الـدهر حتـى يَفـصلان علـى أمْـض

فطـاوَعَنى حتـى خلعـتُ أخـاهمُ   وصـار أخونـا مـستقيمًا لـدى القـبْض

وإنّ ابنَ حرْبٍ غيرُ مُعْطيهمُ الوَلا   ولا الهاشميَّ الدهرَ أَو بَرْبَع الحمْض(١١٩).

(١١٩) (وقعة صفين/ ٥٥٠). "والشيظم: الطويل الجسيم الفتىّ من الناس والخيل والإبل. والسَّقب: ولد الناقة. التّلاتل: الشدائد والدحض: الزلق والزلل: الأمْض: الباطل والشك". هذا، ويعلق المحقق ـ شيخنا المرحوم الأستاذ/ عبد السلام هارون. على الشطر الأخير من هذه المقطعة، فى الحاشية/ ٤ ـ بقوله : (كذا ورد العجز). والحمض: "كل نبت حامض أو مالح يقوم على ساق ولا أصل له، وهو للماشية كالفاكهة للإنسان. ويقال: فؤاد حَمْضٌ، ونفس حَمْضَةٌ: تنفر من الشيء أوّل ما تسمعه". (المعجم الوسيط / حمض).
هذا؛ وواضح أن عمرو بن العاص فى البيت الأخير يبرر سلوكه وخداعه أبا موسى الأشعرى، مؤكدًا أن الإمام الهاشمى عليا ـ كرم الله وجهه ـ ومعاوية لن يعطىَ أى منهما الآخر الولاء (الدهر...) ـ أى طيلة الدهر ـ نهائيا ـ ثم أراد أن يؤكد هذا الحكم وديمومته فعلّق على أمر مستحيل منتزع من البيئة الصحراوية، ومعروف لهم جميعا؛ وهو أن الحمض "الذى يقوم على ساق ولا أصل له" لا يمكن أن يكون له برعم ـ لأن "البَرعم والبرعوم والبرعمة والبرعومة كلّه كَمُّ ثمر الشجر والنُّور [وكم كل نور : وعاؤه]، وقيل: هو زهرة الشجرة، ونوْر النبت قبل أن تتفتح". لسان/برعم ـ ومن ثم قال: "ولا الهاشمى الدهر أو برعم الحمض" ثم حرفت الكلمة، أو طُمست، فرسمت على النحو الذى قال أستاذنا المحقق عنها (كذا ورد العجز)؛ لأن الكلمة غير مقروءة.
أو هل يمكن على ضوء ما ذكره ابن منظور (لسان / حمض) من أن "الحمض كل نبات لا يهيج فى الربيع، ويبقى على القيظ، وفيه ملوحة إذا أكلته الإبل شربت عليه، وإذا لم تجده رقّت وضعفت" ـ هل=

هذا، ولما صنع عمرو ما صنع مع أبى موسى الأشعرى، "واختلط الناس"، عاد إلى بيته فخورًا مختالاً، وأرسل رسولا إلى معاوية ـ ولم يسْعَ إليه بنفسه ـ يقصّ عليه القصص ، ويحيطه خُبْرًا بأحداثها من بدايتها إلى نهايتها. وكتب فى كتاب على جِدةّ" قصيدته النونية التى تزف التهانى بالخلافة لمعاوية. وتبشره بانحسار العدوّ عنه. وانكسارهم على يديه. ثم يتيه فخرًا بصنيعه مع أبى موسى الأشعرىّ، فيقول: (المتقارب)

أَتَتْكَ الخلافةُ مَزْفوفَةً ... هنيئًا مريئًا تُقِرُّ العُيونا

تُزَفُّ إليك كزَفِّ العروسِ ... بأهونَ من طعنك الدّار عينا

وما الأشعرىُّ بِصَلْدِ الزّنادِ ... ولا حاملِ الذكر فى الأشعرينا

ولكن أُتيحتْ له حَيَّةٌ ... يظلُّ الشّجاعُ لها مُستكينا

فقالوا وقلتُ وكنتُ امرَأً ... أُجَهْجِهُ بالخَصْم حتى يلينا

فخُذها ابنَ هنْد على بأسها ... فقد دافع اللهُ ما تحذرونا

= يمكن أن نقول: إن عمرا علق على هذا المستحيل ـ المعروف بيئيًا لديهم ـ؛ وهو أن هذا النبات "لا يهيج فى الربيع" ـ أى لا ييبس ولا يصفرّ فى الربيع ـ بل يبقى إلى صميم الصيف (القيظ)؛ فانتحل من كلمة (ربيع) كلمة (بربع) ـ التى جاءت غير معجمة فى الشطر لضرورة الوزن؛ وعليه يكون الشطر هكذا: (ولا الهاشمىّ الدهر أو بَرْبَع الحمض)؟.

وقـد صَـرف اللهُ عـن شـامكم ... عـدوًّا شَـنِيًّا وحَرْبًـا زَبونـا[١٢٠]

وهكذا رأينا شعر عمرو بن العاص فى هـذه المرحلـة الثانيـة ـ (مرحلـة الفتنـة بين على ومعاوية) ـ لا يخرج من الناحية الموضوعية ـ بعد ما يمكن أن أطلـق عليـه منه. (شعر التّدبير والموقف) ، أو (الشعر السياسىّ)؛ وهو الذى يقـع تحـت عنـوان (مرحلة التفاوض بين معاوية وعمرو) فى بحثنا.

أقـول لا يخـرج شـعره ـ بعـد ذلـك ـ عـن (الحـث والتحـريض)؛ و(التهديـد والوعيـد)؛ و(الهجـاء والتعـريض)؛ و(الفخـر)؛ و(الوصـف)؛ و(المـدح والإطـراء) ــ كمدحه الإمام عليًّا فى أكثر من موقف؛ واصطناعه مدح عبد اللّه بن العباس، مكـرًا وخداعا، نـزولاً على رغبـة معاويـة؛ وإخلاصـه فـى مـدح قبيلتـى (عَـكّ وهمْـدان) والإعجاب بهما فى لقائهما الحربىّ ـ وأخيرا (التهانى).

(١٢٠) السابق/ ٥٤٧. هذا، وقوله: (أجهجه بالخصم): أصيح فيه وأوردّه عن كل شىء (الوسيط: جهجه). والحرب الزبون: الشديدة القوية تدفع المحاربين وتصدمهم. يقال: (الحرب تزين الناس: تصدمهم، فهى زبون على التشبيه" (الوسيط: زين).

(أبرز السِّمات الفنيّة لشعر عمرو في صفين)

لقد أثر لنا ـ على نحو ما سبق ـ قدْرٌ لا بأس به من شعر عمرو بن العاص وأراجيزه؛ إذ بلغت أراجيزه إحدى عشرة أرجوزة، كما بلغت مقطعاته ستًّا، جاءت مقطعة منها في ثلاثة أبيات؛ وثلاثة منها في خمسة أبيات؛ واثنتان منها في ستة أبيات. أما قصائده فقد بلغت اثنتي عشرة قصيدة، تتراوح أبياتها بين سبعة أبيات إلى اثنى عشر بيتا. وهو قدْر كافٍ نستطيع على ضوئه أن نقف على أبرز سماته الفنية لغة وأسلوبا، وإيقاعا، وتصويرًا. فنقول:

أولا: اللغة والأسلوب

يحدثنا عبد القاهر الجرجانيُّ عن الألفاظ، إفادتها وأنواعها، فيقول[١٢١]:

"الألفاظ لا تفيد حتى تُؤلَّف ضرْبا خاصًّا من التأليف؛ ويُعمدَ بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب...

وأما رجوعُ الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه، وكونه من أسبابه ودواعيه، فلا يكاد يعدو نمطًا واحدًا؛ وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم، ويتداولونه في زمانهم، ولا يكون وحشيًّا غريبًا، أو عاميًّا سخيفًا".

ويشير حازم القرطاجني إلى الكلمات الغريبة، غامضة المعنى، فيقول[١٢٢]:

---

(١٢١) (كتاب أسرار البلاغة، للشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : هـ. ريتر، دار المسيرة ـ بيرت الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣م ص/٣ ـ ٤).

(١٢٢) (منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس سنة ١٩٦٦م، ص١٧٢ ـ ١٧٣.

"ووجوه الإغماض فى المعانى : منها ما يرجع إلى المعانى أنفسها؛ ومنها ما يرجع إلى الألفاظ والعبارات المدلول بها على المعنى؛ ومنها ما يرجع إلى المعانى والألفاظ معا...

فأما ما يرجع إلى الألفاظ والعبارات من تلك الوجوه فمثل أن يكون اللفظ حوشيًّا أو غريبًا أو مُشتركًا فيعرض من ذلك ألاّ يُعلمَ ما يدل عليه اللفظ أو أن يتخيل أنه دلَّ فى الموضع الذى وقع فيه من الكلام على غير ما جىء به للدلالة فيتعذر فهم المعنى لذلك".

أما الأسلوب فيحدثنا ابن خلدون عن ماهيته تحت عنوان: (فى صناعة الشعر ووجه تعلمه)، فيقول[١٢٣]:

"ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة، وما يريدون بها فى إطلاقهم؛ **فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذى يُنسج فيه التراكيب، أو القالب الذى يفرغ فيه.** ولا يُرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذى هو وظيفة الإعراب؛ ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذى هو وظيفةُ ـ البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن... الذى هو طريقة العروض، فهذه العلوم الثلاثة خارجةُ عن هذه الصناعة الشعرية ـ **وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها، ويصورها فى الخيال كالقالب والمنوال. ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان،**

(١٢٣) (مقدمة العلامة ابن خلدون ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ـ ص ٥٧٠ : ٥٧٢) وانظر كذلك فى تعريف الأسلوب: (الأسلوب، أحمد الشايب، النهضة المصرية بالقاهرة، الطبعة السادسة سنة ١٩٦٦م، ص٤٤)؛ وكتاب (فى النقد الأدبى، د/عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت سنة ١٩٧٢م، ص/١٤٥.

فيرصّها فيه رصًّا، كما يفعله البنّاء فى القالب، أو النسَّاج فى المنوال، حتى يتسع القالبُ بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربىّ فيه؛ فإن لكل فن من الكلام أساليبَ تختص به، وتوجد فيه على أنحاء مختلفة... **وتنتظم التراكيب... بالجملِ وغير الجمل إنشائية وخبرية؛ اسمية وفعلية، متفقة وغير متفقة، مفصولة وموصولة على ما هو شأن التراكيب فى الكلام العربىّ فى مكان كل كلمة من الأخرى...".**

هذا، وقد عرفنا من قبل أن عمرًا كان من فرسان العرب وأبطالهم فى الجاهلية، كما كان من أمراء الأجناد فى كثير من الفتوحات الإسلامية؛ إلى جانب إمارته على الأردن وفلسطين وولايته على مصر. كما عرفنا أن الإمام عليا ـ كرّم الله وجهه ـ قد أرسل جرير بن عبد الله البجلى إلى معاوية مطالبا إياه بالطاعة والمبايعة له. تقول الرواية(١٢٤): "واستحثه جرير بالبيعة، فقال: يا جرير؛ إنها ليست بخلسة، وإنه أمر له ما بعده. فأبلعنى ريقى حتى أنظر..." ولهذا كتب معاوية إلى عمرو مستدعيا إياه مستعجلا له.

وهنا نتساءل : هل كانت حاجة معاوية إلى عمرو قائدًا فارسًا أم مفكرا ماكرًا وسياسيا ماهرا؟. أما عن الإجابة فيتولاها عنا عمرو بنفسه بعد أن دعا معاوية مروان بن الحكم لمنازلة الأشتر النخفىّ، فقال له: "ادع لها عمرًا فإنه شعارك دون دثارك" معرضا بتفضيله عمرًا عليه بإعطائه (مصر طعمة). تقول الرواية(١٢٥):

---

(١٢٤) (وقعة صفين/ ٣٣).

(١٢٥) السابق / ٤٣٩.

"ودعا معاوية عمرًا، وأمره بالخروج إلى الأشتر، فقال: والله إنى لا أقول لك كما قال لك مروان. قال: ولم تقوله وقد قدّمتك وأخرته، وأدخلتك وأخرجته. قال عمرو: أما والله لئن كنت فعلت لقد قدّمتنى كافيًا، وأدخلتنى ناصحا..."

إذًا كانت حاجة معاوية إلى عمرو سياسية، فهو الكافى والناصح له، المدبر لأمره، المخطط لسياسته؛ ومع هذا فقد جمع له معاوية مهام الأعمال السياسية والعسكرية معًا حين عقد له لواءه فى حروبه فى صفين.

فهل رجل مثل هذا - أو قل: شاعر مثل هذا - يُتاح له من الوقت ما يسمح له بنظم قصائد طويلة - فى أى موقف من المواقف التى دفعته للنظم؟ اللهم لا. ومن ثم فلا غرابة أن يصوغ تجاريبه - إن صح القول - فى القوالب التى أشرنا إليها فى صدر حديثنا عن الدراسة الفنية.

هذا، ولعله من المسلم به أيضا أن هذه المهام المنوطة بعمرو ستحول دون تدبره لاختيار ألفاظه، وتأمله فى صياغة أفكاره، وتصوير معانيه، فضلا عن أنها لن تهيىء له الفرصة لمراجعة شعره وتنقيحه[١٢٦]. وأى فرصة تتاح لقائد يلتقى بخصمه فى ساحة الوغى مرتجزا، كل منهما ينسج - مهدّدًا - على منوال صدر كلام الآخر؟

فها هو ذا الأشتر النخعىّ يلتقى بعمرو فى واحدة من معارك (حرب الفرات) مرتجزا بمقطعة (خمسة أبيات) صدرها:

ويحك يا ابنَ العاصى تنحَّ فى القواصى

(١٢٦) هذا لا يتناقض مع ما سنشير إليه من استخدامه الكثير من الوسائل الفنية فى شعره، لأن مجيئها عفوًا يشهد بتمكنه فى هذا الفن، وطول خبرته وكثرة تجاريبه فيه. وبهذا يتحقق قول ابن كثير - الذى أشرنا إليه فى مقدمة البحث -: "وله أمثال حسنة وأشعار جيدة...".

فيجيبه عمرو فى التوّ والحال:

ويحـــك يـــا ابـــن الحـــارثْ　　أنـــــت الكـــــذوب الحانــــــثْ

ويلتقى الأشتر به بعد ذلك مرتجزا:

ياليــت شــعرى كيــف لى بعمــرِو　　ذاك الـــذى أَوْجَبْـــتُ فيـــه نـــذرى

فيتقدم عمرو نحو الصوت مرتجزا مهدِّدا:

ياليــت شــعرى كيــف لى بمالــكِ　　... إلخ

وحينًا يكون عمرو هو (البـادى) لا (المراجـع)؛ كقولـه قاصـدًا هاشمـا المرقـال مهدِّدًا متوعِّدا إياه:

لا عـيش إن لم ألْـق يومًـا هاشِـما　　ذاك الـــــذى أجـــــشمنى المجاشمــــــا

فيحمل هاشم عليه قائلا:

لا عـيش إن لم ألـق يـومى عمـرا　　ذاك الـــذى أحـــدث فينـــا الغـــدرا

وعلى ضوء هذا يمكن أن نقول إنّ أكثر شعر عمرو بن العاص - وبخاصة أراجيزه - في يوم صفّين جاء (ابن اللحظة الخاطفة)؛ وأقول أكثره لأن بعض شعره يمكن أن يكون (ابن ليلته)، أو إذا تجاوزنا قليلا قلنا (ابن لُييْلات) لا تسمح له - بما تحمله من أحداث متعددة متشابكة - أن يختار ألفاظه، أو أن يُحكم صياغة أفكاره. وإن بدا في هذا النوع الكثير من العناية الفنية الصادرة من قوةٍ تمثله للموقف - لا طوله - وشدّةِ اهتمامه وانفعاله به - لا معايشته طويلا له - وفرطِ انشغاله بتحقيقه لضمان مستقبله وتحقيق مأربه؛ فقد عرفنا - مثلا - أن شرطه لمبايعة معاوية ومساندته له هو (مصر طعمة). لكن معاوية قد تلكأ عليه - كما تقول الرواية [١٢٧] - فأنشأ عمرو مقطعة في ستة أبيات، صدّرها بقوله:

معاوىَ لا أُعطيكَ ديني ولم أنلْ ... بذلكَ دُنيا فانظرنْ كيف تصنعُ

فإن تُعطني مصرًا فأربحْ بصفقةٍ ... أخذتَ بها شيخًا يضرُّ وينفعُ

وختمها بقوله:

وتمنعني مصرًا وليستْ برغبةٍ ... وإنّي بذِي الممنوعِ قِدْمًا لمُولَعُ.

ولعل هذا الإنجاز على المستويات الثلاثة السابقة : ابن اللحظة الخاطفة - ابن ليلته - ابن لييلات - هو ما وفر للكثير من شعره خفّةً في الألفاظ، وسهولةً في

(١٢٧) (وقعة صفين/ ٣٨).

الأسلوب، وقربا فى التصوير، وتدفّقا فى الموسيقى؛ كقوله ـ حينما نكل معاوية عن براز الإمام علىٍّ، واتهم عمرًا فى نصحه له بالمبارزة ـ :

مُعاوِىَ إن نكلت عن البرازِ ... لك الويلاتُ فانظرْ فى المخازى
مُعاوِىَ ما اجترمتُ إليك ذنبًا ... وما أنا فى التى حَدثتْ بخازى
وما ذنبى بأن نادَى علىٌّ ... وكَبْشُ القوم يُدْعى للبرازْ؟!
فلو بارزتَه بارزتَ ليثًا ... حديدَ النّابِ يخطفُ كُلَّ بازى
ويزعم أننى أضمرتُ غشًّا ... جزانى بالذى أضْمرتُ جازى
أضَبْعٌ فى العجاجةِ يا ابن هندٍ ... وعند الباه كالتّيْس الحجازى.

وغير ذلك كثير: "والمنظوم الجيّد ما خرج مخرج المنثور فى سلاسته وسهولته، واستوائه، وقلة ضروراته"(١٢٨).

هذا، وعمرو بن العاص فى كل شعره لم يخرج عن الواقعية؛ من حيث التزامُه بمجريات الأحداث التى اكتنفته، والمواقف التى أحْدقَتْ به، وملكت عليه

(١٢٨) (كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، لأبى هلال العسكرى: تحقيق على محمد البجاوى ، و محمد أبو الفضل إبراهيم . عيسى البابى الحلبى وشركاه ـ ص١٧١.

فكره، والتى قام بترجمة كل ما قيل فيها نثرا إلى شعره ترجمة صادقة سهلة لا تكلّف فيها ولا تهويل من شأنها.

ومن الأدلة على ارتباطه بالواقع وصدوره عنه فى شعره شيوعُ ألفاظ عتاد الحرب وأدواتها فى نظمه بشكل لافت على ما يأتى من شواهد فيما بعد.

ومن الأدلة على التزامه بتلك الواقعية وُرودُ أسماء الأعلام ـ أفرادًا وقبائل ـ التى لها حضورها وإسهاماتها فى يوم صفين؛ أو اسْتُدْعِيَ ذكرها للزجر والتهديد بمآلها؛ كقوله:

هل يُغْنِيَنْ وَرْدانُ عَنّى قَنْبَرا ... وتُغنى السّكونُ عنى حِمْيرا

إذا الكُماةُ لبسوا السَّنَوَّرا؟!

وقوله مُعرِّضًا بمعاوية لخوفه من مبارزة الإمام علىّ كرَّم الله وجهه :

تَسيرُ إلى ابن ذِى يَزَنٍ سعيدٍ ... وتتركُ فى العجاجةِ مَنْ دعاكا

فهل لك فى أبى حسنٍ علىٍّ ... لعلّ اللهَ يُمكن من قفاكا؟!.

وقوله مُشيدا ببلائه فى معاركه :

شدّو علىَّ شِكّتى لا تنكشفْ ... بعد طُلَيْح والزُّبيْر فأتلفْ

يـومٌ لهمـدانَ ويـومٌ للـصَّدِفْ وفـى تمـيمٍ نخـوةٌ لا تنحـرِفْ

أضربُها بالـسيف حتـى تنـصرفْ إذا مَـشيتُ مِـشْيَةَ العَـوْدِ الـصَّلِفْ

ومثلـها لِحمْيَـرٍ أو تنحـرِفْ والرَّبَعيّـون لهـم يـومٌ عَـصِيفْ.

وقوله - الذى يعدّ من المنصفات - مصورًا المعركة التى دارت بين (عكّ وهمدان) مشيدا بالفريقين:

إن عكّـا وحاشـدًا وبكـيلا كأسـود الـضراب لاقـت أسـودا.

ومن الأدلة كذلك على التزامه بالواقعية كثرةُ أسماء الأماكن والبلدان والمياه فى شعره؛ كقوله:

لا تحـسبنّى يـا علـىُّ غـافِلا لأوردن الكوفـة القنـابلا

بجمعىَ العامَ وجمعى قابلا.

وقوله - من مقطعة - مفتخرًا بنفسه، معرِّضًا بقيادة الكوفة:

يرضى (بىَ) الشامُ إلى أرض عَدنْ يـا قـادة الكوفـة مـن أهـل الفـتن

يا أيها الأشراف مـن أهـل اليمن أضْـــربكمْ ولا أرى أبـــا حـــسن.

وقوله من قصيدته التى ذيّل بها كتابه إلى عبد الله بن عباس:

إن العراق وأهل الشام لـن يجـدوا طعــم الحيــاة مـــع المــستغلق القاســى

وقوله ـ من قصيدة ـ معرِّضًا بمعاوية :

وقـد شـرب القـومُ مـاء الفـراتَ وقلَّـــدك الأشـــترُ الفَـــضْحَهْ.

وقوله ـ من قصيدة ـ :

ومـا كـان لى علـمٌ بـصفّينَ أنهـا تكــونُ وعمّــارٌ يَحُــثُّ علــى قتلــى.

هذا، وإذا كان عمرو بن العاص قد نظم كثيرا من أراجيـزه ارتجـالاً علـى مـا يقتضيه الموقف؛ فإنه قد نظم الكثير من شعره أيـضا بعـد معاركـه؛ ومـن ثـمَّ كـان موقفه منها موقف الحاكى لها، القاص لأحداثها؛ ولعل هذا كان من أسـباب كثـرة شيوع الأفعال فى شعره؛ ماضوّية لتأكيـد الأحـداث وتقريرهـا؛ أو مـضارعية لبعـث

الأحداث وتجدّدها، وتصويرها أمام المتلقى وكأنه يراها بنفسه ـ ومن ذلك قوله ـ من قصيدة ـ معرِّضًا بالوليد بن عقبة:

وعيَّرنـــى الوليــدُ لقـــاءَ ليـــثٍ إذا مـــازار هابتــــه الأســـودُ

لقيـــتُ ولـــستُ أجْهلُـــه عليًّـــا وقـــد بُلَّـــتْ مـــن العَلَـــق الكُبـــودُ

(فأطعنـــه ويطعننـــى خلاسًـــا) ومـــاذا بعـــد طعنتـــه أُريـــدُ؟!

فرُمْهـا منـه يـا ابـن أبـى مُعَـيطٍ وأنـــت الفـــارسُ البطـــل النّجيـــدُ

فأقـسمُ لـو سمعـتَ نـدا علـىٍّ لطـــار القلـــبُ وانـــتفخ الوريـــد

ولـــو لاقيتـــه شُـــقتْ جيـــوبٌ عليـــك، ولُطِّمـــتْ فيـــك الخـــدود.

وقوله ـ من قصيدة ـ مخاطبًا معاوية الذى نكل عن مبارزة الإمام علىّ:

دعـــاك إلى النـــزال فلـــم تُجبْـــه ولـــو نازلتـــه تربـــتْ يـــداكا

وكنـــت أصـــمَّ إذْ نـــاداك عنهـــا وكـــان ســـكوته عنهـــا مناكـــا

فـآب الكـبشُ قـد طحنـت رحـاه   بنجدتـــه ولم تطحـــنْ رحاكـــا

فمـا أنْـصفْتَ صـحبَك يـا ابـنَ هنـدٍ   أتَفْرَقُـــه وتُغْـــضِبُ مَـــنْ كفاكـــا؟!

فـــلا والله مـــا أضـــمرتَ خـــيرًا   ولا أظهـــــرتَ لى إلا هواكـــــا.

وإذا كان عمرو بن العاص يقف فى كثير من شعره ـ الذى أنشده بعد المعركة ـ موقف القاص على ما رأينا؛ فإننا كذلك نشعر أن كل مقطعة له أو قصيدة تمثل قصة قصيرة، عُنى فيها عمرو برسم شخصياتها، وتحديد الملامح التى تتميز بها كل شخصية منها؛ كما اهتم بعرض الأحداث التى دارت فى هذه القصة، محددًا مكانها، مشيرا إلى زمانها؛ كقوله:

لعمـرى لقـد لاقـتْ بـصفيّن خيلُنـا   سُـميْرًا فلـم يَعْـدِلْن عنـه تخوُّفـا

قـصدتُ لـه فـى وائـلٍ فـسَقَيْتُه   سِـمامَ زُعـافٍ يـترك اللـونَ أكْلَفـا

فمـا جَبُنـتْ بكـرٌ عـن ابـن مُعَمَّـرٍ   ولكـن رجـا عَـوْدَ الهَـوادةِ فانكفـا

وخـاف الـذى لاقـى الهُجَيْمِـيُّ قبلـه   تفـرّق عنـه جمعُـه فَتُخطِّفـا

ونحـن قتلنـا هاشمًـا وابـنَ ياسـر   ونحـن قتلنـا ابنَـىْ بُـدَيل تعـسُّفا.

ففى هذه المقطعة ـ أو الأقصوصة ـ نرى مدى احتفاء عمرو بذكر الشخصيات المتمثلة فى شخصيته ـ (التى توحى بها ضمائر المتكلم فى قوله: خيلنا ـ قصدتُ ـ فسقيتُه ـ ونحن قتلنا)؛ وشخصية أعوانه (وائل، بكر)؛ والمتمثلة كذلك فى شخصية أعدائه، سواءً من فرّ منهم كابن معمّر، الذى عنى بتصوير ظاهره وباطنه وسط المعمة ـ أو من قتل كالهجيمّى، وهاشم، وابن ياسر، وابنى بُديل.

أما الأحداث فى تلك الأقصوصة فواضحة فى مجريات المعركة:

١ـ هزيمة سُمَيْر: لاقت خيلنا سميرا ـ فلم يعْدِلن عنه ـ قصدت له، فسقيته سمام زعاف يترك اللون أكلفا.

٢ـ فرار (ابن معمَّر) بدافع من خوفه ورجائه.

٣ـ تخطّف الهجيمّى بعد أن تفرّق عنه جمعه.

٤ـ وأخيرا قتل هاشم، وابن ياسر، وبخاصة ابنا بُديل اللذان أُخذا قَسْرا، وقُتِلا عَسْفا.

أما المكان فحدوده (صفين) : "لعمرى لقد لاقت بصفين خيلنا).

أما الزمان فهو وقت القتال : (فلم يعدلن عنه ـ وقت القتال ـ تخوّفا).

ـ (قصدت له ـ وقت الالتحام ـ فى وائل).

ـ (فسقيته ـ وقتها ـ سمام زعاف...).

ـ (فما جبنت بكر ـ حين اشتدت المعركة ـ عن ابن مُعمّر) ...إلخ.

هذا، ومن أبرز السمات الأسلوبية فى شعر عمرو اتكاؤه على الوصف، وميله إلى تعدّد الصفات وإيراد المترادفات؛ فضلا عن شغفه بتوضيح الشىء بعد إبهامه، وتفصيله بعد إجماله، وبيان هيئته حين ملابسة الحدث له. وأجود الوصف "ما

يستوعب أكثر معانى الموصوف حتى كأنه يصوّر الموصوف لك، فتراه نُصْبَ عينك"[129] كما يقول أبو هلال العسكرى الذى يشير إلى فضل الإطناب بقوله على لسان صاحب المنطق[130]:

"المنطق إنما هو بيان، والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والشفاء لا يقع إلا بالإقناع. وأفضلُ الكلام أبْينهُ، وأبْينهُ أشدُّه إحاطةً بالمعنى، ولا يُحاط بالمعنى إحاطةً تامة إلا بالاستقصاء. والإيجاز للخواص، والإطناب مُشْتركٌ فيه الخاصة والعامة". ومن شواهد ذلك فى شعر عمرو، قوله ـ من قصيدة ـ مخاطبا عبد الله بن العباس، ملقيا التّبعة على (بُسْر بن أرطأه) وأصحابه الذين أرّثوا نيران الحرب والقتال بين الفريقين:

انظر فِدًى لك نفسى قبل قاصمةٍ	للظّهر ليس لها راقٍ ولا آسى
إن العراقَ واهلَ الشامِ لن يجدوا	طعمَ الحياةِ مع المُستغلقِ القاسى
بُسْرٌ وأصحابُ بُسْرٍ والذين هُمُ	داءُ العراقِ رجالٌ أهلُ وَسْواسِ
قومٌ عُراةٌ من الخيرات كلُّهُمُ	فما يُساوَى به أصحابُه كاسى
إنى أرى الخيرَ فى سلْم الشآم لكم	واللهُ يعلمُ ، ما بالسِّلم من باس

(١٢٩) (السابق / ١٢٨ ـ ١٢٩).

(١٣٠) (السابق / ١٩٦).

فيهـا التُّقـى وأمـورٌ لـيس يجهلُهـا   إلا الجهـولُ ومـا النَّـوْكى كأكيـاس.

وقوله فى وصف معركة مشيدا بفوارس قومه، معدِّدا ما يتحلّون به:

أنْ لـو شـهدْتَ فوارسًـا فـى قومنـا   يـوم القـوارعَ مـرَّ مـرَّ الأجْهَـلِ
لرأيـتَ مأسـدَةً شـوارعَ بالقنـا   جُـونَ الجلـودِ مـن الحديـد المُرسَـل
مُتـسرْبلين سـوابغًا عاديَّـةً   أدْفـوا الملـوكَ بكـل عَـضْبٍ مِقْـصَلِ
يمـشون فـى عَنَـتِ الطريـقِ كـأنّهم   أُسْـدٌ تقلْقَـلُ فـى غريـفِ الجِـسْكِل
يَحْمـون إذْ دُهمـوا، وذاك فَعـالُهم   عنـد البديهـة فـى عَجاج القَسْطلِ
النـازلون أمـامَ كـلِّ كريهـةٍ   تُخْـشَى عوائـدُها غَـداةَ الفَيْـصَل
والخيـلُ غـائرةُ العيـونِ كأنمـا   كُحِلـتْ مآقيهـا بـزُرْق الكعْطـلِ
يَعْـدون إذ ضَـجَّ المنـادى فـيهمُ   نحـو المنـادى بذْخَـةً فـى القَنْبَـل

ودنـا الكمـاةُ مـن الكُمـاة وأعَملـتْ زُرْقًـا تعـمُّ سـراتَهم كالمـشْعَلِ

وقوله متهكما بالوليد بن عقبه:

وعيّرنـي الوليـدُ لقـاءَ ليـثٍ إذا مـازار هابتْـه الأسـود

فَرُمْهـا منـه يـا ابـنَ أبـى مُعَـيْطٍ وأنـت الفـارسُ البطـلُ النّجيـدُ

وقوله مرتجزا:

أنـا الغُـلامُ القرشـيُّ المـؤتمنْ الماجـدُ الأبلـجُ ليـثٌ كالـشَّطَنْ

هذا، وعمرو بن العاص لم يعتمد فى عرض الأحداث فى شعره على عنصر السرد والحكى، وتعدّد الصفات فحسب؛ بل نجد لعنصر الحوار - حينا - أثرا فى نسيج أسلوبه؛ مما أسهم فى خفته وحيويته، كقوله:

خَـدعتُ أبـا موسـى خَديعـةَ شَـيْظِمٍ يُخـادع سَـقْبا فـى فـلاةٍ مـن الأرض

فقلـتُ لـه: إنـا كرهنـا كليْهمـا فنخْلَعْهُمـا قبـل التَّلاتـل والـدَّحْض

...

فطـاوَعَني حتـى خلعـتُ أخـاهمُ ... وصار أخونا مـستقيمًا لـدى القبْض

وقوله من قصيدة مهنئًا معاوية بالخلافة:

فقـالوا وقلـتُ وكنـتُ امـرَأً ... أُجَهْجِـهُ بالخَـصْم حتـى يلينـا.

هذا، ومن أهم الأسباب التى وهبت شعر عمرو يوم صفين الخفة والسهولة، ومنحته الجاذبية والتجدد والنشاط والحركة ـ تزاوجُ أسلوبه بين الخبر والإنشاء ـ طلبيًّا وغير طلبى ـ وإن كان شيوع الأسلوب الإنشائى ـ بأقسامه وأنواعه ـ يُعدّ ظاهرة فى شعر عمرو؛ ولعل السبب فى ذلك ما تتطلبه المواقف والمعارك من تحريض، وتهييج، وتهديد، وحرص على استدعاء مشاركة المتلقى للشاعر فى رأيه ـ إعجابًا وتعظيمًا ـ أو تعريضًا وتنديدًا، إلى غير ذلك. والشواهد على تلك الظاهرة جَدّ كثيرة.

فها هوذا بعد أن تلقّى كتاب معاوية الذى يستعجل قدومه إليه ـ يقف فى مفترق الطرق حائرًا، فيطرح ما نابه على ابنيه، فيُفتى كل منهما برأى مخالف لرأى أخيه؛ مما زاده حَيْرةً، وقلقا، وتمزقا. ويأتى المساء فيطول ليله لهذه الطوارق، ولعله لم يجد متنفّسًا عما فى نفسه إلا بنظم ما حاق به فى شعره، رافعا به صوته، جاذبًا به أهله، كأنه ينشد منهم الغوث والعون، فيقول:

تطاوَلَ ليلى للهموم الطّوارقِ وخَوْلَ التى تَجْلو وُجوهَ العَواتقِ
وإنّ ابنَ هندٍ سائلى أن أزورَه وتلك التى فيها بناتُ البَوائقِ
أتاه جريرٌ من علىٍّ بخُطّةٍ أمرّتْ عليه العيشَ، ذاتِ مضائق
فإن نال منّى ما يُؤمِّلُ ردَّه وإن لم ينلْه ذلَّ ذُلَّ المُطابق
فوالله ما أدرى وما كنت هكذا أكُونُ ، ومهما قادنى فَهْوَ سابقى؟!
أُخادِعُه إن الخداعَ دَنيَّةٌ أم اعطيه من نفسى نصيحةَ وامِق؟!
أَوَ اقْعُدُ فى بيتى وفى ذاك راحةٌ لشيخٍ يخافُ الموتَ فِى كلِّ شارق
وقد قال عبدُ الله قولاً تعلّقتْ به النَّفسُ إن لم يَعْتَلِقْنى عوائقى
وخالفه فيه أخوه محمدٌ وإنّى لصُلب العُود عند الحقائق.

مستخدما فى هذا الخطاب الأسلوب الخيرى؛ لتأكيد الأحداث وتقريرها؛ متمثلا فى التعبير بالجمل الفعلية الماضوية؛ إذ إن الماضى مؤكد بنفسه، كقوله:

(تطاول ليلى ـ أتاه جريرٌ ـ أمرّت عليه العيش ـ نال منى ـ ذَلّ ذُلّ .. ـ قادنى ... ـ وقد قال عبد الله ... ـ تعلقت به النفسُ ـ وخالفه أخوه).

ومتمثلا كذلك فى التعبير بالجمل الاسمية التى تفيد الثبوت والدوام، إلى جانب استخدام أدوات التأكيد، كقوله:

(وإن ابن هندٍ سائلى ... ـ وتلك التى فيها بنات البوائق ـ إن الخداع دنيَةٌ ـ وفى ذاك راحةٌ ـ وإنى لصلب العود).

ومتمثلا أخيرا فى التعبير بالمضارع ـ الذى جاء قليلا ـ والتعبير بالجمل الفعلية المضارعية تفيد التجدد والحدوث، كأن الشاعر بذلك يبعث الأحداث ويصورها أمام المتلقى ـ وإن جاءت هذه الجمل المضارعية غير مستقلة بنفسها، كقوله:

(وخَوّلَ التى تجلو وجوهَ العواتق ـ سائلى أن أزورَه ـ فإن نال منى ما يؤملُ ... ـ وإن لم ينله ... ـ أخادعه ... ـ أم آ اعطيه ... ـ لشيخ يخاف الموت ـ إن لم يعتلقنى).

وبين مقدمة القصيدة وختامها غلب الأسلوب الإنشائى ـ بنوعيه ـ على الخبرى؛ للتعبير عن حيرته، وتصوير تردده وتمزقه . ومن أمثلة الإنشائى غير الطلبى: (أسلوب الشرط) ـ الذى شاع كثيرا فى شعر عمرو لا فى هذه القصيدة فحسب ـ لما فيه من إثارة وتنبيه، وتعلق المتلقى بجواب الشرط مجرد سماعه أداته، كما جاء فى قول عمرو: (فإن نال منى ... ـ ردّه ـ وإن لم ينله ذلّ ... ـ ومهما قادنى فهو سابقى ـ إن لم يعتلقنى عوائقى).

ومن أمثلة غير الطلبى أيضا (أسلوب القسم) ـ بما فيه من إثارة، وسرعة تطلع المتلقى للمقسم عليه ـ كما جاء فى قول عمرو: (فوالله ما أدرى...).

أما الإنشاء الطلبى فيمثله الاستفهام بالهمزة فى قول عمرو ـ الذى يعرف النسبةَ التى تضمنها الكلام، لكنه يتردد بين شيئين، ويطلب تعيين أحدهما ـ (... أخادعه ... ـ أم اعطيه من نفسى نصيحة وامق ـ أوَ اقعدُ فى بيتى ...)

ومما تنوّع فيه الأسلوب بين الخبر ـ على ما هو مذكورٌ فى البيت الثانى ـ والإنشاء، على ماورد فى البيت الأول والشطر الخامس ـ قوله :

يا أيُّها الجندُ الصليبُ الإيمانْ قوموا قيامًا واستعينوا الرحمنْ

إنى أتانى خبرٌ فأشجانْ أنّ عليًّا قتل ابن عفّانْ

رُدّوا علينا شيْخَنا كما كانْ.

ومما توافر فيه عنصر الإثارة والتشويق والتنوّع والتجديد، لمزاوجة عمرو فيه بين الأسلوب الخبرى والإنشائى، قولُه ـ الذى يعدّ من المنصفات كما أشرنا من قبل ـ فى وصف القتال بين الفريقين، واستنكاره، داعيًا إلى إعمال العقل والتحلّى بالحلم:

أجئتمْ إلينا تسفكون دِماءَنا وما رُمْتُمُ وَعْرٌ من الأمر أعْسَرُ

لعمرى لَما فيه يكونُ حِجاجُنا إلى الله أدْهى لو عَقلْتُم وأنكرُ

تعاورتُمُ ضربًا بكل مُهنَّدٍ إذا شَدَّ وَرْدانٌ تَقدَّم قَنبرُ

كتـــائبُكم طـورًا تـــشُدُّ ، وتــارةً كتائبُنـــا فيهـــا القنـــا والـــسَّنَوَّرُ

إذا ما التقوْا يومًـا تـدارك بيـنهم طِعــانٌ ومــوتٌ فــى المعــارك أحمــرُ.

هذا الخطاب الذى تعدد فيه التعبير بالجملة الفعلية ـ ماضوية ومضارعية ـ والجملة الاسمية، بما تحمل كل منها من قيمة فنية أشرنا إليها من قبل.

كما وُظف الإنشاء ـ طلبيا ـ كالاستفهام فى صدر المقطعة (أجئتم إلينا...) الذى يقطر أسفا واشمئزازًا واستنكارا ـ وغير طلبى، متمثلا فى القسم (لعمرى...)، وفى أسلوب الشرط المصدر بالأداه (إذا) ـ التى تفيد تحقيق جوابها بوقوع شرطها: (إذا شدّ وَرْدان تقدّم قنبرُ) ـ (إذا ما التقوا يوما تدارك...)

هذا، وكما شاع فى شعر عمرو أساليب الإنشاء بنوعيها ـ شاع كذلك (أسلوب التقديم والتأخير) بما فيه من قيمة فنية أشار إليها عبد القاهر الجرجانى فى قوله[١٣١]: "هو بابٌ كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسعُ التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفْتَرُّ لك عن بديعة، ويفضى بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مَسْمعُه، ويلطفُ لديك موقعُه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولَطُفَ عندك، أن قُدِّم فيه شيءٌ، وحُوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان".

(١٣١) (كتاب دلائل الإعجاز، تأليف عبد القاهر الجرجانى ـ قرأه وعلّق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر ـ مكتبة الخانجى بالقاهرة) ص١٠٦.

وقد اتخذه عمرو وسيلة لتأكيد معانيه وتخصيصها من جهة؛ وأداة للتنويع في أسلوبه جذبًا للمتلقي وإثارة له؛ لما في الجملة من انحراف وخروج عن وضعها الطبيعيّ - من جهة أخرى - كقوله يقصد معاوية:

أتاه جريرٌ من عليٍّ بخُطّةٍ أمرّتْ عليه العيشَ، ذاتِ مضائق

وقوله:

مُعاوِيَ ما اجترمتُ إليك ذنبًا وما أنا - في التي حدثت - بخازى

وقوله مشيرا إلى بلاء الإمام عليّ:

متى يَذكرْ مشاهدَه قريشٌ يَطِرْ من خوفه القلبُ الشديدُ

وقوله من قصيدة:

فاخترتُ من طمعي دُنيا على بَصرٍ وما معي بالذى أختارُ بُرهان

هذا، وقد شاع في شعر عمرو سمةٌ أسلوبيةٌ لافتةٌ تتمثل في الفصل بأداة الشرط وفعله بين ركني الجملة، أو بين الفعل ومفعوله، أو بين المعطوف والمعطوف عليه، أو غير ذلك من أجزاء الكلام؛ وفي هذا ما يثير انتباه المتلقي،

ويجدد نشاطه؛ ويؤكد المعنى فى نفسه؛ بل فى هذا الأسلوب أيضا ما يثير الدهشة والإعجاب بهذا الشاعر الخادع الماكرِ الذى يتوعَّد معاوية، ويعرِّض به بطريقة لا تُدينُه؛ لأنه يرميه بشىء مشروط، ويعلّق الجواب عليه ـ أى على معاوية ـ وحده؛ وكأنه يترك له حرية الاختيار لما يقترفه بنفسه، ويشرك الشاعر المستمعين معه ويشهدهم على ما سلكه معاوية فى هذه الحال. ومن شواهده قول عمرو مخاطبًا معاوية الذى شمت به يوم بارز عليا، واتقاه بحيلته المشهورة:

مُعاوِىَ لا تشمتْ بفارس بُهْمَةٍ ... لَقِى فارسًا لا تَعْترِيه الفوارسُ

مُعاوِىَ ـ إن أبصرتَ فِى الخيل مقبلا ... أبا حسنٍ يهوِى ـ دَهَتْك الوساوِسُ

وأيقنتَ أنّ الموتَ حقٌّ وأنه ... لنفسك إن لم تمْضِ فى الرّكْض حابسُ

فإنك لولاقيته كنت بُومةً ... أُتيح لها صَقْرٌ من الجوّ آنِس

وقوله مهدِّدًا معاوية الذى طمع فى خداع الإمام علىٍّ، مُحقِّرا رأيه، مسفها أطماعه، بقوله فى ختام قصيدة:

دَعَنَّ الشامَ حسبُك يا ابنَ هندٍ ... من السَّوءاتِ والرأىِ الزَّهيد

ولو أعْطاكَها ما ازدَرْتَ عِزًّا ... ولا لَكَ لو أجابك من فَريد

(فالتقدير لن يجيبك ...)

على أن الأمر يختلف كثيرا لو كان المراد فى هذا الأسلوب غير معاوية، كما جاء فى قول عمرو – من مقطعة – مخاطبا أهل العراق، داعيا إياهم إلى التحلّى بالحلم وإعمال العقل:

لعمرى لَما فيه يكونُ حِجاجُنا إلى الله أدْهى لو عَقلْتُم وأنكرُ

فهذا الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه يثير انتباه أهل العراق – فى نظر عمرو ومكره – ويبعث فى نفوسهم الحميّة، وينفرهم من سلوكهم الذى يُدْخلهم فى عِداد ما لا يعقل.

وقوله من مقطعته التى مطلعها:

مُعاوِىَ لا أُعطيك دِينى ولم أَنَلْ بذلك دُنيا، فانظُرَنْ كيف تصنعُ؟

حيث يقول (قاصدا بالأمر مبايعته له):

وأُعطيك أمرًا فيه للمُلك قوّةٌ وإنىّ به – إن زلّت النّعلُ – أضْرع

فهذا الفصل بين إنّ واسمها والمتعلق (وإنى به)، وبين جملة الخبر (أضرع) – يُوحى بمدى توجس عمرو خيفة مما يصيبه من ضعف وهوان إن زلّت قدم معاوية،

وخاب أمله، ولم يُكتب له الغلب. كما يوحى بتعلق عمرو بالأمل والرجاء ألاّ يحدث هذا. بل لعله ـ لثقته بما يملك من فكر ماكر خادع ـ يرى استبعاد هذا الاحتمال؛ ومن ثمّ عبّر بالأداة (إنْ) التى توحى باحتمال وقوع جواب احتمالا قليلا أو نادرًا فى الأعم الأغلب فى الأساليب العربية.

هذا، ومن الوسائل الفنية التى اتكأ عليها عمرو فى شعره (الحذف)، الذى يشيد به عبد القاهر فى قوله(١٣٢):

"هو بابٌ دقيقُ المسالك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأمر، شبيهٌ بالسحر؛ فإنك ترى به تركَ الذكر، أفصحَ من الذكر؛ والصمتَ عن الإفادة؛ أزْيدَ للإفادة، وتجدك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ بيانًا إذا لم تُبِنْ".

ومن شواهده فى شعر عمرو ـ وهى كثيرة ـ قوله من مقطعة:

شِدُّوا علىَّ شِكّتى لا تنكشفْ بعد طُلَيْحٍ والزُّبيْر فأتلفْ

يومٌ لهمدانَ ويومٌ للصَّدِفْ وفى تميمٍ نخوةٌ لا تنحرِفْ

أراد (ذاك يوم لهمدان ـ أو هو يوم لهمدان) ـ (وذاك يوم للصدف ـ أو هو يوم للصدف) فحذف المبتدأ ـ أو جاء التعبير هكذا ـ لبيان عمق انشغاله بالمعركة التى تسمى (يوم)، ومدى تلهفه للقاء همدان والصّدف بن كهلان.

ومن شواهد الحذف ـ أيضا ـ قوله من قصيدته إلى عبد الله بن العباس:

---

(١٣٢) (كتاب دلائل الإعجاز/١٤٦).

إن العـراقَ وأهـلَ الـشامِ لـن يجـدوا ... طعـمَ الحيـاةِ مـع المُـستغلقِ القاسـى

بُـسْرٌ وأصـحابُ بُـسْرٍ والـذين هُـمُ ... داءُ العــراقِ رجــالٌ أهـلُ وَسْـواسِ

قــومٌ عُــراةٌ مــن الخــيرات كلُّهُــمُ ... فمــا يُـساوَى بــه أصـحابُه كاسـى

فلما كان (المُستغلق القاسِى) ـ فى خطاب عمرو ـ هو الذى حـرم أهـل العـراق وأهل الشام لذة الحياة، ونعيم أمنها ـ تطلعت النفوس متسائلة: مَـنْ هـذا المـستغلق الذى ضاق صدره، وقلّ صبره، وعسر فهمـه، وغلـظ قلبـه، ونـزعت منـه المحبـة والرحمة؟ ومن ثَمَّ كانت إجابـة عمـرو (بـسرٌ و...)؛ أراد (هـو بُـسْرٌ) ولكـن حـذف المبتدأ هنا يوحى بمدى الاهتمـام بـالخبر (بسرٌ)؛ لأنـه المعنـىُّ بـالأمر، المنـوط بـه الخراب والدمار.

ثم إن قوله فى البيت الثالث (قومٌ عراةٌ...) يمكـن أن يكـون (قـومٌ) مرفوعًـا على البدليّة من قوله (رجالٌ أهل...) فى البيت قبله. بيْد أن القطع بقوله (هم قـومٌ عراةٌ...) أدق فى التعبير، وأقوى للمعنـى، كأنـه يقـول (هـم) لا غـير. وعلـى هـذا التأويل يكون حذفه للمبتدأ (هم) موحيـا بمـدى الاهتمـام بـالخبر (قـومٌ)، وموحيـا كذلك بمدى ضيق الشاعر بهم، وكراهيته لهم؛ علـى نهـج الخـداع الـذى ينتهجـه عمرو نـزولا على رغبة معاوية، كما قدمنا للنص فى الدراسة الموضوعية.

ومن شواهد الحذف كذلك قـوله ـ فـى مرحلـة التفـاوض مـع معاويـة، وعـدم استقراره على حال:

يـــا قاتـــلَ اللهُ وَرْدانًـــا وقدْحَتَـــه أبْـدى لَعَمْـرُك مـا فـى الـنفس وَرْدانُ

لمـا تعرّضَـتِ الـدنيا عرضْـتُ لهـا بحـرص نفـسى وفـى الأَطبـاعِ إدهـانُ

نفسٌ تَعُفُّ وأخرى الحرصُ يَغْلِبُهـا والمـرءُ يأكـل تبْنًـا وهْـوَ غرْثـان

ومنها:

أمـرٌ لعَمْـرو أبـيكمْ غـيرُ مُـشْتَبِهٍ والمـرءُ يَعْطـسُ، والوسـنانُ وسـنانُ

واضح فى البيت الثالث أن المراد (هى نفسٌ) ـ لأنه لا يجوز الابتـداء بـالنكرة إلا... لكـن حـذف المبتـدأ (هـى) يـوحى بمـدى الاهتمـام بـالخبر (نفسٌ) وسـرعة الحديث عنها والايحاء بعمق أغوارها واتساع أطماعها.

وكذا فى قوله فى البيت الأخير (أمـرٌ لعمـرو...)، أراد (هـذا أمـرٌ ـ أو : هـو أمرٌ لكن الحذف أفصح من الذكر، وأقوى تعبيرًا عن ضيق الشاعر وقلقـه واهتمامـه بالخبر (أمرٌ).

ومن شواهد الحذف أيضا:

مُعـاوِىَ لا أُعطيـك دِينـى ولم أَنَـلْ بـذلك دُنيـا ، فـانظُرَنْ كيـف تـصنعُ؟

والتقدير (أمعاوىَ) ـ أو (يا معاوىَ) ... فانظرْن هذا الأمرَ كيف تصنع فيه .

ولكن جاء حذف حرف النداء في صدر البيت، وحذف مفعول (فانظرن) كاشفين عن عاطفة الضيق والتبرم والكراهية لموقف معاوية وتردده في الإجابة؛ والدليل على ذلك قوله في نهاية المقطعة:

وتمنعنى مصرًا وليست برغبةٍ وإنى بذا الممنوعِ قِدْمًا لُمولع.

ويدخل تحت هذا التأويل ما جاء في قول عمرو مخاطبًا معاوية بشأن مبارزة الإمام على:

مُعاوِىَ إن نكلت عن البراز لك الويلاتُ فانظرْ فى المخازى

مُعاوِىَ ما اجترمتُ إليك ذنبًا وما أنا بالذى حَدثتْ بخازى

حيث حُذف حرف النداء في صدر البيتين؛ إذ التقدير (أمعاوى...). كما حذف مفعول (فانظر)، للتهويل من شأنه وتعدّده، والتهكم به، والسخرية منه. فالتقدير: (فانظر موقفك ـ أو أمرك ـ أو فضيحتك...).

ومن الحذف في هذه المقطعة قوله يقصد معاوية:

ويزعم أننى أضمرتُ غِشًّا جزانى بالذى أضْمرتُ جازى

حيث آثر حذف المفعول الثانى للفعل (جزى) للإيحاء بحسن طويته ونقاء سريرته، اللتين لا يعلمها إلا الله المجازى كل نفس بما كسبت. والتأويل: جزانى خيرًا - أو شرًا ...)

والأمر كذلك فى قوله:

مُعاوِىَ إن أبصرتَ فِى الخيل مقبلا أبا حسنٍ يهوِى دَهَتْك الوساوِسُ

إذا التقدير (أمعاوىَ من يهوى نحوَك = بمعنى يمضى ويُسرع. أو يهوى عليك بمعنى ينْقَضُّ عليك.

ومن هذه القصيدة قوله - ومازال المخاطب معاوية -:

دعاك فصُمَّتْ دونه الأُذْنُ هاربًا بنفسك قد ضاقت عليك الأمالِسُ

وإنى امرؤ باقٍ فلم يُلفَ شِلْوُه بِمُعتركٍ تَسْفِى عليه الروامِسُ

إذ التقدير فى صدر البيت الأول (دعاك إلى البِراز). والحذف يوحى بشهرة ما دعاه إليه، كما يوحى بانتشار فضيحة معاوية من أجله.

والتقدير فى البيت الثانى (فلم يُلف شِلوُه مطروحا - أو مُلْقًّى - بأرض المعركة) ولكن حذف المفعول الثانى للفعل (ألفى) - وإيثار بناء الفعل للمجهول - ترفعًا عن ذكر المفعول الثانى، واستبعادًا لوقوعه.

ومن شواهد الحذف كذلك قوله فى قصيدته النونية التى هنأ فيها معاوية بالخلافة :

فقالوا وقلتُ وكنتُ امرأً أُجَهْجِهُ بالخَصْمِ حتى يلينا

حيث حذف مفعول (فقالوا)، ومفعول (وقلت)؛ للتهويل من شأن ما قيل من الطرفين، وكثرته؛ وتجسيم الجهد الذى بذله عمرو حتى تسنى له الغلب واقتناص الخلافة لمعاوية.

هذا، ومن الوسائل الفنية التى وظفها عمرو قليلا فى شعره - ما أطلق عليه البلاغيون (**المدح بما يشبه الذّم**)؛ على ما يظهر فى قوله مخاطبًا معاوية:

أبى الله أنّ صدرَك واغرٌ علىَّ بلا ذنبٍ جَنيْتُ ولا ذَحْل

سوى أننى، والراقصاتِ عشيَّةً بنصْرِك مدخولُ الهوى ذاهِلُ العقل

فإن المتوقع بعد قوله: (بلا ذنب جنيت ولا ذحْل - سوى أننى)؛ أنه سيذكر بعض ما جناه عليه من (ذنب) و(ذحْل)، وإذ بنا نفاجأً بغير هذا المتوقع، نُفاجأ بإشادته بإخلاصه لمعاوية، وانشغال قلبه وعقله بنصره.

ثانيا : الموسيقى فى شعر عمرو يوم صفين

"الشعر ـ كما يرى ابن طباطبا[١٣٣]ـ كلام منظوم بان عن المنثور الذى يستعمله الناس فى مخاطبتهم بما خُصّ به من النظم الذى إن عُدِل به عن جهته مجّته الأسماع وفسد على الذوق. ونظمه ملوم محدود...".

وهو عند القرطاجنى[١٣٤] أيضا: "كلام موزون مقفّى..."

ويزيدنا تعريفًا به وبيانًا لأهميته وموسيقاه ـ د/إبراهيم أنيس ، حيث يقول[١٣٥]:

"كان القدماء من علماء العربية لا يرون فى الشعر أمرًا جديدًا يميّزه من النثر إلا ما يشتمل عليه من الأوزان والقوافى... ثم بدأ النقاد فى العصور المتأخرة يرون فى الشعر أمورًا أخرى... ولسنا نبغى هنا أن نثير جدلاً أو نقاشًا مع المحدثين من ناقدى الأدب حول الشعر ومعناه وخصائصه؛ لأنهم جميعا يلجأون آخر الأمر إلى صورة الشعر من أوزان وقواف، ويرون فيها الخاصية الواضحة التى لا غموض فيها ولا إبهام. يلجأون آخر الأمر إلى موسيقى الشعر فيرونها تزيد من انتباهنا، وتضفى على الكلمات حياة فوق حياتها، وتجعلنا نحس بمعانيه كأنما تمثل أمام أعيننا تمثيلا عمليًّا واقعيًّا. هذا إلى أنها تهب الكلام مظهرًا من مظاهر العظمة والجلال، وتجعله مصقولا مهذبًا، تصل معانيه إلى القلب بمجرد سماعه. وكل ذلك مما يثير منا الرغبة فى قراءته وإنشاده وترديد هذا الإنشاد مرارًا وتكرارًا".

(١٣٣) فى (كتاب عيرا الشعر) لابن طباطبا العلوى، المتوفى سنة ٣٢٢هـ. تحقيق د/عبد العزيز بن ناصر المانع ـ دار العلوم للطباعة والنشر سنة ١٩٨٥م ، ص٥.

(١٣٤) منهاج البلغاء ـ مصدر سابق ـ ص/٧١ .

(١٣٥) (موسيقى الشعر ـ للدكتور إبراهيم أنيس ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٢م) ص١٤، ١٦.

وموسيقى الشعر ـ على ما هو مشهور ـ تنقسم قسمين (موسيقى خارجية وموسيقى داخلية) .

أما الموسيقى الخارجية فهى بدورها نوعان :

الأول هو (الوزن) الذى يعدّ "أعظم أركان حدّ الشعر وأولاها به خصوصيته"[(١٣٦)].

وقد نسج عمرو بن العاص شعره يوم صفين ـ غير أراجيزه الكثيرة ـ على منوال سبعة أبحر من بحور الشعر المعروفة؛ هى: (الطويل، والوافر، والبسيط، والمتقارب، والكامل، والخفيف، والرمل).

أما بحر الطويل فقد استخدمه عمرو سبع مرات؛ فى ثلاث قصائد وأربع مقطّعات، عدد أبياتها جميعا (٥١) بيتا. منها قصيدته التى مطلعها:

تطاوَلَ ليلى للهموم الطّوارقِ وخَوْلَ التى تَجْلو وُجوهَ العَواتقِ

وقصيدته التى مطلعها:

تُعاتِبُنى أنْ قلتُ شيئًا سمعتُه وقد قلتَ لو أنصفْتَنِى مثلَه قبلِى؟!

ومقطّعته التى مطلعها:

---

(١٣٦) (العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده؛ لابن رشيق ـ حققه ... / محمد محيى الدين عبد الحميد ـ دار الجيل للنشر والتوزيع ـ بيروت / لبنان ـ الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٢م): ١/١٣٤.

خَدعتُ / أبا موسى خَديعـ/ـةَ شَيْظِمٍ   يُخـادِ/عُ سَـقْبا فـى فـلاةٍ مـن الأرض

ومن يقرأ هذه النصوص التى جاءت على هذا البحر، ويقف على مناسبتها، وما فيها من اتجاه إلى الإخبار والقص والتفصيل "فى داخل نطاق التلميح والإشارة"(١٣٧) ـ يسلم أن عمرو بن العاص قد وفق فى هذا البحر إطارًا لهذه المعانى. يقول د/عبد الله الطيب(١٣٨): "وحقيقة بحر الطويل أنه بحر الجلالة والنبالة والجد، ولو قلنا إنه بحر العمق لاستغنينا بهذه الكلمة عن غيرها؛ لأن العمق لا يمكن أن يتصور بدون جدّ، وبدون نُبل وجلالة..."

وعمرو مع التزامه بوزن هذا البحر ـ وغيره من الأوزان التى وظفها ونسج على منوالها ـ فإنه يجرى كثيرا من التحولات والتغييرات فى الوحدات الإيقاعية للأوزان ـ أو ما اصطلح على تسميتها بالتفعيلات ـ تخفيفا لها وكسرًا من رتاتها(١٣٩)؛ وذلك باستخدامه بعض ألوان الزّحاف الذى عدّه ابن سلاّم الجمحىّ

(١٣٧) (المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها؛ للدكتور/ عبد الله الطيب ـ دار الفكر ـ الطبعة الثانية (بيروت) سنة ١٩٧٠م: ١/٣٧٠.

(١٣٨) السابق ١/٣٨١.

(١٣٩) (عروض الشعر العربىّ بين التقليد والتجديد: دراسة تطبيقية؛ للدكتور/ أمين عبد الله سالم ـ مطبعة منجد الحديثة، بنها الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص١٥٩ وفيها يقول عن هذه التغييرات:" وهى كثيرة لا تحظر. ولربما أدخلت على الشعر إيقاعا وسحر نغم فى تفعيلاته الاصطلاحية، بل منها ما يلزم".

عيبًا إلا إذا جاء قليلا خفيفا[١٤٠]. والحقّ أن الزحاف القليل "المحكم يزيد الجرس إحكاما، ويكسبه زيادة فى الدّندنة، بما يضيف إليه من عنصر التنويع"[١٤١].

هذا، ومما يجوز فى حشو الطويل من ألوان الزحاف (القبض) ـ وهو حَذْف خامس التفعيلة متى كان ساكنا، وثانى سبب؛ أى أن تفعيلة (فعولن)، قصير (فعولُ) و(مفاعيلن) تصير (مفاعلن).

وقد جاء أكثر القبض فى التفعيلة (فعولن)، فى شواهد هذا البحر التى بين أيدينا، على نحو ما تحته خط فى المطالع الثلاثة السابقة. وما تحته خط فى قوله:

مُعاوِيَ لا أُعطيك دِينى ولم أَنَلْ ... بذلك دُنيا، فانظُرَنْ كيف تصنعُ؟

وقوله ـ يقصد سمير بن الحارث العجلىّ ـ:

قصدتُ/ له فى وائلٍ فـ/سَقيْتُه ... سمامَ/ زُعافٍ يترك اللونَ أكْلَفا

فما جَبُنتْ بكرٌ عن ابن/ مُعَمَّرٍ ... ولكن رجا عَوْدَ الهَوادَة فانكفا

أما بحر الوافر فقد استخدمه عمرو أربع مراتٍ فى مقطّعة وثلاث قصائد؛ عدد أبياتها جميعا (٣٤) بيتا.

---

(١٤٠) (طبقات فحول الشعراء ـ مصدر سابق ـ ص٦٨ : ٧٠.

(١٤١) المرشد إلى فهم أشعار العرب / ٦٠٣.

أما المقطعة فمطلعها:

مُعاوِىَ إن نكلت عن البراز لك الويلات فانظرْ فى المخازى

أما مطالع القصائد فعلى النحو الآتى:

ألا للهِ دَرُّكَ يا ابنَ هندٍ ودَرُّ الآمرين لك الشهودِ

يُذكِّرنى الوليدُ دُعا علىٍّ وبطنُ المرء يملؤُه الوعيدُ

تسيرُ إلى ابْن ذى يَزنٍ سعيدٍ وتتركُ فى العَجاجة مَنْ دعاكا

ومَنْ يقرأ هذه الشواهد التى جاءت على هذا البحر؛ ويقف على مناسبتها، والعاطفة الغاضبة الثائرة التى دفعت بها ـ يُسلِّم بأن عمرًا قد وفّق فى اتخاذ هذا البحر إطارًا لمعانيها؛ "ففى الوافر تدفّق استمده من أصله المتقارب، إلا أن نغمه ينبتر آخر كل شطر، وهذا الانتبار شديد المفاجأة، وله أثر عظيم جدًّا فى نغم الوافر؛ إذ يكسبه رنة قوية ليست فى المتقارب، وهذه النغمة القوية ترشحه للأداء العاطفى سواءً أكان فى الغضب الثائر والحماسة أم...

والوافر بحرٌ مُسرعُ النعمات متلاحقها، مع وقفة قوية سرعان ما يتبعها إسراع وتلاحق. وهذا يتطلب من الشاعر أن يأتى بمعانيه دُفعًا دُفعًا كأنه يخرجها من

مضخة... وأحسن ما يصلح هذا البحر في... إظهار الغضب في معرض الهجاء. والفخرَ والتفخيم في معرض المدح"(١٤٢).

وواضح من الشواهد التي وردت على هذا البحر - هنا - أنها جاءت على الوافر التام لا المجزوء وأجزاء الوافر المشهورة هي:

مُفَاعَلَتُنْ مُفَاعَلَتُنْ فعولن مُفَاعَلَتُنْ مُفَاعَلَتُنْ فعولن

وللوافر عروضتان، وثلاثة أضرب. وما يعنينا منها - في بحثنا - هو العروضة الأولى: (فعولن)، وضربها (فعولن)؛ لأن كل ما ورد لعمرو من أشعار على الوافر هنا؛ جاء على هذا النحو.

أما التحويلات والتغيّرات التي حاول بها عمرو أن يكسر من رتابة هذا الوزن - فلا تخرج عن (العَصْب) - (وهو إسكان خامس التفعيلة متى كان متحركا وثاني سبب) — أي أن (مُفَاعَلَتُنْ) بتحريك اللام، تصير (مُفَاعَلْتُنْ) بتسكينها = (مفاعيلن)؛ على نحو ما تحته خط في مطلع المقطعة والقصيدتين بعدها، إلى غير ذلك مما هو مذكور بعد المطالع، وهو ليس بالكثير المخل بغايته الفنية.

أما بحر البسيط فقد استخدمه عمرو في قصيدتين عدد أبياتهما (١٩) بيتا الأولى مطلعها.

يا قاتلَ اللهُ وَرْدانًا وقِدْحَتَه أبْدى لَعَمـ/ـرُك مـا/ في النفس وَرْدانُ

(١٤٢) السابق: ١/٣٣٢.

والثانية مطلعها :

طال البلاءُ وما/ يُرجى له آسِي بَعْد الإله سوى/ رِفْقِ ابنِ عباس

وإذا عدنا لهاتين القصيدتين وعرفنا مناسبتهما، والعاطفة فى كل منهما التى لا تخلو من لين وحنين، وتمنٍ ورجاء ـ وإن كانت لا تجلو من مسحة من الحزم والعنف ـ تأكد لنا توفيق عمرو فى اتخاذ هذا البحر وعاء لهذه المعانى التى تبديها عاطفته "إذ إن روح البسيط لا تخلو من أحد النقيضين العنف واللين. وتكاد صبغته على وجه الإجمال تكون إنشائية؛ إذ افترضنا فى الطويل صبغة خبرية... والقصص الذى يستقيم فى البسيط هو ما يكون فيه لونٌ من عنف ولين... على أنه يصلح لرقيق الكلام... (ورقته) ... تظهر فى كل ما يغلب عليه عنصر الحنين والتحسر على الماضى"(١٤٣).

هذا، والقصيدتان اللتان معنا على البسيط التام، وتفعيلاته :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعِلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

والعروضة فيهما تامة مخبونة (فعِلن) ــ بكسر العين ـ وضربهما (مقطوع) "والقطع حذف ساكن الوتد المجموع. وتسكين ما قبله" ـ أى أن (فاعلن) تئول إلى

(١٤٣) السابق: ١/٤١٤ : ٤١٦، ٤٣٤.

(فاعل)، وتنقل إلى (فعْلن) ـ بتسكين العيْن (بشرط أن يدخله الرِّدف ـ أى لين قبل رويّه).

ويجوز فى بحر البسيط من أنواع التغيير (الخبن) فى (فاعلن) ، فتصير (فعِلن) ـ بكسر العِين كما أشرنا ـ وعلى ما جاء فى مطلع القصيدتين نموذجا. كما يجوز (الخبن) فى (مستفعلن) فتصير (مفاعلن) على نحو ما جاء فى صدر الشطر الثانى فى الأبيات الأربعة من القصيدة الأولى من قول عمرو:

لما تعرّضَتِ الدنيا عرضْتُ لها — يحرص نفـ/ـسى وفى الأَطباعِ إدهانُ

فاخترتُ من طمعى دُنيا على بَصرٍ — وما معى/ بالذى أختارُ بُرهان

إنى لأعرفُ ما فيها وأُبصرُه — وفىَّ أيْـ/ـضًا لما أهواه ألوان

لكن نفسى تحبُّ العيشَ فى شرفٍ — وليس يرْ/ضى بذُلٍّ العيشِ إنسان.

أما القصيدة الثانية فالخبن جاء فى (فاعلن) فقط فى خمس عشرة تفعيلة منها، علما أنها تحتوى على أحدَ عشر بيتا، أى أن هذا الزحاف جاء قليلا فاعلا.

أما بحر المتقارب فقد استخدمه عمرو مرتين فى قصيدتين عدد أبياتهما (١٤) بيتا الأولى فى سبعة أبيات ـ بها (٩) زحافات ـ مطلعها:

أمرتـ/ـكَ أمرًا فسخّفْتَه — وخالفنى ابنُ أبى سَرْحهْ

والثانية فى سبعة أبيات أيضا ـ بها (٨) زحافات ـ مطلعها :

أَتَتْـــكَ الخلافـــةُ مَزْفوفَـــةً هنيئًـــا مريئًـــا يُقَـــرُّ العُيونـــا

ومناسبة كل قصيدة منهمـا معروفـة، والعاطفـة فـى كـل منهمـا هـى الفرحـة والبهجة. وإن كانت فى الأولى الفرحة بهزيمة معاوية على ماء الفرات والشماتة بـه لعدم أخذه بنصح عمرو فى تلك المسألة.

أما الثانية فالفرحة التامة بنصر معاوية وتوليه الخلافة، وبهجة عمرو وفخـره بما صنع من أجل تحقيق هذا الهدف السامى له.

وبحر المتقارب بحر راقـص "نغماتـه مـن أيْـسر النغمـات... (وهـو) ذو نغمـة واحدة متكررة... ويصلح لكل ما فيه تعداد للصفات، وتلذذ بجرس الألفاظ، وسـرد الأحداث فى نسق مستمر. والناظم فيه لا يستطيع أن يتغافل عن دندنته فهى أظهر شىء فيه"[١٤٤]، مما يدل على مدى توفيق عمرو بن العاص فى اصطفائه وزنـا فـى هاتين التجربتين.

هذا، ويدخل فى بحر المتقارب من الزحاف (القبض)، "وهـو حـذف خـامس التفعيلة، متى كان سـاكنا، وثـانى سـبب"؛ أى أن (فعـولن) تـصير (فعـول). وقـد استخدم عمرو هذه الوسيلة الفنية فى القصيدة الأولى (٩) مـرات، وفـى الثانيـة (٨) مرات. فى غير العروضة والضرب فى كل منهما.

(١٤٤) السابق: ١/٣٠٩ ، ٣١٢.

كما يدخل هذا البحر من الزحاف (الحذف)، "وهو إسقاط سبب خفيف من آخر التفعيلة فى العروض أو الضرب"؛ أى أن (فعولن) تصير (فعو)، وتئول إلى (فعَل) بفتح العين.

أما عروضة القصيدة الأولى فقد جاءت محذوفة (فعَل) ؛ إلا فى قوله:

"فكيف رأيت كباشَ العراق ".

وقوله: (وقد شرب القومُ ماءَ الفراتِ"

أما ضربها فقد جاء مبتورًا. والبتر هو حذف سبب خفيف مع إجراء القطع على الوتد المجموع قبله"؛ أى أن (فعولن) تئول إلى (فعْ)، أو (لنْ). وهذا الإجراء. على ما فيه من التكلّف ـ فيه من شدة التهكم بمعاوية، وإغاظته والاستخفاف به ما فيه.

أما عروضة القصيدة الثانية فقد جاءت محذوفة إلا فى قوله:

(تزفّ إليك كزفٍّ العروس).

وقوله : (وما الأشعرىّ بصلد الزّناد)

أما ضربها فقد جاء صحيحا (فعولن)؛ ولعل فى هذا إيحاءً فنيًّا يؤكّد صحة النهاية التى آلت إليها جهود داهية العرب عمرو بن العاص؛ ليملأ بهذه التفعيلة (فاهه = فمه)، ويطلقها ـ بما فيها من حرف المدّ ـ ما شاءت له الفرحة والإعجاب بدهائه السياسىّ.

أما بحر الكامل فقد استخدمه عمرو مرة واحدة فى قصيدته (٩) أبيات، مطلعها:

أنْ لو شهدْتَ فوارسًا فى قومنا ... يوم القوارعَ مرَّ مرَّ الأجْهَل

وواضح من مناسبة القصيدة ومعانيها أنها نتاجِ عاطفة الإعجاب والتقدير بفوارس قومه، وفرحته وبهجته بما يتحلّون به من سمات الأبطال وفَعالهم.

وبحر الكامل "أكثر بحور الشعر جلجلة وحركات، وفيه لونٌ خاصٌ من الموسيقى، يجعله - إن أريد به الجدّ - فخما جليلا مع عنصر ترنّمىٍ ظاهر... وهو بحر كأنما خلق للتغنى المحض سواء أأريد به جدّ أم هزل، ودندنة تفعيلاته من النوع الجهير الواضح الذى يهجم مع المعنى والعواطف والصور حتى لا يمكن فصله عنها بحال من الأحوال"(١٤٥)؛ ومما زاء من دندنة هذا البحر فى هذه القصيدة هذا الزحاف الذى وظفه عمرو بن العاص فيه، وهو (الإضمار)، "وهو إسكان الثانى متى كان متحركا وثانى سبب"؛ أن أن (متفاعلن) تصير (مستفعلن).

وهذا الإضمار فى القصيدة نال الضرب كله، وبعض الأعاريض وقليلا من الحشو، كقوله:

(أنْ لو شهدْ/تَ فوارسًا/ فى قومنا)

وقوله : (متسربلين سوابغًا عاديّةً)

وقوله: (يعْدُون إذْ/ ضجّ المنا/ دى فيهمُ)

حتى بلغ (٢٠) تفعيلة من مجموع تفعيلات القصيدة، وهى (٦٣)؛ أى نسبة: (٣١,٧٤٪).

أما بحر الخفيف فقد وظفه عمرو فى قصيدة (٩) أبيات - فى وصف المعركة بين قبيلتى (عَكٍّ) و(همدان)؛ والإشادة بالفريقين - مطلعها:

---

(١٤٥) السابق: ١/٢٤٦.

ن عكًّـا وحاشـدًا وبَكـيلاَ كأسـود الـضِّراب لا/قـتْ أُسـودا

ولقد بدا في هذه القصيدة الإعجاب الشديد ببلاء المُعسكريْن . وهذه العاطفة واضحة القوية المعتدلة، يناسبها هذا البحر الذى "يجنح صوب الفخامة... (وهو) اضح النغم والتفعيلات... ذو دندنة لا تمكن من الحوار الطبيعى... فإذا وقع حوار فيه جاء كأنه مسرحىّ... ويجعله ذا أسْرٍ قوى معتدِلٍ مع جلجلة لا خفى"[146].

وأجزاء الخفيف ستةً ، وهى:

ـاعلاتن مستفع لن فاعلاتن فـاعلاتن مـستفع لـن فـاعلاتن

ويدخل (الخبن) على (فاعلاتن)، فتصير (فعلاتن)؛ وعلى (مستفعلن)، فتصير (مفاعلن). وهذا الزحاف فى التفعيلتين هو التغيير والتحوير اللذان صنعهما عمرو فى كثير من التفعيلات فى هذه القصيدة؛ لكسر رتابة الوزن، وتطويع الإيقاع حسب ضربات قلبه ونبضات فؤاده.

هذا، على أن شدّة إعجابه وقوة عاطفته فى هذه التجربة دفعاه إلى توظيف وسيلة فنية أخرى ذات فائدة شعورية ـ بعيدة عن الزحاف ـ تتحكم فى الإيقاع الموسيقى؛ تُموّج نغماته، وتُطيل جرْسه، ما شاءت له عاطفته، هذه الوسيلة هى (التدوير)، "والبيت المدوّر هو ما اشترك شطراه فى كلمة واحدة بأن يكون بعضها فى الشطر الأول، وبعضها فى الشطر الثانى". ولم يستخدم عمرو هذه الوسيلة

(١٤٦) السابق: ١/١٩٢.

الفنية التى (تسبغ على البيت غنائية وليونة) إلا فى هذا البحر فقط؛ كقوله ـ ويقصد فرسان القبيلتين (عكّ ، وهمدانَ) ـ :

ليس يَدْرون ما الفرارُ وإن كا نَ فرارًا لكان ذاك سَديدا

ازورارِ المناكبِ الغُلْبِ بالشُّ مِّ وضرب المُسوَّمين الخُدودا

يعلمُ اللهُ ما رأيتُ من القوْ مِ ازوِرارًا ولا رأيتُ صدودا

وهكذا إلى آخر أبيات القصيدة :

أما بحر الرمل ـ فتفعيلاته :

(فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن)

على أن العروضة الأولى تأتى محذوفة (فاعلن)، وضربها محذوف مثلها (فاعلن) وقد استخدمه عمرو مرة واحدة فى مقطعة عددها (٣) أبيات، يقول فيها:

شُبَّتِ الحر/بُ فأعدد/تُ لها مُفْرغ الحا/رِك مَحْبو/كَ الثَّبَجْ

يصل الشدْ/دَ بشدْ/دٍ فإذْ وَنَت الخيـ/لُ عن الشدْ/دِ مَعَجْ

جُرْشـــعٌ أعْظَمُـــهُ جُفْرَتَـــه   فــإذا ابتـــلَّ مـــن المـــاءِ خَـــرجْ.

وهو في هذه الأبيات يصف فرسه الذى أعدّه ليوم صفين، ويشيد بما يمتاز به، "ونغمة الرمل خفيفة جدًّا، وتفعيلاته مرنة للغاية؛ كثيرا ما تصير (فاعلاتن) (فعِلاتن) ولا يكاد يلحظ ذلك. وفى رنّته نشوة وطرب"(١٤٧)؛ مكّنتا عمرو بن العاص من التعبير عن نشوته بفرسه، وطربه بما ينْماز به .

وقد وظف عمرو خصيِّصة (الخبن) فى بعض الأجزاء، فتصبح (فاعلاتن) (فَعِلاتن) على نحو ما تحته خط فى الأبيات، كما تصبح العروضة الأولى وهى (فاعلن)، (فعلن) ـ كما فى البيت الأول والثالث ـ ، وإن كانت خصيِّصة إشباع الحركة فيهما أدق تعبيرا عن مدى فرحته بفرسه، وعمق اعتزازه بها ـ وتكون العروضة على النحو الآتى فى البيت الأول (... فأعدد تُولها)، وفى الثالث إشباع حركة الرَّاء فى (جُفْرَتَه) على ما بها تكلف .

هذا، ويجوز فى الضرب ـ فى البيت الثانى والثالث ـ الإشباع: (دى معجْ) (ئى خرجْ)، ويمكن أن يكون الضرب فيهما مخبونًا بالخروج عن المشهور فى هذا الضرب المحذوف (فاعلن) والإشباع عندى أفضل تعبيرا عن المعنى، وأقوى تصويرًا للعاطفة .

أما ما يسمىّ بالضرورة الشعرية، فقد وردت فى شعر عمرو قليلا، ومنها:

١ـ تسكين (هاء) الضمير فى قوله:

فــوالله مــا أدرى ومــا كنــت هكــذا   أكُونُ ، ومهما قــادنى فَهْــوَ سـابقى؟!

---

(١٤٧) السابق: ١/١١٦ : ١٢٧.

لسلامة وزن الطويل.

وقوله :

نفسٌ تَعُفُّ وأخرى الحرصُ يَغْلِبُهـا　　　والمــرءُ يأكــل تبْنًــا وهْــوَ غرْثــان

لسلامة وزن البسيط.

٢ـ فتح ياء المتكلم في قوله :

ومـا الـدينُ والـدنيا سـواءً ، وإننـى　　　لآخــذُ مــا تُعطــى ورأســىَ مُقْنَــع

لسلامة وزن الطويل.

وقوله مرتجزا : (بجمعيَ العام وجمعى قابلا).

٣ـ ضمّ الميم علامة الجمع ، كما فى قوله :

(وما رُمْتُمُ وَعْرٌ من الأمر أعْسَرُ) ،

وقوله : (تعاورتُمُ ضربًا بكل مُهنَّدٍ) ؛

لسلامة وزن الطويل.

وقوله : (لو قِيس بينهمُ فى العُرب لاعتدلوا) ،

وقوله : (بُسْرٌ وأصحابُ بُسْرٍ والذين هُمُ...) ،

وقوله : (قومٌ عُراةٌ من الخيراتِ كلّهُمُ...) ؛

لسلامة وزن البسيط.

٤- صرف الممنوع من الصرف، كما جاء فى قوله :

(فإن تُعطنى مصرًا فأرْبحْ بصفقةٍ

وقوله : (وتمنعنى مصرًا وليست برغبةٍ)

وقوله : (أنْ لو شهدْتَ فوارسًا فى قومنا)

وقوله : (مُتسرْبلين سوابغًا عاديَّةً)

٥ - عدم فتح الياء الواقعة لامًا للكلمة فى الفعل الماضى لسلامة وزن الطويل فى قوله :

مُعاوِىَ لا تشمتْ بفارس بُهْمَةٍ   لَقِى فارسًا لا تَعْترِيه الفوارسُ

ولكن "شتان ما بين الضرورة الشعرية والبديع الشعرى"(١٤٨) مع ندرة الضرورات فى شعر عمرو.

الثانى - من أقسام الموسيقى الخارجية - (القافية) التى "تعدّ شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر، ولا يسمىّ شعرا حتى يكون له وزن وقافية"(١٤٩).

أما حدّ القافية فإن الذى يعنينا من كثرة الاختلاف حوله - أنها هى حرف الروىّ الذى تنسب إليه القصيدة فيقال قصيدة همزية، أو بائية وهكذا؛ والذى يتكرر على مدار القصيدة كلها؛ يقول د/إبراهيم أنيس(١٥٠): "ليست القافية إلا عدّة أصوات تتكرر فى أواخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة، وتكررها هذا يكون جزءًا هاما من الموسيقى الشعرية؛ فهى بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع تردّدها،

(١٤٨) السابق:٢/٥٧٠.

(١٤٩) (العمدة : ١/١٥١).

(١٥٠) موسيقى الشعر / ٢٤٦ - ٢٤٧.

ويستمتع بمثل هذا التردد الذى يطرق الآذان فى فترات زمنية منتظمة... وأقل ما يمكن أن يُراعى تكرره، وما يجب أن يشترك فى كل قوافى القصيدة ذلك الصوت الذى تبنى عليه الأبيات، ويسميه أهل العروض بالرّوىّ".

والقوافى فى شعر عمرو بن العاص فى يوم صفين الذى بين أيدينا ـ باستثناء أراجيزه فيه ـ نوعان:

(مقيّدة) ـ وهى التى يكون فيها الروىُّ ساكنًا ـ وقد ورد هذا النوع مرة واحدة فى مقطعته الجيمية التى مطلعها.

شُبَّتِ الحربُ فأعددتُ لها ... مُفْزِعَ الحارِكِ مَحْبوكَ الثَّبَجْ

(مطلقة) ـ وهى التى يكون فيها الروىّ متحركا ـ وتشمل كل ما ورد من شعره.

"والفتحة فى القوافى غير الموصولة بضمير أو نحوه ـ تأتى بالإطلاق. وفى الإطلاق كالصياح لأنه ألف ممدودة طويلة. ومخرجها من أقصى الحلق... والضمة حركة تشعر بالأبهة والفخامة، والكسرة تشعر بالرقة واللين"[١٥١].

هذا، وقد استعمل عمرو بن العاص ـ فى مقطعاته وقصائده ثلاثة عشر حرفا من حزوف الهجاء، هى حسب ترتيبها:

- الدال = (٣) مرات
- السين ، واللام ، والنون = مرتين
- الجيم ـ الحاء ـ الزّاى ـ الضّاد ـ العين ـ الفاء ـ القاف ـ الكاف = مرة واحدة.

---

(١٥١) المرشد: ١/٦٨ ـ ٦٩.

وكل هذه الحروف ـ ما عدا الزاى والضاد ـ من القوافى الذلل السهلة التى تناسب موقف عمرو فى كل تجربة من تجاريبه، وتتسق مع ألفاظه وأسلوبه ومعانيه.

هذا، وإن كان ينبغى فى القوافى أن تكون واقعة فى مواضعها متمكنة فى مواقفها[(١٥٢)]. وأن يكون الوزن مشتملا عليها وجالِبًا لها[(١٥٣)]، وكان (خير القوافى ما لازم ألفاظ البيت ولم يجىء كالواغل"[(١٥٤)] ـ فإن قوافى عمرو جاءت متمكنة فى مواقعها، مرتبطة بألفاظها. ولم يشذّ منها فى نظرى سوى قوله:

خَدعتُ أبا موسى خَديعةَ شَيْظِمٍ   يُخادع سَقْبا فى فلاةٍ من الأرض

إذ إن قوله: (من الأرض) بعد قوله (فى فلاة) ــ التى تعنى الأرض الواسعة المقفرة ـ لا يضيف معنى جديدا؛ وإنما وردت كلمة (الأرض)؛ ليستوىَ الروىّ فقط؛ إذ ليس ثمة (فلاة من الأرض) و(فلاة من السماء)، و(فلاة بين السماء والأرض) حتى يبرر لعمرو بن العاص هذا التحديد وإن جاء فى نظره على سبيل التأكيد والشمول للمبالغة فى الاختيال والفخر بصنيعه.

(١٥٢) كتاب عيار الشعر / ١٧٤.

(١٥٣) العمدة : ١/١٣٤.

(١٥٤) المرشد فى فهم أشعار العرب : ١/٧٠.

أما القسم الثانى من أقسام الموسيقى عامة فهو: (الموسيقى الداخلية)

ولكى نوضح مرادنا من هذا الباب نستضىء برأى عالمين ناقدين، أولهما: د/عبد الله الطيب الذى يقول تحت عنوان (الجرس) [155]:

"ومما يلحق بكلمتى (الفصاحة) و(الجزالة) مما كان يُراد به نعت الألفاظ ورنينها (حسنُ الرصف) و(الفخامةُ) و(شدّةُ الأسْر) و(صفاءُ الدِيباجة) و(السلاسةُ). و(الفصاحةُ) أدخلها جميعا فى جوهر الاصطلاح. وكلمة (الجرس) التى نستعملها نحن المعاصرين، أدلّ منها على القصد، فصوتها نفسه يشعر بمعناها. وهى بعْدُ لفظ واسع المدلول، ينضوى تحته كل ما يتعلق بدندنة الألفاظ فى البيان الشعرىّ. فالوزن والقافية على ذلك طرَفٌ منه. وتبقى بعد الوزن والقافية فَضلةٌ هى مرادنا من هذا الباب. وهذه الفضلةُ يدخل فيها الجناسُ والطباقُ، وسائرُ المحسنات اللفظية، مع تركيب الكلام، وترتيب الكلمات وتخيّرها، وكل ما من شأنه أن يُعين على تجويد البنية والرنين فى أبيات الشعر".

ثانيهما: د/إبراهيم أنيس الذى يقول تحت عنوان (جرس الألفاظ فى البديع) [156]:

"لا يتم الحديث عن موسيقى الألفاظ إلا بإشارة سريعة لما جاء فى كتب أهل البديع عنها؛ فقد قسموا البديع إلى نوعين:

١- معنوىّ: ... (وهو) يتضمن أمورًا تتصل اتصالاً وثيقًا ببحث موسيقى الألفاظ..

---

(١٥٥) المرشد : ٢/٤٥٩.

(١٥٦) موسيقى الشعر/ ٤٤ - ٤٥.

٢ـ اللفظى: هذا النوع من فن البديع وثيق الصلة بموسيقى الألفاظ. فهو ليس فى الحقيقة إلا تفنّنًا فى طرق ترديد الأصوات فى الكلام حتى يكون له نغم وموسيقى، وحتى يسترعىَ الآذانَ بألفاظه، كما يسترعى القلوبَ والعقولَ بمعانيه فهو مهارةٌ فى نظم الكلمات، وبراعةٌ فى ترتيبها وتنسيقها. ومهما اختلفت أصنافه وتعدّدت طرقُه يجمعها أمر واحد: وهو العناية بحسن الجرْس ووقع الألفاظ فى الأسماع. ومجىء هذا النوع فى الشعر يزيد من موسيقاه؛ وذلك لأن الأصوات التى تتكرر فى حشو البيت مضافة إلى ما يتكرر فى القافية، تجعل البيت أشبه بفاصله موسيقية متعددة النغم مختلفة الألوان..." (١٥٧).

هذا، ومن أبرز ما يتسم به شعر عمرو بن العاص فى وقعة صفّين؛ هو العناية الفائقة بالإيقاع وبخاصة التكرار والمقابلة، وإن لم يخل شعره من وسائل غيرهما كالتجنيس والتصريع، وإن وردا قليلا. ولا غرابة فى عنايته بالجرس؛ فنظم ينشد معظمه مع زحف الجيوش، أو وقت التحام الصفوف؛ أو شعر يقال فى أوقات المسامحة (الهدنة) ـ وهى قليلة ولعلها تكون زهاء الليل ـ والمقاتلون لما يلتقطوا أنفاسهم بعد، بل ربما يَهُولُهم حين عودتهم مَنْ استشهد منهم فى أرض المعركة، أو مَنْ عاد مثخنا بجراحه، أو مَنْ أُسِر منهم، وغير ذلك مما يشغل بالهم، ويضعف من تركيزهم، ويمزّق نفوسهم ـ شعر يُقال فى هذا المناخ الصاخب ينبغى أن يتوفر فيه الإيقاع القوىُّ الذى يسيطر على متلقيه، ويخلعهم من واقعهم، ويجذب انتباههم؛ ليصل فحواه إلى نفوسهم.

---

(١٥٧) السابق / ٤٦.

ولربما يكون لقصر قامة عمرو حظٌّ في حبه للجلبة، وذنوبٌ في ارتياحه إلى ارتفاع صوته، واستكانته إلى جذب الأنظار إليه، والتفاف الناس حوله، تعويضا لنفسه، وتثبيتًا لذاته، على ما عودتنا الحياةُ من أمثاله.

وقبل النظر في شعر عمرو هذه الزاوية يطيب لى أن أعود إلى د/عبد الله الطيب مرة أخرى لأقف على أركان الرنين في القصيدة العربية، كما قرّرَها في قوله[١٥٨]:

"ولما كان الانسجام كله، مداره على التنويع والتكرار؛ فمظاهر التكرار لا تتعدّى التكرار المحض والجناس، ومظاهر التنويع لا تتعدّى الطباق والتقسيم؛ فهذه الأصناف الأربعة التى يقوم عليها رنين البيت بعد الوزن والقافية".

ثم يخص التكرار بحديث طويل[١٥٩]، مبنيا أنواعه في قوله:

"ويمكننا أن نحصر التكرار الذى يحدثه الشعراء في ألفاظ أشعارهم في الأنواع التالية، مع التذكر بأن عنصر الخطابة يشتملها جميعا، ولا يكاد يخلو واحدٌ منها من تأثيره ولونه:

١- التكرار المراد به تقوية النغم: "ويقصد به إعادة الأبيات كاملة، أو جزء منها، وردّ العجز على الصدر".

٢- التكرار المراد به تقوية المعانى الصّوريّة: "وأكثر ما يجىء في النّسيب والحنين... كتكرار أسماء المواضع في النسيب".

٣- التكرار المراد به تقوية المعانى التفصيلية..." "وهو ملفوظ كأن يكرر الشاعر كلمة بعينها، أو ملحوظ بأن يكرر ألفاظًا مترادفة أو متشابهة". ولسنا بصدد دراسة هذه الأنواع - مع سلامتها ودقتها - ولكن الذى يعنينا هو ما انتهى إليه، في قوله:

---

(١٥٨) المرشد : ٤٩٤/٢.

(١٥٩) انظر في (المرشد من ص / ٤٧٥ : ٥٧٠).

"ولا ينبغى أن ننسى أن كل تكرار مهما يكن نوعه؛ تُستفاد منه زيادة النغم وتقوية الجرس، وتسميتنا لنوعٍ واحد منه، ترنّميًا؛ إنما هى من أجل توضيح طبيعته وتبيينها، وتذكير القارىء بأن ناحية النغم أظهر فى هذا النوع من النواحى الأخرى".

هذا، ونظرا لتداخل أنواع التكرار - صوتًا كان، أو كلمةً، أو جملةً - فى كثير من النصوص الشعرية الخاصة بعمرو بن العاص، فى موضوعنا - فإننا نؤثر - فى مجال التطبيق - النظر إلى هذه الوسيلة الفنية نظرة شاملة فى كل ما نقدمه من شواهد، تخلصًا من إعادتها وتكرار توظيفها.

وفى البداية يُمكن أن أقرر فى طمأنينة - يَدْعمها ما يرد من شواهد - أن تكرار حروف المدّ، وكثرة الحروف المشدّدة والمُسَكَّنة - أى المشكّلة بالسكون - تعدّ ظاهرة فى شعر عمرو. ولكلٍ منها إيحاؤه الفنّى على ما سنوضح فى الأمثلة الآتية:

نلتقى بأول نصٍ - فى مرحلة القلق والحيرة، أو ما أطلقنا عليها (مرحلة التفاوض...) - وهو قوله:

تطاوَلَ ليلى للهموم الطّوارِقِ ... وخَوْلَ التى تَجْلو وُجوهَ العَواتِقِ

وإنّ ابنَ هندٍ سائلى أن أزورَه ... وتلك التى فيها بناتُ البَوائِقِ

- الذى يحمل فى مطلع القصيدة تكرار صوت اللام كثيرا، موحيا بصلصلته وجلجلته وكثافته بمدى القلق الذى اكتنف الشاعر، حتى أطال عليه ليله، وكثّف

همومه، وسلبه أمنه وسُباته. إلى جانب تكرار حروف المدّ وكثرتها ـ في هذا البيت ـ، التي يرسم آماد ما يلمّ بالشاعر من ضيق وتحدّد أبعاد ما ألمّ به قلق.

أما البيت الثاني فيؤكد لنا بما فيه من تكرار حروف المدّ وكثرتها آماد ضيق الشاعر، إلى جانب ما يحمله الشطر الأول منه من كثرة الأصوات المشدّدة والمسكنة، وكثرة حروف الحلق وتكرار بعضها، وما توحي به هذه الوسائل من عمق هذه الهموم الطارئة على الشاعر وقسوتها، وضراوة ما يتضمنه سؤال معاوية، وما يجرّه على عمرو من دواءٍ، لا داهية واحدة؛ كما أثبت الشطر الثاني.

ثم يوضح عمرو سبب استدعاء معاوية لزيارته بعد إبْهامها في البيت السابق، فيقول:

أتاه جريرٌ من عليٍّ بخُطّةٍ أمرّتْ عليه العيشَ، ذاتِ مضائق

فإن نال منّى ما يُؤمِّل ردَّه وإن لم ينلْه ذَلَّ ذُلَّ المُطابق

إذْ إن عليًّا ـ كرّم الله وجهه ـ بعد أن انتهى من (وقعة الجمل)؛ أرسل جرير بن عبد الله البجليّ إلى معاوية يدعوه للدخول في طاعته. ومن ثمَّ دعا معاوية عمرًا لزيارته فورًا.

أجل، إن الخطب جلل، والخطة التي جاء بها جرير ذاتُ وقعٍ خطر على معاوية؛ وحسبها ضراوةً أنها ضيقت عليه حياته، وأمرّت عليه عيشةً؛ كما أشار الشاعر في البيت الأول، الذى أدتْ فيه الموسيقى الداخلية ـ مع تعدد عناصرها ـ دورها غير منقوص في تصوير هذا الخطب وتأكيده، وتفخيم هذا الوقع وتهويله؛

حيث رسمت أصوات المدّ ـ الألف والياء، وهما من الأصوات المجهورة ـ آماد المصيبة وأبعادها وأثرها الطويل الممتد على حياة معاوية.

هذا، كما صوّرت كثرة أصوات الحلق وتكرار بعضها؛ غور هذ النازلة، وعمقها، ومدى صعوبتها.

وكذلك قامت فصيلة الحروف المسكنة المنوّنة والمشدّدة؛ ببيان شدّة هوْل هذه الخطة، وثقل وقعها على نفس معاوية.

كما أدى حرفا ـ التاء والطاء ـ وتردّدها فى البيت؛ دورهما فى بيان أثر هذه النازلة ودوّيها.

فما موقف عمرو مما أُلقى عليه، ودُعى له؟ لا ريب أن موقفه جد خطر، وأمره شاق. بيْد أنه ـ كما يوحى شعره ـ يدرك حجمه أمام هذه الطامة؛ ويعرف وزنه إزاء هذه الداهية، كما أشار فى البيت الثانى الذى يقطع فى شطره الأول بأن نجاة معاوية من هذه المعضلة منوطة بقبول عمرو دعوته والانضمام إليه سريعا. كما بين شطره الثانى أن هوان معاوية وذلّه فى حياته؛ إن نأى عمرو عنه، ولم يحقق له ما يؤمله منه.

فما دور الموسيقى الداخلية فى تصوير هذا الموقف أو ذاك؟

لا ريب ـ عندى ـ فى أن كثرة الأصوات المسكنة والمشدّدة ـ فى الشطر الأول ـ وما توحى به ـ إلى جانب تقوية النغم، وارتفاع الجرس، وجذب الانتباه ـ من قوة وشدة وإصرار، قد بعثت الأمل فى ازاحة العوائق، وانفتاح الفرجة. كما امتد طريق هذا الأمل بكثرة أصوات المدّ الواردة فى هذا الشطر أيضًا. أما تكرار صوت النون ـ هنا فقد أوحى بلين عمرو، ورمز إلى ميوله وحنينه لهذا الحل. مهما بدا مترجحا. فى موقفه كما تشير أداة الشرط (إن) فى صدر هذا الشطر.

أما الشطر الثانى فواضح فيه أن تكرار صوت اللام كثيرا، وتردّد هذا الصوت بعضه إثر بعض ـ على نحو ما ورد فى النصّ ـ بجلجلته، وصلصلته ـ وتهويله ـ وكذلك كثرة الأصوات المسكنة والمشدّدة ـ التي تتوالى بعضها إثر بعض فى تلاحق سريع ـ فى هذا الشطر؛ إضافة إلى تكرار صورة (الذال، واللام) فى الفعل ومصدره (ذَلَّ ذُلّ) ـ أن تكرار هذا كله قد أدى ـ إلى جانب تقوية النغم، وإعلاء صوت الجرس وزيادته، واقتناص انتباه المتلقى، لالَفتة فقط ـ أدّى دوره بقوة فى تصوير هذا الموقف الجلل، وبيان هوْل النازلة التى ستحدق بمعاوية من كل ناحية؛ إن تخلّى عمرو عن عونه، ولم يسرع فورًا لنجدته.

ومع هذا، فما زال عمرو متردّدًا فى موقفه؛ حائرًا فى أمره، متعجِّبًا من تأرجحه ـ مع ما عرف منه من حزم وتسليم بالقضاء ـ مستنجدًا بمن يعينه على اتخاذ قراره ليستكين قراره، وتهدأ نفسه.

وقد صوّر هذا كله فى البيت الأول من قوله:

فوالله ما أدرى وما كنتُ هكذا أكُونُ، ومهما قادنى فَهْوَ سابقى؟!

أُخادِعُـــه إن الخـــداعَ دَنيَّـــةٌ أم...

وقد أدت الموسيقى الداخلية فى البيت الأول دورها فى تقوية النغم، وإعلاء صوت الجرس، وجذب انتباه المتلقى، وتصوير هذا الموقف بكل أبعاده؛ حيث مثلث كثرة أصوات المدّ صياحه.كما أشارت إلى مدى ألمه وقلقه وحاجته إلى مغيث، ينشله مما هو فيه.

أما أصوات الحلق وكثرتها، والأصوات المسكنة والمشدّدة وترددها؛ فقد قامت بدورها في الكشف عن شدّة موقفه، وقوة اضطرابه؛ وعمق أحزانه، وغور آلامه لما يعانيه.

هذا، أما قوله:

أُخادِعُــــه إن الخــــداعَ دَنيَّـــــةٌ أم

فقد كشف لنا ما فيه من كثرة حروف الحلق وتكرارها، وكثرة الأصوات المشدّدة والمسكّنة، إلى جانب تكرار ألف المدّ فيه ـ كل ذلك قد كشف لنا مدى عمق هذه المشكلة وأغوارها، ومدى حيرة الشاعر في حلها والخروج منها. هذا بالإضافة إلى تكرار مادة (خدع) في هذا الشطر، وما أفاده هذا التكرار من تقوية النغم من جهة؛ وعدم الارتياح إلى هذا الخلق الذميم، الذى يؤكده خبر إن في نهاية هذا الشطر، كما يقرره هذا استفهام الاستنكارى في صدره، من جهة أخرى.

هذا، وبعد أن اتفق عمرو ومعاوية. وعُقد لعمرو لواء الحرب، أخذ يُهدِّد الإمام عليًّا حينما علم أنه ـ كرم الله وجهه ـ أعدّ عدّته، وطفق يشق طريقه إلى صفّين، قائلا:

لا تحسبنِّى يا علىُّ غافلاً لأُورِدَنَّ الكوفــــةَ القَنــــابلا

بجمعيَ العامَ وجمعيّ قابلا.

بما فى هذا القول من تكرار صوت اللام الذى يسهم بجلجلته وصلصلته فى التهديد والوعيد. إلى جانب كثرة أصوات المدّ التى يعدها الشاعر قذائف موجة إلى خصمه؛ ليفت فى عضده، ويعلنه بها عن مدى يقظته له، وتحرشه لقتاله؛ وكثرة الأصوات المسكنّة والمشدّدة ـ فى الشطر الأول والثانى ـ التى توحى بعمق ما يضمره من كيد لعلىّ وجنده؛ وتكرار كلمة (وجمعى) بعد (بجمعى) الذى يحمل من التهديد ما تصوره هذه الجموع التى عنى بجمعها، ولقاء الخصم بها، فى كل لقاء.

ومن التكرار قول عمرو مخاطبًا معاوية، مبررًا له ما رواهُ عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشأن عمار بن ياسر:

تُعاتبُنى أنْ قلتُ شيئًا سمعتُه ... وقد قلتَ لو أنصفْتنِى مثلَه قبلِى؟!

أنَعْلُكَ فيما قلتَ نعلٌ ثبيتَةٌ ... وتزلَقُ بى فى مثل ما قُلتَه نَعْلى؟!

فبالإضافة إلى تكرار (قلت) أربع مرات فى البيتين، وتكرار (نَعْل) ثلاث مرات فى البيت الأخير، وما فى كل منهما ما يقوى الجرس، ويزيد فى النغم، ويكثف المشكلة ويؤكدها ـ نجد كثرة أصوات الحلق؛ وكثرة الأصوات المسكنة والمنونة؛ وما توحى به هذه وتلك من ثقل حجم القضية وقَسْوتها على نفس عمرو، وشدّة ألمه وضيقه بها. وليس هذا فحسب بل نجد كثرة تكرار صوت القاف ـ وهو من أصوات أقصى الحنك، وهو صوت شديد مجهور"(١٦٠) ـ فى البيتين، وحسبه

(١٦٠) (الأصوات اللغوية؛ د/إبراهيم أنيس ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ الطبعة السادسة ١٩٨١م) ص٨٣ ـ ٨٦.

أنه من حروف (القلقة)؛ ليكشف لنا أعماق الشاعر، ويوقفنا عما فيه من قلق واضطراب. أضف إلى هذه الوسائل السابقة تكرار صوت (التاء) في البيتين - "وهو صوت شديد مهموس"[١٦١]. وما يوحي به من (تهتهة)، وثقل في النطق ردّ فعل لهذا الاتهام الموجّه إليه من معاوية - وكذا تكرار صوت النون - مضافا إليها الكلمات المنونة - في البيتين "وهو صوت مجهور متوسط بين الشدّة والرّخاوة"[١٦٢]، وما يوحي به في هذا السياق من حزن وأنين لما حلّ بين الشاعر ومعاوية.

أما الجناس - مع أنه ضرب من التكرار، والأثر الفنيّ لهما واحدٌ، وهو زيادة النغم وتقوية الجرس، وما يؤديه هذا وتلك من تشرّب المعنى وتأكيده - فمن شواهده، - قوله :

يُذكِّرني الوليدُ دُعا عليٍّ   وبطنُ المرءِ يملؤُه الوعيدُ

- منه :

لقيتُ ولستُ أجهلُهُ عليًّا   وقد بُلَّتْ من العَلَق والكُبودُ

(فأطعنُه ، ويَقْطَعَنُني خِلاسًا)   وماذا بعد طعنته أُريدُ؟!

(١٦١) السابق / ٦١ . والمعجم الوسيط / شدّ.

(١٦٢) السابق / ٦٦.

واللافت للنظر فى شعر عمرو كثرة هذا النوع الوارد فى البيت الأخير، وهو الذى يطلق عليه (جناس الاشتقاق)، ومنه قوله من قصيدة ـ وقد سبق ـ يقصد معاوية:

فإن نال منّى ما يُؤمِّل ردَّه   وإن لم ينلْه ذَلَّ ذُلَّ المُطابق

ـ وقوله فى القصيدة نفسها:

وقد قال عبدُ الله قولاً تعلَّقتْ   به النَّفسُ إن لم يَعْتَلِقْنى عوائقى

ـ وقوله من قصيدته بعد غلبة أهل العراق على الماء، مخاطبا معاوية شامتا بهزيمته لعدم أخذه بنصيحته:

(أمرتُكَ أمرًا فسخّفْتَه).

(فأغمضتَ فى الرأى إغماضةً).

فكيف رأيتَ كباشَ العراقِ   ألم يَنْطحُوا جمْعنا نطْحَهْ

ـ وقوله فى أرجوزته محرّضا جنده:

(قوموا قيامًا واستعينوا الرحمنْ)

- وقوله

لا تأمننَّا بعدَها أبا حسنْ إنا نُمِرُّ الحربَ إمْرارَ الرَّسَنْ

لتُصْبحُنَّ مثلَها أُمَّ لُبَنْ طاحِنةً تدُقُّكم دَقَّ الحُفَنْ.

- وقوله في صدر مقطعة:

(خَدعتُ أبا موسى خَديعةَ شَيْظِمٍ)

وقوله مهنئًا معاوية بالخلافة:

أَتتْكَ الخلافةُ مَزْفوفَةً هنيئًا مريئًا يُقرُّ العُيونا

تُزَفُّ إليك كزَفِّ العروسِ بأهونَ من طعنك الدّار عينا

ومن شواهد الجناس كذلك - غير جناس الاشتقاق - قول عمرو في لقاء هاشم المرقال مرتجزا:

لا عيشَ إن لم أَلْقَ يومًا هاشما ذاك الذى أجْشَمني المجَاشما

وقوله مهدّدًا الأشتر النخعيّ (مجانسًا بين الحارث - و - الوارث)؛ وبين (الناكث - ماكث):

وَيْحــك يــا ابــنَ الحــارثْ أنــــت الكـــــذوبُ الحانــــــثْ

أنـــت الغريـــرُ الناكِـــثْ أعِــــــدَّ مـــــالَ الـــــوارثْ

====

وفى القبور ماكِثْ.

===

إلى غير ذلك من شواهد الجناس وهى كثيرة.

هذا، والتصريع ضرب من الإيقاع، يجذب الانتباه إلى ما يعرضه الشاعر، ويدفع المتلقى إلى متابعته، وهو دليل على قوة الطبع والتمكن من المادة. ولكن نظرًا لظروف عمرو وما تمليه عليه من سرعة فى النظم؛ جاء هذا اللون قليلا فى شعره ـ خلا رجزه ـ يوم صفّين، ومنه قوله فى مطلع قصيدته:

تطاوَلَ ليلى للهموم الطّوارِق وخَوْلَ التى تَجْلو وُجوهَ العَواتِق

وقوله فى صدر قصيدته إلى عبد الله بن عباس:

طال البلاءُ وما يُرجى له آسِى يعد الإله سوى رِفْقِ ابنِ عباس

وقوله فى صدر مقطعته مخاطبا معاوية:

مُعاوىَ إن نكلت عن البِراز لك الويلاتُ فانظرْ فى المخازى

أما المقابلة[١٦٣] فهى الوسيلة الفنية التى تلى التكرار كثرةً فى شعر عمرو يوم صفّين. ونحن فى عرض شواهدنا لهذا الفن لن ننظر إلى ما رآه النقاد من فرق بين المطابقة والمقابلة؛ ولكن ستنصبّ رؤيتنا على علاقة التضاد فقط؛ سواء أكان هذا التضاد بين المفردات أم بين المركبات (الجمل)؛ من كل ما يسهم فى تقوية الجرس، ويحقق انسجامًا بين الألفاظ والمعانى، وما يقوّى فى النهاية هذه المعانى التى أراد الشاعر التعبير عنها ـ فى تجاريبه ـ ويؤكدها؛ فالضدّ يُظهر حسنَه الضدُّ، كما تتميز الأشياءُ بضدّها كما يقولون.

ونظرا لكثرة شواهد هذا الفن فى شعر عمرو بن العاص؛ سنكتفى بإيراد بعضٍ منها على سبيل المثال لا الحصر.

من هذه الشواهد قوله ـ فى بدء حيرته بين مبايعة معاوية أو الابتعاد عنه ـ وقد أدت المقابلة فيهِ دورها فى الكشف عما تضطرم به نفسه، وما يموج فى خلده فى دقة ووضوح ـ قوله يقصد معاوية:

فإن نال منّى ما يُؤمِّل ردَّه.   وإن لم ينلْه ذَلَّ ذلَّ المُطابق

فوالله ما أدرى ، وما كنت هكذا   أكُونُ ، ومهما قادنى فَهْوَ سابقى.

أُخادعُه إن الخداعَ دَنيَّةٌ   أم اعطيه من نفسى نصيحةَ وامق؟!

---

(١٦٣) انظر فى هذا الفن: مفهومه، وقيمته، وأنواعه، وآراء القدماء والمحدثين فيه (المرشد: ٦٦٤/٢: ٦٩٥).

وقد قال عبدُ الله قولاً تعلَّقتْ   بـه النَّفسُ إن لم يَعْتَلِقْنى عوائقى
وخالفه فيه أخوه محمدٌ   وإنّى لصُلب العُود عند الحقائق.

- وقوله من قصيدة أخرى فى هذه المرحلة (مرحلة التفاوض بين معاوية وعمرو) :

لما تعرّضَتِ الدنيا عرضْتُ لها   بحرص نفسى/ وفى الأطباعِ إدهانُ
نفسٌ تَعُفُّ / وأخرى الحرصُ يَغْلبُها   والمرءُ يأكل تبْنًا وهْوَ غرْثان
أما علىٌّ فَدينٌ ليس يَشْرَكُه   دُنيا، / وذاك له دُنيا وسُلطان

- وقوله وقد أوشكت هذه المرحلة على النهاية، ولم يبق إلا اتخاذ القرار الحاسم؛ ومن ثمّ ارتفعت النبّرة، وعلت اللهجة، وحُدّدت المعالم بين الشىء وضدّه؛ ليتم الاختيار عَنْ بينة؛ مما يوفر الكرامة والعزة لعمرو، على ما يقرره البيت الأخير فى هذا الشاهد - :

مُعاوِىَ لا أُعطيك دِينى ولم أَنَلْ   بذلك دُنيا، فانظُرَنْ كيف تصنعُ؟

...

وأُعطيك أمرًا فيه للمُلك قوّةٌ   وإنىّ به إن زلّت النّعلُ أضْرع

وتمنعنى مصرًا وليست برغبةٍ   وإنى بذا الممنوعِ قِدْمًا لُمولع.

- وقوله مُخاطبا معاويةَ معاتبا إياه لعدم الأخذ بنصيحته بعد أن غلب أهل العراق على ماء الفرات، موبّخًا إياه، موضحًا له البون الشاسع بين مَنْ محّض له النصيحة ومن خَلط فيها؛ بهذا التضاد الوارد بين الشطرين فى هذا البيت - :

أمرتُكَ أمرًا فسخّفْتَه   وخالفنى ابنُ أبى سْرحَهْ.

وقوله ساخرًا من معاوية لنكاله عن براز على - بهذا التضاد الذى يقطر تهكما وازدراءً به، فضلا عن تقويته النغم، وإثارته الانتباه إلى ما نيط بمعاوية من خزى وعار:

أضَبْعٌ فى العجاجة يا ابن هندٍ   وعند الباه كالتّيْس الحجازى؟!

- وقوله من قصيدة معرِّضا بمعاوية للسبب نفسه المشار إليه فى الشاهد السابق؛ موظفا المقابلة بين الموقفين؛ موقف الإمام علىٍّ، وموقف معاوية؛ فى تأكيد

صفتى الخور والجبن لمعاوية، فضلا عن تقوية النغم وإثارة المتلقى لمشاهدتهما، والسخرية بمن تخلّق بهما:

فإنك لولاقيته كنت بُومةً أُتيح لها صَقْرٌ من الجوّ آنِس

دعاك فصُمَّتْ دونه الأُذْنُ هاربًا بنفسك قد ضاقت عليك الأمالِسُ

ـ وقوله من قصيدته إلى ابن عباس ـ محاولا بتوظيفه فنية المقابلة الواردة هنا أن يسلب من النفوس ضغائنها، وأن يُهيِّئ العقول للتفكير البناء الذى يرى فى السلم مئونته، وفى جمع الشمل شموخه ـ:

قُولا له قولَ مَنْ يَرضى بحظْوَته لا تنسى حَظَّك إن الخاسرَ النّاسى

لو قِيس بينهمُ فى العُرب لاعتدلوا العُجْزُ بالعُجز/ ثم الرّاسُ بالرّاس

يقصد أهل العراق وأهل الشام:

ثم يقول فى نهاية القصيدة مجلِّيًا أثر السّلم حاضًّا عليها؛ مبرزًا أثر الحرب مُنَفِّرًا منها:

فيها التُّقى وأمورٌ ليس يجهلُها إلا الجهولُ وما النَّوْكى كأكياس.

وقوله معرِّضا بمعاوية:

تسيرُ إلى ابْن ذى يَزنٍ سعيدٍ وتتركُ فى العَجاجة مَنْ دعاكا

فهل لك فى أبى حسنٍ علىٍّ لعل الله يمكن من قفاكا؟!

دعاك إلى النزال فلم تُجبْه ولو نازلته تَرِبتْ يداكا

وكنت أصمَّ ، إذ ناداك، عنها وكان سكوتُه عنها مُناكا

فآب الكبشُ قد طحنَتْ رحاه بنجْدَتِه ولم تَطْحَن رَحاكا.

وقد أذى التّضاد بين ما تحته خط فى البيت الواحد - وما تحته خطين فى البيت الأول والثانى ، دورًا فنيًا مزدوجًا؛ فهو إلى جانب إسهامه فى زيادة النغم، وتقوية الجرس وإثارة انتباه المتلقى؛ يؤكد فى نفسه معنى ضآلة معاوية وخوره وخزيه، قياسًا إلى الإمام علىٍّ بشجاعته وإقدامه ونجدته.

- ومن الأمثلة كذلك قوله فى مقطعته التى يفخر فيها بخداعه أبا موسى الأشعرى فى قضيته التحكم:

فطاوَعَنى حتى خلعتُ أخاهمُ وصار أخونا مستقيمًا لدى القبْض.

راسمًا بهذا التضاد هذه الصورة المخزية التى أدت إلى تغيير وجه التاريخ "ولله الأمر من قبل ومن بعد".

ثالثا: (الصورة الفنّية فى شعر عمرو بن العاص يوم صفّين)

١ـ مفهوم الصورة ومنـزلتها الفنية:

يختلف مفهوم الصورة حسب نوعها؛ فمنها ـ على ما ورد فى معجم المصطلحات[١٦٤] ـ الصورة البلاغية، والصورة البيانية، وصورة التراكيب؛ والصورة الذهنية والصورة الرمزية، والصورة المعنوية، وغيرها.

أما الصورة البلاغية: أو الصيّغة البلاغية على حدّ تعبير المعجم ـ فيُراد بها كل المعانى التى تحتو بها البلاغة العربية، تحت علومها الثلاثة: المعانى والبيان والبديع.

أما صورة التركيب: فقد قُصد بها "الوسائل التى تؤثر فى الترتيب الطبيعىّ للجملة لغرض بلاغىّ، مثال ذلك: تقديم المسند أو تأخيره أو حذفه فى علم المعانى".

ومع تسليمنا بصحة هذا كله، وأصالته فى نقدنا القديم؛ حيث أشار الجاحظ[١٦٥] من قبل فى حديثه عن (المعنى واللفظ): إلى أن "الشأن فى إقامة الوزن، وتخيرّ اللفظ؛ وسهولة المخرج، وكثرة الماء؛ وفى صحة الطبع؛ وجودة السّبْك، فإن الشعر صناعة، وضربٌ من النّسْج، وجنسٌ من التصوير" ـ مع تسليمنا

(١٦٤) (معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب، مجدى وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٤م، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨.

(١٦٥) فى (كتاب الحيوان للجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ـ دار الجيل بيروت سنة ١٩٨٨م) جـ٣ / ١٣١ ـ ١٣٢.

بهذا أذكّر أن خُطّنا في بحثنا اقتضت تناول كثير مما يندرج تحت (علم المعانى) فى البلاغة العربية؛ تحت عنوان: (الأسلوب). وتناول كثير مما يندرج تحت (علم البديع) تحت عنوان: (الموسيقى).

أما ما يتصل بعلم البيان، أو (**الصورة البيانية**) ـ وهى: (التعبير عن المعنى المقصود بطريق التشبيه، أو المجاز، أو تجسيد المعانى" كما جاء فى المعجم المشار إليه ـ فإنه من وسائلنا فى دراستنا للصورة الفنية فى شعر عمرو بن العاص فى يوم صفين؛ إلى جانب ما تفيده (**الصورة المجازية**) التى تعنى "مجموعة الصيغ اللغوية التى تستعمل من أجل تمثيل الأشياء والأفكار المجردة تمثيلا وصفيا" بالإضافة إلى ما يتضمنه هذا المفهوم ـ فى المعجم المختص ـ من الصورة المرئية، والسمعية والحركية؛ "فالشعر كثيرا ما يشتمل على صور خيالية تخاطب العين تارة، والأذن أخرى. أما بالنسبة للأفكار المجرّدة فكثيرا ما نجد الشاعر يجسّدها على شكل استعارة أو تشبيه؛ وذلك لصبغ الفكرة بحيوية مثيرة للقارىء"[١٦٦].

وبذكر هذه الحيوية، نذكر رؤية عبد القاهر الجرجانى فى أقسام الصّنعة، وإشادته بمنزلة الصورة الاستعارية ودورها فى قوله[١٦٧]:

" وإذا تأملت أقسام الصنعة التى يكون بها الكلام فى حدِّ البلاغة، ومعها يستحق وصف البراعة، وجدتها تفتقر إلى أن تُعيرها حُلاها... فإنك لترى بها الجمادَ حيًّا ناطقًا، والأعجم فصيحا، والأجسامَ الخُرسَ مُبينةً، والمعانى الخفيةَ باديةً جَليّة. وإذا نظرت فى أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعزّ منها، ولا رونق لها ما لم تزنها، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها. وإن

(١٦٦) (معجم المصطلحات العربية / ٢٢٧.

(١٦٧) كتاب أسرار البلاغة ـ مصدر سابق ـ ص/٤١.

شئت أرتك المعانى اللطيفة التى هى من خبايا العقل كأنها جسّمت حتى رأتها العيون. وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانيةً لا تنالها إلا الظنون".

علمًا أننا لن نهمل فى دراستنا للصورة فى هذا البحث النظر إلى (الكلمة) وما توحى به دلالتها، أو (الصورة اللفظية) ورمزيّتها فى جملتها؛ "فالمهمة الأولى والأشدّ بساطة لدور الصورة الشعرية أن تجسّد ما هو تجريدىّ، وأن تعطيه شكلا حسّيا، وجانب من هذه الصور يقوم على أسس بلاغية؛ من تشبيه واستعارة؛ ومجاز، وكناية... إلا أن ذلك ليس شرطا فيها، فقد تجىء رسمًا لموقف نفسى أخاذ، فى ألفاظ ذاتِ دلالة حقيقية، لا تنطوى على أىّ من مقوّمات البلاغة التقليدية"[١٦٨].

٢ـ مصادر الصورة فى شعر عمرو بن العاص:

أشار كثير من النقاد فى العصر الحديث ـ منهم د/مصطفى ناصف[١٦٩] ـ إلى (الخيال) بصفته عنصرًا من عناصر الأدب، وكشفوا عن دوره فى تكوين الصورة الفنية.

والخيال هو: "قوة تتصرف فى المعانى لتنتج منها صورًا بديعة، وهذه القوة إنما تصوغ الصور من عناصر كانت النفس قد تلقتها عن طريق الحس أو الوجدان. فليس فى إمكانها أن تبدع شيئًا من عناصر لم يسبق للمتخيل معرفتها...

---

(١٦٨) الشعر العربى المعاصر، د/لطاهر أحمد مكى ـ دار المعارف بمصر) ص٨٣ ـ ٨٤.

(١٦٩) فى كتابه: (الصورة الأدبية ـ مكتبة مصر ـ الفجالة : ١٣٧٨ هـ م ١٩٥٨م)..

ويعتمد الخيال على قوة التذكر، وهو تداعى المعانى وخُطورُها على الذهن بسهولةٍ، فبعد أن تتراءى الصور للخيال بوسيلة التذكر، يستخلص منها ما يلائم الغرض، ويطرح ما دون ذلك. وبهذا تُفصل الخواطر عن أزمنتها، أو عما يتصل بها مما لا يتعلق به القصد من التخييل، ثم يتصرّف الخيال فى تلك العناصر بمثل التكبير أو التصغير، وتأليف بعضها إلى بعض حتى تظهر فى شكل جديد"(١٧٠).

هذا، والإنسان ابن بيئته. وقد عرفنا من قبل فى التعريف بعمرو أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - "كان يقربه لمعرفته وشجاعته". كما أن عمرًا قد حفظ عن رسول الله ألف مثل. كما عرفنا كذلك أنه كان فارسًا فى الجاهلية، يضرب فى الفيافى؛ وأنه كان تاجرا يجوب البلاد، ويتنقل من مكان إلى مكان. فما أثر ذلك فى تشكيل صوره فى شعره موضع دراستنا؟

إن من يُطالع شعر عمرو لا تخفى عنه تلك المصادر التى مَتَح منها، وصدر عنها، وأسهمت فى تشكيل صوره الفنية، ومنها:

أ - القرآن الكريم:

عرفنا فى صدر حديثنا عن الطور الثانى فى حياة عمرو (طور الإيمان...) - ما ذكر قبيصة بن جابر فى قوله مشيدا بشمائل عمرو: "صاحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين منه قرآنا..." ولا ريب أن عمرًا قد صدر عن كتاب الله فى بعض

(١٧٠) (فى النقد الأدبىّ؛ د/عبد العزيز عتيق ص/١١٧ : ١١٩ وانظر كذلك فى مفهوم الخيال، فى (معجم المصطلحات العربية - مرجع سابق - ص/١٦٣)، حيث يذكر أن الخيال هو: "القدرة التى يستطيع العقل بها أن يشكل صورًا للأشياء أو الأشخاص أو مشاهد الوجود". وهو كذلك: "قوة تحفظ ما يدركه الحِسُّ المُشترَك من صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة".

صوره الفنية فى شعره يوم صفين. من هذا الأثر: ـ قوله من قصيدة ـ مهدّدًا معاوية مستنكرًا عليه احتياله على الإمام على وخداعه ـ مشيدا بقوة الإمام وشجاعته :

وقد كشفَ القِناعَ وجرَّ حرْبًا   يَشيبُ لهولها رأسُ الوليد"

حيث صدر فى الشطر الثانى عن قوله تعالى مخاطبا المكذبين:
"فكيف تتقون إن كفرتم يومًا يجعلُ الوِلْدان شِيبا"(١٧١).

ـ وقوله من قصيدته اللامية، مخاطبا معاوية، رادًّا على عتابه له ومُؤاخذته بشأن فانبشر من حديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن عمار بن ياسر:

وما كان لى علمٌ بصفّينَ أنها   تكونُ وعمّارٌ يحثُّ على قتلى

فلو كان لى بالغيب علمٌ كتمتُها   وكابْدتُ أقوامًا مراجِلُهم تغلى

مأخوذ من قوله تعالى ـ على لسان رسوله ـ : "قل لا أقولُ لكم عندى خزائن الله، ولا أعلمُ الغيبَ، ولا أقولُ إنى مَلَك..." (١٧٢).

ـ وقوله فى نهاية هذه القصيدة مهدّدًا بترك الشام وفراق معاوية :

---

(١٧١) [سورة النمل الآية : ١٧].

(١٧٢) من الآية ٥٠ ، من سورة الأنعام.

وأتْركْ لك الشام التى ضاق رُحْبُها عليك، ولم يْهنِكْ بها العيشُ من أجلى

حيث صدر عن قول الله ـ عز وجل ـ مخاطبا المؤمنين والمجاهدين:
"لقد نصركم الله فى مواطنَ كثيرة ويوم حُنين إذْ أعجبتكم كثرتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئا، وضاقت عليكم الأرضُ بما رَحُبَتْ ثم ولَّيتم مدبرين"(١٧٣).
ـ كما صدر عن هذا النص الكريم أيضًا فى قوله معرضا بمعاوية حينما دعاه الإمام على للبراز فنكل عنه:

دعاك فصُمَّتْ دونه الأُذْنُ هاربًا بنفسك قد ضاقت عليك الأمالسُ

فالأمالس: جمعٌ مفرده (الأملس)، وهى الأرض الملساء المجدبة، أو الفلاة لا نبات فيها.
وقوله من قصيدة قصيرة متهكما بمعاوية، مشيرا إلى خوفه من براز الإمام:

فهل لك فى أبى حسنٍ علىٍّ لعل الله يمكن من قفاكا

لعل هذا القول مأخوذ من قوله سبحانه:
"وإن يُريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبلُ فأمكن منهم..." (١٧٤).

(١٧٣) الآية / ٢٥ ـ من سورة التوبة.
(١٧٤) من الآية / ٧١ ، من سورة الأنفال.

ـ وقوله من مقطعة مخاطبًا معاوية حين طلب منه (مصر طعمة) ـ والمقصود الشطر الأخير ـ:

وما الدينُ والدنيا سواءً ، وإننى　　لآخذُ ما تُعطى ورأسىَ مُقْنَّع

ولكننى أُغْضى الجُفونَ وإننى　　لأَخْدعُ نفسِى والْمُخادِعُ يُخْدَعُ

فقوله : (والمخادعُ يُخدع) صادر فيه عن قوله عز وجل:

"إن المنافقين يُخادعون اللهَ وهو خادِعُهم"(١٧٥).

إلى غير ذلك من الشواهد التى تأثر فيها بكتاب الله عز وجل.

ب : الحديث الشريف :

عرفنا فى التعريف بالشاعر بعد إسلامه أنه قد استمع إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وروى عنه ، كما روى عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ولاشك أنه قد استمد مما سمعه ورواه بعضًا مما أسهم فى تقوية بعض معانيه ، وتشكيل بعض صوره الشعرية ؛ من هذا الأثر ما جاء فى قوله مهددًا معاوية الذى نكل عن براز الإمام علىّ ، ساخرًا منه :

ولو لاقيْتَهُ شُقّتْ جيوبٌ　　عليك ولُطِّمتْ فيك الخدودُ

---

(١٧٥) من الآية / ١٤٢ ، من سورة النساء.

حيث صدر فى هذا التعبير عن قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه:

"ليس منا مَنْ لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوة الجاهلية"[(١٧٦)].

ـ وقوله يقصد معسكر العراق ومعسكر الشام:

إذا ما التقوْا يومًا تدارك بينهم   طِعانٌ وموتٌ فى المعارك أحمرُ.

مأخوذ من قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

"أسرعُ الأرض خرابا البصرةُ بالموت الأحمر، والجوع الأغبر"[(١٧٧)].

ـ ولعل فى ذكر عمرو (رفق ابن عباس) فى قوله فى صدر قصيدته إليه:

طال البلاءُ وما يُرجى له آسِى   بعد الإله سوى رِفْقِ ابنِ عباس

لعل فى ذكره هذا إلمامًا بقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعائشة ـ رضى الله عنها ـ:

"يا عائشة، إن الله يُحبُّ الرفق فى الأمر كلّه".

وفى رواية أخرى:

"يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعُنفَ والفُحْشَ"[(١٧٨)].

ـ وكذلك لعل فى ذكر عمرو (وعيّرنى) ـ يقصد الوليد بن عقبة ـ فى قوله من قصيدة:

---

(١٧٦) (صحيح البخارى ـ كتاب الجمعة ـ باب فى الجنائز...).

(١٧٧) (مجمع الأمثال ـ مصدر سابق ـ جـ٢/٣٠٣).

(١٧٨) صحيح البخارى ـ كتاب الآداب ـ باب الرفق فى الأمر كله.

وعيّرنـــى الوليــدُ لقــاءَ ليــثٍ   إذا مـــــازار هابتْـــــه الأســـــود

- إلماما بقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى قصة:
"يا أبا ذرٍّ، أعيَّرته بأمّه، إنك امرؤٌ فيك جاهليةٌ"[179].

جـ : الشعر

أشار ابن حجر[180] إلى أن عمرًا "لما أسلم كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يقرِّ به لمعرفته وشجاعته" ولا ريب أن هذه المعرفة تشمل حفظ الكثير من الأشعار فى جاهليته (فالشعر ديوان العرب)، فلا غرابة أن ينضح هذا المحفوظ على شعره، ويسهم فى تشكيل صوره الفنية، على نحو ما جاء فى قوله مخاطبا معاوية حالة التفاوض بينهما:

فإن تُعطنى مصرًا فأرْبحْ بصفقةٍ   أخــذتَ بهــا شــيخًا يَــضُرُّ وينفــعُ

فإلى جانب ما يشير نهاية الشطر الأول (فأرْبح بصفقة)، إلى مهنة عمرو تاجرًا - يشير الشطر الثانى إلى قول قيس بن الخطيم[181] - وقيل لغيره -:

---

(١٧٩) صحيح البخارى - كتاب الإيمان - باب المعاصى من أمر الجاهلية.

(١٨٠) الإصابة - مصدر سابق : ١٢٣/٧.

(١٨١) (ديوان قيس بن الخطيم - حققه د/ناصر الدين الأسد - مكتبة دار العروبة بالقاهرة - الطبعة الأولى ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م)، والشاهد بملحق الديوان ص/١٧٠.

إذا أنـت لم تنْفَـعْ فـضُرَّ فإنمـا   يُرَجَّـى الفتـى كيمـا يَـضُرَّ وينفعـا.

ـ وقوله من أرْجوزة يقصد قبيلة تميم:

أضربُها بالسيف حتـى تنصرفْ   إذا مَـشيتُ مِـشْيَةَ العَـوْدِ الـصَّلِفْ

ـ مأخوذ من الشطر الأول من قول شهل بن شيبان الزِّمانى"(١٨٢):

مَـشيْنا مِـشْيةَ اللّيْـثِ   غَـدَا ، والليـثُ غـضبانُ

ـ وقوله فى وصف معركة (عكّ وهمدان)؛ مشيرا إلى قول سعيد بن قيس مناديا:

"يآلَ همدان؛ خَدِّموا" ، وقول أبى مسروق العكىّ مناديا ـ حينما رأى سيوف آل همدان أخذت أرجل عكٍّ ـ "يالَعكّ؛ برْكًا كبرك الكمل" ـ أى الجمل. والمقصود هنا هو البيت الثانى من قول عمرو:

ولقـد قـال قائـلٌ خَـدِّموا الـسُّوْ   قَ، فخـرّت هنـاك عِـكٌّ قعـودا

كبُـرُوك الجمـال أثقلـها الحِمْـ ـ   ـلُ فمـا تـستقلُّ إلا وَئيـدا.

(١٨٢) (شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ـ نشره / أحمد أمين، عبد السلام هارون ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧) جـ: ٢٤/١.

هو مأخوذ من قول الزَّباء ابنة عمرو بن ظرب ـ ملكة الشام والجزيرة ـ في قصة طويلة ـ[183]:

ما للجمال مَشْيُها وئيَدا   أجَنْدلاً يحمِلْنَ أم حديدا؟!

ـ وقوله من قصيدة مشيدًا بفوارس قومه:

مُتسرْبلين سوابغًا عاديَّةً   أدْفوا الملوكَ بكل عَضْبٍ مقْصَلِ

و(أدفوا الملوك): أي أجهزوا عليهم واقتلوهم:

لعل عمرًا قد ألمّ معنى الشطر الثاني منه من معنى الشطر الثاني من قول بشامة ابن الغدير[184].

من عهد عادٍ كان معروفًا لنا   أسْرُ الملوك وقَتْلُها وقتالُها.

ـ هذا، ولعل في ذكره (له جأواءُ...) في قوله يقصد الإمام عليا كرّم الله وجهه:

(١٨٣) انظرها في (مروج الذهب ـ مصدر سابق ـ: ٢/ ٩٠ ـ ٩٨). وانظر كذلك (مجمع الأمثال ـ مصدر سابق ـ: ١/ ٢٣٣: ٢٣٧) في تفسير المثل العربي رقم/١٢٥٠: (خطبٌ يسيرٌ في خطب كبير).

(١٨٤) (شرح ديوان الحماسة ـ مصدر سابق ـ: ١/ ٤٢٧.

لــــه جــــأواءُ مُظلمــــةُ طحــــونٌ فوارِسُــــها تلــــهّبُ كالأســـود

إلمامًا يقول بلعاء بن قيس(١٨٥):

غــشِيتُه وَهْــو فــى جــأواءَ باسـلةٍ عَـضْبًا أصـاب سـواءَ الـرأسِ فانْقلَعـا

ـ وقوله ـ والمقصود الشطر الأول من البيت الثانى ـ من قصيدة ذاكرًا برازه عليًّا:

لقيــتُ ولــستُ أجهلــهُ عليًّــا وقــد بُلَّــتْ مــن العَلَــق الكُبــودُ

(فأطعنُــه ويَطْعَنُنــى خلاسًــا) ومــاذا بعــد طعنتِــه أُريــدُ؟!

هو صدر بيت للسّفاح التغلبىّ ضمن مقطّعةٍ فى قتل عمارة بن مالك، وتمامة(١٨٦):

(١٨٥) السابق / ٦٠.

(١٨٦) (كتاب الأنوار ومحاسن الأشعار؛ للشمشاطىّ ـ تحقيق د/السيد محمد يوسف ـ مراجعة / عبد الستار أحمد فرّاج ـ الكويت ـ سلسلة التراث العربى ـ ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م) جـ: ٢٦٢/١ : ٢٦٤.

وانظره أيضا فى شعراء تغلب فى الجاهلية؛ أخبارهم وأشعارهم، د/على أبو زيد ـ الكويت ـ السلسلة التراثية ـ الطبعة الأولى : ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) جـ: ١٧٣/٢.

فيَطْعَنُنــــى وأطْعنُــــه خِلاسًــــا كخطـــفِ الـــصقرِ أعــشاشَ القِفـــار.

ـ هذا، وفي ذكره (البطل النجيد)، فى قوله يقصد الوليد بن عقبة، مشيرا إلى طعنة على ـ كرّم الله وجهه ـ له: أى لعمرو ـ :

فرُمْها منـه يـا ابـنَ أبـى مُعِيْطٍ وأنـــتَ الفـــارسُ البطـــلُ النَّجيـــدُ

ـ إلمامٌ بقول عنترة[187]:

ومــا يــدرى جُرَيَّــةَ أنْ نَبْلــى يكـــون جَفيرَهـــا البطـــلُ النّجيـــدُ.

أما قوله فى أرجوزته مفتخرا بنفسه:

(إذا تخازرْتُ وما بى من خَزَرْ) (ثــم خَبَــأْتُ العــينَ مــن غــير عَــوَرْ)

(أُلفَيْتَنِـى أَلْـوَى بعيـدَ المُسْتَمَرْ) ذا صَـــوْلةٍ فـــى المَـــصْمَئِلاَتِ الكُبَـــرْ

وانظره كذلك تحت عنوان: (ماجمع من شعره) فى كتاب (السفاح التغلبىّ ـ .../٩٦ق.هـ = .../٥٥٥م ـ: حياته وشعره بقلم د/محمد عبد الحميد سالم ـ مكتبة الآداب بالقاهرة سنة ٢٠٠٧م) ص/٨٦.

(١٨٧) (شرح ديوان الحماسة: ١/٤٢٧).

(أحْمِلُ ما حُمِّلتُ من خيرٍ وشرْ) كالحيّـة الـصّمّاءِ فـي أصـل الـصَّخَرْ.

فقد فسَّر الميدانى[188] كلمات الشطر الثالث، فى المثل الوارد ثمة برواية: (لتجدَنَّ فلانا أَلْوَى بعيدَ المُسْتَمِرْ)، فقال: "ألوى: أى شديد الخصومة. واستمر: استحكم؛ يعنى أنه قوى فى الخصومة، لا يسأم المراس. أنشد أبو عُبيد:

وجْدَتنى أَلْـوَى بعيـدَ المُـسْتَمَرْ ... وقبلـــــــــــــــــــــه:

إذا تخازرْتُ وما بى من خَـزَرْ ثـم كـسرتُ الطَّـرفَ مـن غـير عَـوَرْ

وجْدَتنى أَلْـوَى بعيـدَ المُـسْتَمَرْ أحْمِـلُ مـا حُمِّلـتُ مـن خـيرٍ وشـرْ.

كان المفضل يذكر أن المثل للنعمان بن المنذر قاله فى خالد بن معاوية السّعدىّ، ونازعه رجل عنده، فوصفه النعمان بهذه الصفة، فذهبت مثلا".

أما قوله الذى أورده ابن عبد ربّه فى كتابه (العقد الفريد):

شُـبَّتِ الحـربُ (فأعْـدَدْتُ لهـا مُفْـرِغَ الحـاركِ مَحْبـوكَ الثَّـبَجْ)

يَـصِلُ الـشدَّ بـشدٍّ (فـإذا وَنَـتِ الخيـلُ عـن الـشدِّ مَعَـجْ)

---

(١٨٨) مجمع الأمثال: ٢/١٩٢ - ١٩٣).

فمأخوذ من قول زهير بن أبى سلمى (شعره/٢١٦):

مَـــرِجَ الـــدِّينُ (فأعْـــدَدْتُ لـــه　　مُـشْرِفَ الحـارِك، مَحْبـوكَ الثَّـبَجْ)

يَرْهَــبُ الـسَّوْطَ سـريعًا، (فـإذا　　وَنَــت الخيــلُ عــن الــشدِّ مَعَــجْ)

ء ـ الأمثال العربية:

أشاد عمرو بن العاص بنفسه حين ذكر أنه قد حفظ عن رسول الله ألف مثـل، كما روى ابن كثير(١٨٩). فإذا كان عمرو قد أسلم وعمره خمس وخمسون سنة؛ فما مقدار ما حفظ قبل إسلامه؟

إذًا لا غرابة أن ينضح هذا الكم الغفير على شعره بشكل لافت. منه ـ على سبيل المثال، لا الحصر، قوله في قصيدته مقرِّعًا معاوية الذى أراد أن يخدع الإمام عليا، ولم يأخذ بنصح عمرو له فى عدم التفكير ـ فضلاً عن المحاولة ـ فى هذا الشأن:

ألا (لله دَرُّكَ) يــا ابــنَ هنــدٍ　　ودَرُّ الآمــــرين لـــك الـــشهودِ

أتطمـعُ (لا أبالـك) فـى علـىٍّ　　وقــد قُــرِع الحديــدُ علــى الحديــد.

(١٨٩) فى (البداية والنهاية : ٢٦/٨).

فقد ضمّن الشطر الأول المثل العربيّ (لله درّه): "أى خيره وعطاؤه، وما يؤخذ منه[190]. هذا هو الأصل، ثم يقال لكل متعجب منه. وجرّ المعنى نفسه على الشطر الثانى (ودَرُّ الآمرين...).

أما الشطر الثالث فقد احتوى على المثل العربيّ (لا أبالك). يقول الميدانى فى شرح المثل: (لا أمّ لك): "قال أبو الهيثم: لا أم لك عندنا فى مذهب ليس لك أم حرّة؛ وهذا هو الشتم الصحيح؛ لأن بنى الإماء عند العرب ليسوا بمجمودين، ولا لاحقين بما يلحَق به غيرهم من أبناء الحرائر.

فأما إذا قال (لا أبالك) فلم يترك له من الشتيمة شيئا... [191]".

هذا، كما صدّر عمرو فى الشطر الرابع عن المثل العربيّ: (إن الحديدَ بالحديد يفلح)؛ "أى يستعان فى الأمر الشديد بما يشاكله ويقاربه"[192]. وفى رواية أخرى: (لاَ يُفلُّ الحديدَ إلا الحديدُ) [193].

وقد وظف عمرو هذا المثل الأخير فى قوله فى وصف المعركة بين: (عكٍّ وهمدَان)؛ مشيدا بالقوتين:

يعلـمُ اللهُ مـا رأيـتُ مـن القـوْ م ازورارًا ولا رأيـتُ صـدودا

(١٩٠) مجمع الأمثال: ١٩١/٢.

(١٩١) السابق : ٢٤٢/٢.

(١٩٢) السابق: ١١/١. ورواية المثل فى (كتاب العقد الفريد، لابن عبدربه؛ شرح و.../أحمد أمين وميليه ـ دار الكتاب العربى: ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)؛ "الحديد بالحديد يفلح".

(١٩٣) مجمع الأمثال : ٢٣٠/٢.

غيرَ ضرْبٍ فوقِ الطُّلَى وعلى الها ـمِ وقَــرْعِ الحديــد يعْلــو الحديــدا

ـ وقوله من مقطعة مشيراً إلى أهل العراق وأهل الشام:

إذا ما التقوْا يومًا تداركَ بينهم طِعــانٌ ومــوتٌ فــى المعــارك أحمــرُ.

مُضَمَّنٌ الشطر الثانى المثل العربىّ: (الموت الأحْمر)، الذى يذكر الميدانى شرحه فى قوله:

"قال أبو عُبيد: يقال ذلك فى الصبر على الأذى والمشقة والحمل على البدن... (١٩٤)".

ـ وقوله فى نهاية قصيدته مخاطبا معاوية مشيرا إلى خوره وجبنه عن براز على ـ كرّم الله وجهه ـ مشيدا بالإمام شجاعته وعدته وعزته:

أبــى اللهُ إلاّ أنــه ليــثُ غابــةٍ أبــو أشْــبُلٍ تُهــدَى إليــه الفــواسُ

فإن كنت فى شكٍّ فَـأَرْهجْ عَجاجـةً وإلاّ فتلــك التُّرّهــاتُ البســابسُ.

(١٩٤) مجمع الأمثال: ٣٠٣/٢.

حيث صدر عمرو في الشطر الأخير عن المثل العربي: (أهون من ترّهات البسابس)، ورُوى (أهْلَكُ من ترهات البَسابسُ)، "ذكر أبو عبيد أنه مثل من أمثال بني تميم،...

وذكر الأصمعيّ أن الترّهات الطرق الصغار المتشعبة من الطريق الأعظم، والبسابس: جمع بَسْبَسْ، وهو الصحراء الواسعة التى لا شىء فيها، فيقال لها بسْبَسْ وسَبْسَبْ بمعنى واحد، هذا أصل الكلمة، ثم يُقال لمن جاء بكلام مُحال: أخذ فى ترّهات البسابس، وجاء بالترهات..." (١٩٥).

هذا، وفى موطن آخر يقول الأصمعيّ:

"الترهات: الطرق الصغار غير الجادة التى تتشعب عنها: الواحدة ترَّهة، فارسى معرّب، ثم استعير فى الباطل فقيل: الترهات البسابس..." (١٩٦).

ـ ومن الشواهد قوله فى قصيدته معرّضا بمعاوية الذى لم يأخذ بنصيحته فى ترك ماء الفرات حين استولى عليه جيش الشام ـ بينه وبين جيش العراق، مشيدا بالجيش الأخير الذى غلب على هذا الماء، وتركوه منفعةً للجميع ـ يقول مخاطبا معاوية:

فكيف رأيتَ كباشَ العراقِ ... ألم يَنْطِحُوا جمْعنا نطْحَهْ؟!

أظنُّ لها اليومَ ما بعدها ... وميعادُ ما بيننا صُبْحَهْ.

---

(١٩٥) مجمع الأمثال: ٢/٣٢٦، ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(١٩٦) السابق: ١/١٦٨ (شرح المثل رقم / ٨٨٤: "جاء بالتُّرَّه".

صادرًا في الشطر الأخير عن المثل العربي: (إنّ غدا لناظره قريب). "وهذا شطر بيت لقراد بن أجدع الكلبيّ، حين قال له النعمان بن المنذر: ما أراك إلا هالكا غدًا، فقال قراد:

فإن يكُ صْدرُ هذا اليومِ وَلّى ... فإنّ غدًا لناظره قرِيب[197].

ـ وقوله معرِّضا بمعاوية حين دعاه الإمام على للبراز فنكل عنه:

دعاك إلى النـزال فلم تُجبْه ... ولو نازلتَه تَرِبتْ يداكا

حيث ضمّن الشطر الثاني المثل العربيّ: (تربت يداك)، "يقال للرجل إذ قل ماله (قد ترب)، أى افتقر حتى لصق بالتراب. وهذه كلمة جارية على ألسنة العرب، يقولونها ولا يريدون وقوع الأمر"[198].

ـ وقوله من قصيدته التى هنأ فيها معاوية بالخلافة، مشيرا إلى أبى موسى الأشعرى وموقفه منه فى جلسة (التحكيم):

وما الأشعريُّ بِصَلْد الزّناد ... ولا حاملِ الذكر فى الأشعرينا

ولكن أُتيحتْ له حَيَّةٌ ... يظلُّ الشّجاعُ لها مُستكينا

(١٩٧) انظر المثل ومناسبة البيت وقصته فى (مجمع الأمثال: ١/٧٠: ٧٢) .

(١٩٨) السابق : ١/٣٣.

حيث صدر عمرو في الشطر الأول عن المثل العربيّ: (صلدت زناده) "إذا قدح فلم يُورِ، يضرب للبخيل يُسأل فلا يعطي"[199].

كما صدر في الشطر الثالث عن المثل العربيّ: (حيّة واد)، "أي أنها حمته فلا يقربه شيء. يضرب مثلا للرجل المنيع"[200].

أما الشطر الرابع والأخير فيذكّر بالمثل العربيّ (أطرق إطراق الشجاع)، "يعني الحية. يضرب للمفكر الداهي في الأمور. قال المتلمس:

وأطرق إطراقَ الشجاعِ، ولو رأى مساغًا لنابَيْه الشُّجاعُ لَصَمّا[201]

- وقوله من قصيدته التي يحكي فيها طلب معاوية قدومه إليه، بعد أن أرسل إليه الإمام عليٌّ جرير بن عبد الله البجليّ، مطالباه إياه بالمبايعة:

أتاه جريرٌ من عليٍّ بخُطّةٍ أمَرّتْ عليه العيشَ، ذاتِ مضائق

فإن نال منّي ما يُؤمِّل ردّه وإن لم ينلْه ذلَّ ذَلَّ المُطابق

والمطابق: المُقَيّد. وفيه إلمام بالمثل العَربيّ: (أذل من حمار مقيدُ)[202]، أو (هو أذلّ من حمارٍ مُقيّد)، وهو من قول المُتلمس:

(199) انظر المثل ومناسبة البيت وقصته في (مجمع الأمثال: ١/٣٩٧).

(200) كتاب العقد: ٣/٩٣. وانظر كذلك في (لسان العرب / حيا).

(201) مجمع الأمثال: ١/٤٣١.

(202) السابق: ١/٢٨٣.

وما يُقيمُ بدار الذُّلِّ يعرفُها إلاّ الأذلاّن عَيْرُ الحيِّ والوتَدُ

هذا على الخَسف مربوطٌ برُمَّتِهِ وذا يُشَجُّ فما يَبْكى له أحَدُ[٢٠٣].

إلى غير ذلك من الشواهد التى تؤكد تأثر عمرو بن العاص بالأمثال العربية، وصدوره عنها فى شعره يوم صفين.

هـ : الطبيعة:

الطبيعة ـ ساكنة أو متحركة ـ من أهم المصادر التى أسهمت فى نسج الصورة الفنية وتشكيلها فى شعر عمرو يوم صفين. وقد عرفنا من قبل أن عمرا كان تاجرا، متنقلاً ببضاعته ـ العطر والأُدْم ـ من الجزيرة إلى الحبشة ومصر وغيرها. كما كان فارِسًا فى الجاهلية والإسلام؛ فهو ابن بيئته بكل عاداتها وتقاليدها؛ وإن تغيرت عقيدته، أو تبدلت مهامه ووظائفه. هو ابن الصحراء، خاض غمراتها، وسبر أغوارها؛ وعهد حيواناتها وطيورها وزواحفها، وحارب فى أرجائها، وأعدّ عدته وعتاده لكل نازلة فيها، وانتفع بكل وسائل الحياة النابعة منها ـ فلا غرابة أن يصدر عنها، وينسج صوره الفنية من خيوطها ومفرداتها؛ بل تزدحم مظاهرها فى شعره على نحو ما رأينا من الشواهد السابقة، ونحو ما تبقى لنا من حديث فى المحور الآتى.

(٢٠٣) مجمع الأمثال : ٣٩٣/٢.

٣ـ أنواع الصورة:

تعددت الصورة الفنية فى شعر عمرو بن العاص يوم صفّين، تعددًا ملحوظا من:

ـ صورة جزئية بأقسامها ـ تشبيه، واستعارة؛ وكناية، ومجاز مع قلتها، وإن كان أكثر هذه الأقسام توظيفا التشبيه الذى "يزيد المعنى وضوحًا، ويكسبه تأكيدا"(٢٠٤)، والكناية التى تصور المعنى مشفوعا بلازمه ودليله.

ـ صورة كلية التى تتضمن ـ إلى جانب ـ الصور الجزئية؛ عناصر الحركة، والصوت، واللون، وماشاكلها.

ـ صورة رمزية؛ وأعنى بها ـ هنا ـ كل ما توحى به (الموسيقى) وبخاصة الداخلية من : ـ تكرار ـ مقابلة ـ تجنيس، تصريع، أصوات حلقية، أصوات ممدودة، أصوات مشدّدة ومُنَوَّنة ومسكّنة وما إليها ـ توحى به من معنى، وما يُضفيه هذا المعنى من قيمة فنية فى تصوير الفكرة العامة فى النص؛ من عمق، وطول، وارتفاع على ما ذكرنا فى تحليل بعد نماذجها.

ـ صورة لفظية وما توحى به من دلالة على ما قدمنا فى بيان مفهوم الصورة.

على أننا فى عرض الشواهد لن نقف عند كل نوع من هذه الأنواع على حدة؛ نظرًا لتداخل الصورة فى المقطعة أو القصيدة ـ بل فى البيت الواحد من جهة؛ وحتى لا نتعرض لتكرار الشواهد وسلخها من سياقها داخل الصورة العامة للتجربة ـ مقطعة كانت، أو قصيدة ـ من جهة أخرى.

بل سنكتفى بتحليل نموذجين فقط تخلّصا من التكرار. "ولات حين مناص".

(٢٠٤) (كتاب الصناعتين ـ مصدر سابق ـ / ٢٤٩).

<u>النّموذج الأول</u> هو: قصيدته السينّية التى يقول فيها:

١ـ مُعاوِىَ لا تشمتْ بفارس بُهْمَةٍ لَقِــى فارسًــا لا تَعْتريــه الفــوارسُ

٢ـ مُعاوِىَ إن أبصرتَ فِى الخيل مُقْبلاً أبــا حــسنٍ يهــوِى دَهَتْــك الوســاوِسُ

٣ـ وأيقنــتَ أنّ المــوتَ حــقٌّ وأنــه لنفسك إن لم تمْضِ فى الرّكْض حـابسُ

٤ـ فإنـك لولاقيتـه كنـت بُومـةً أُتـيح لهــا صَـقْرٌ مِـن الجـوّ آنِـس

٥ـ وماذا بقاءُ القومِ بعـد اختباطـه وإنّ امـرأً يلقــى عليًّــا لآيــسُ؟!

٦ـ دعاك فصُمَّتْ دونـه الأُذْنُ هاربًـا بنفـسك قـد ضـاقت عليـك الأمـالِسُ

٧ـ وأيقنتَ أن الموتَ أقـربُ موْعـدٍ وأن التـى نـاداك فيهـا الـدَّهارِسُ

٨ـ وتشمْتَ بى أن نالنى حَدُّ رُمحِـه وعَضّـضنى نـابٌ مـن الحـرب نـاهِسُ

٩ـ أبـى اللهُ إلاّ أنـه ليـثُ غابـةٍ أبـو أشْـبُلٍ تُهـدَى إليـه الفـوارسُ

١٠ـ وأنى امرؤٌ باق فلم يُلفَ شِلْوُه بمْعــتركٍ تَــسْفِى عليــه الــروامِسُ

١١ـ فإن كنت فى شكٍّ فَأَرْهجْ عَجاجـةً وإلاّ فتلـــك التُّرّهـــاتُ البـــسابسُ.

هـذا، ولبيـان مناسـبة هـذه القـصيدة، وتحديـد نـوع العاطفـة التـى أفرزتهـا وسيطرت عليها؛ نذكّر بما يأتي:

أـ عرفنا من قبل[٢٠٥] أن الإمام عليا ـ كرّم الله وجهه ـ قد دعا معاوية للـبراز، فنكل عنه؛ ورأى عمرو فى ذلك سُبَّةً لمعاوية ولعقبه مـا بقـى عربـى؛ ممـا أغـضب معاوية، متهمًا عمرًا برغبة التخلص منه، لتخلص له الخلافة من بعده.

ب ـ فى واحدة من المعارك بين الفريقين يعترض الإمـام علـىّ عمـرًا ـ دون أن يعرفه الأخير ـ ويطعنه، فيصرعه، فيتّقيه عمـرو بكـشف عورتـه، فيـصرف الإمـام وجهه عنه ـ مما أثار شماتة معاوية، قائلا[٢٠٦] ـ ضمن ما قاله:

ألا لله مـــن هفـــوات عمـــرٍو يُعـــاتبنى علـــى تركـــى بـــرازى

فقـــد لاقـــى أبـــا حـــسنٍ عليًّـــا فـــآب الـــوائلىُّ مـــآبَ خـــازِى

فلـــو لم يُبْـــدِ عورتَـــه لَلاقـــى بـــه ليثًـــا يُـــذلِّلُ كـــلَّ نـــازى

---

(٢٠٥) انظر ما كتب تحت عنوان: (دعاء على معاوية إلى البراز) فى الدراسة الموضوعية .

(٢٠٦) انظر ما كتب تحت عنوان: (مبارزة عمرو وعليا وسلاح وقايته من طعنته) فى الدراسة الموضوعية.

فـــإن تكـــنِ المنايـــا أخطأتْـــه   فقـــد غَنَّـــى بهـــا أهـــلُ الحجـــاز.

فغضب عمرو غضبًا شديدًا، وردَ عليه بهذه القصيدة التى بين أيدينا؛ معبّرًا عما فى نفسه من ضيق. ولكن إذا كانت عاطفة عمرو هنا تنطوى على كراهية معاوية وبغضه الشديدين؛ فهى تنطوى أيضا على التقدير والإجلال للإمام علىّ؛ إذْ "لم يكن أحدٌ من قريشٍ أشدَّ تنظيمًا لعلىّ من عمرو، منذ لقيه وصفح عنه" كما قال نصر بن مزاحم(٢٠٧).

ولا غرابة "فقد تنطوى العاطفة المفردة على انفعالين متضادين كالحبّ والكراهية"(٢٠٨).

وها هى تلك عاطفة الكراهية والبغض تبلغ أوجها، وتعلن عن نفسها من بدء القصيدة توّا؛ وذلك بنداء معاوية **نداء ترخيم (معاوِىَ)** للازدراء والتحقير؛ وبحذف أداة ندائه ـ هذا الحذف الذى يوحى بشدة ضيقه من المنادَى وتبّرمه من صُنعه؛ وكذلك فى النّهْى الصارم الرافض (لا تَشمت).

ولم يقف التعبير عن قوة انفعال عمرو، وشدّة غضبه؛ وارتفاع حِدَّة ضيقه؛ عند حدّ استعمال تقنية نداء الترخيم، وحذف أداة النداء، والنهى، بل تداعى معها كثير من الوسائل الفنية الأخرى الواضحة فى: كثرة الأصوات المدودة؛ وكثر الأصوات المشدّدة والمنونة، والمسكنة، والحلقية، وورود صوت (التاء) ست مرات (تشمت ـ بُهمةٍ ـ تعتريه)، وكذا تكرار (بفارس ـ فارسًا ـ الفوارسُ) وكل هذه

(٢٠٧) (وقعة صفين /٤٧١).

(٢٠٨) (المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية؛ د/ثروت عكاشة ـ طبع الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان) ص٤٢٣.

التقنيات أسهمت فى تقوية النغم، وزيادة الجرس وارتفاعه، وجذب انبتاه المتلقى، ليشركَ الشاعرَ فى موقفه، ويشهدَ ما هو فيه من عمق الألم؛ وشدّة الضيق، وأبعاد وقعه على نفسه؛ ويشاهدَ معه خزىَ معاوية وازوراره عن الجادّة، وامتطاءه متن الخطل والخطر.

هذا، بل تلعب الكلمة والجملة دورهما فى تصوير تلك العاطفة بنوعيها ـ كراهية وحبًّا ـ فها هوذا التركيب الإضافى فى قوله: (بفارس بُهْمَة)، وكذا تشكيل النعت فى قوله: (لقى فارسا لا تعتريه الفوارس) وردا مُعَلِّلَيْنِ للنهى، مُبرِّرَيْن تلك اللهجة العنيفة الرافضة؛ مُسْهميْن فى ردّ كيد معاوية فى نحره، فعمرو ليس فارسا عاديا، بل هو (فارس بُهمة) ـ فارسٌ صُلبٌ، معضَلٌ، خبيرٌ "شجاعٌ يستبهم على قِرْنه وجْهُ غلبته". والإمام كذلك ليس فارسا ككل الفرسان بل هو نسيج وحده؛ وقد أكد هذا التعبيرُ بالنكرة فى قوله (لقى فارسا) التى تفيد التعظيم من شأنه؛ والتهويل من أبعاد فروسيته. كما جاء النعت جملة فعلية مضارعية (...فارسا لا تعتريه الفوارس)؛ ليشيد بما يتصف به الإمام علىّ، وليفيد تجدد هذه الصفة ودوامها له كرّم الله وجهه ـ وليبعث كل هذا أمام المتلقى ليشاهده بنفسه، وليعلم أن عليًّا (لا يعتريه)، ولا يلم به فارس واحد، بل (لا يعتريه الفوارس) ـ بصيغة منتهى الجموع ـ مهما أحاطوا به، واجتمعوا حوله، وتكأكأوا عليه. وعلى هذا فقد جاء الشطر الثانى بما يحمله من عظمة وتقدير للإمام كناية عن شجاعة عمرو؛ ودليلاً على كونه (فارس بهمة).

هذا، ومازالت عاطفة البغض والكراهية لدى عمرو لمعاوية، وتحدّيه العنيف له، وتهكمه الشديد به، وتسجيل الجبن والخور عليه؛ وكذا عاطفة الإكبار

والإجلال للإمام علي ـ مازالتا تعملان عملهما، وتصبغان التعبير بصبغتهما ، حيث نرى في البيت الثاني:

مُعاوِيَ إن أبصرتَ فِي الخيل مُقْبِلاً أبـا حـسنٍ يهـوِي دَهَتْـك الوسـاوِسُ

حيث نرى تقنية نداء الترخيم وحذف حرف النداء في قوله (معاوِيَ)؛ وأيضًا التعبير بأسلوب الشرط الذي يثير انتباه المتلقيّ، ويدفعه إلى إدراك جوابه الساحر المهين (دهتك الوساوس) ــ وأصبت بداهية كبرى اختل معها عقلك، واختلط بسببها كلامك ـ هذا الجواب الذي جاء في إطار جملة فعلية ماضوية، لتقرير مضمونها، وتأكيد ما ينتاب معاوية. وكذلك نرى جملة الحال (يهوى) بصورتها الفعلية المضارعية ـ التي تفيد التجدد والحدوث وبعث الصورة أمام المتلقي ـ وكأن هذا هو شأن الإمام عليٍّ دائما إلى جانب إيثار الشاعر هذه الصورة (يهوى) ــ بدلا من (يهجم) مثلا ـ الذي يوحي ـ مع عنصر السرعة والمضيّ ـ بعلوّ قدر الإمام وسموّه، وكأنه عُقاب يهوى ـ "من هوى هُويًّا، بضم الهاء والواو، وهَويانا: سقط من عُلوٍّ إلى سُفْل" ـ يهوى على فريسته وينقضُّ عليها.

ولا يخفى هنا توظيف الشاعر تقنية الحذف ــ للعلم بالمحذوف وتعدده والتهويل من شأنه في الشطر الثاني؛ إذ التقدير: "يهوى نحوَك دهتك الوساوس) أو (يهوى عليك...) ثم لا ينبغي إغفال الإشارة إلى ما في البيت من كثرة الأصوات المسكنة. وما تفيده من شدّة ضيق الشاعر على مخاطبه، وإصراره على إهانته وكيده؛ وكذلك ما فيه من كثرة أصوات الحلق ـ التي توحي بعمق كراهية عمرو لمعاوية، وغوْر تبرّمه من موقفه ـ وبخاصة ما يفيده تكرار صوت الهاء في قوله:

(يهْوى دهَتْك الوساوس) ـ إلى جانب تقوية النغم وارتفاع الجرس تنبيها وتهويلا من شأن هذه الداهية التى تحل بمعاوية (إن أبصر أبا حسن مقبلا فى خيله) ـ ما تفيده من هوّل المفاجأة، وسرعة نزولها وشدّة وقعها؛ هذا الوقع الذى اضطربت معه نفْسُه، وانتفض له صدره، وفغر منه فاهه ـ فمه ـ ناطقًا باندفاع وعجلة صوت (هَـ هْـ) شأن المُفاجأ بأمر مفزع، وأىّ فزع أقوى ممن دهته (الوساوس)، لا وسواس واحد؟!

هذا، ولم يقف جواب الشرط فى البيت السابق عند قوله (دهتك الوساوس) فى إطاره الماضوىّ فحسب، بل عطف الشاعر عليه ما ألقته إليه عاطفة الحنق والغيظ والكيد لمعاوية ـ تصويرا لجبنه وخوره ومهانته ـ وعاطفة الإكبار والإجلال للإمام علىّ؛ إشادة بفروسيته وشجاعته ـ كما يشير البيت الثالث:

وأيقنتَ أنّ الموتَ حقٌّ وأنه ... لنفسك إن لم تمضِ فى الرّكْض حابسُ

الذى يسهم بتشكيله وما يحتويه من موسيقى داخلية مُتمثلة فى كثرة الأصوات المشدّدة والمنونة والمسكنة، والحلقية ـ يسهم فى الكشف عن ضراوة عاطفة الغضب لدى الشاعر على معاوية، واستهانته به.

هذا، كما أكدّ عمرو بعطفه جملة ماضوية (وأيقنت أنّ...) على مثلها (دهتك الوساوس) ـ على وقوع هاتين النتيجتين اللتين حدثنا عنهما، مقررًا ـ من ناحية أخرى ـ أن الأمر الأخير مسلم به، لا ريب فيه باستخدامه فعلاً من أفعال القلوب ـ كما يسمّيها النحاة ـ "لأن معانيها قائمة بالقلب متصلة به"[(٢٠٩)] ـ وهو الفعل (أيقن)

---

(٢٠٩) النحو الوافى، عباس حسن ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الرابعة : جـ٢/٤ ـ حاشية رقم/٤.

فى قوله : (وأيقنت أن...) ـ ولم يقل : (وظننت)، أو (تخيلت)، أو (توهمت)، وما فى معناها ـ على أننى أُحسّ بأن التعبير بقوله : (وأيقنت أن الموت حقٌّ) فيه تعريض بمعاوية، وطعن فى عَقَده وعقله، وكأنه قبل هذا الموقف كان فى شك من حتمية الموت وحقيقته، ولم يُوقن به، ويسلم بثباته ووقوعه إلا حينما يبصر الإمام عليا مقبلا فى خيله يهوى عليه ويفترسه.

هذا على أن الشاعر بيَّن فى هذا البيت أن الذى ألمّ به معاوية وتيقّنه أمران: أولهما: (أن الموت حقْ) ثابت لاشك فيه؛ ثانيهما : أن الموت حالٌّ به لا محالة، إن لم يُوَلّ هاربا، ويمعن فى هربه. على ما فى التعبير بالجملة الشرطية (إن لم تمض فى الركض...) من سخرية وتهكم بجبن معاوية؛ إذ إن نجاته ـ كما يرى الشاعر ـ ليست وقفًا على ركضه وسرعة فراره من الإمام علىٍّ فحسب، بل فى المضىّ فى هذا الركض واستمراره؛ وفى هذا من الإهانة لمعاوية وازدرائه ما فيه. بل إذا عرفنا أن من معانى كلمة (حَابِس) و(حابسة) "الإبل التى كانت تحبس عند البيوت لكرمها" ـ أمكننا أن تصوّر مدى الإهانة التى نيطت بمعاوية من وراء هذا التعبير فى نهاية البيت، وكيف يقضى نحبه شأنه شأن هذه الإبل التى تعبّر عن كرم أهل بيتها؛ ولعل عمرًا آثر التعبير بكلمة (حابس) ـ بدلا من (قابس) أو (كابس) مثلا ـ من أجل هذا المَغزَى المُغزِى.

هذا، وإذا كان كل ما جاء فى البيتين السابقين يعد كناية عن الصفات التى أشرنا إليها من جبن معاوية، وخوره، وضعفه، ومهانته ـ فإن البيت الرابع وهو:

فإنك لولاقيته كنت بُومةً ... أُتيح لها صَقْرٌ من الجوّ آنِس

ـ جاء ترتيبا وتعقيبًا على ما تضمنه الشطر الثاني من البيت السابق. وكأنه يقول له ـ ناصحا ساخرا ـ: امْض وانج بنفسك؛ (فإنك لولاقيته...)، مؤكدًا نصحه له وسخريته منه بالتعبير بالجملة الاسمية ـ التى تفيد ثبوت الخبر ودوامه ـ وتأكيد هذه الجملة بـ (إن) فى قوله: (فإنك لولاقيته...). وقد آثر الشاعر التعبير بالجملة الشرطية، وأداتها (لو) ـ إمعانا فى السخرية من معاوية ـ إذ إن هذه الأداة تقطع ـ هنا ـ بامتناع لقاء معاوية بعمرو، حتى لا يقع عليه خبر (إنّ) فى قوله: (فإنك...)، ويكون فى هذه الصورة القبيحة الواضحة فى هذا التشبيه البليغ المنفّر المحقر ـ الذى يمثل خبر (إن) ـ وهو: (كنت بُومة)؛ الذى جاء فى إطار الجملة الفعلية الماضوية؛ ليسهم بصورته فى تأكيد وقوعه لا محالة إن سوّلت لمعاوية نفسه لقاء الإمام على، فيكون (بومة). وقد آثر الشاعر تشبيهه بالبومة ، لما يتوفر فيها من صفات المهانة والازدراء؛ "فالبومة طائر يكثر ظهوره بالليل، ويسكن الخراب ويضرب به المثل فى الشؤم وقبح الصورة".

هذا، ومما يزيد هذه البومة ـ التى تُمثِّلُ معاويةَ ـ جبنا وشؤما؛ نَعْتُها بجملة فعلية ماضوية ـ مؤكّدة لمضمونها بنفسها ـ فى الشطر الثانى: (أُتيح لها صقرٌ من الجو آنس)، وما يتضمنه هذا الشطر من استعارة تصريحية؛ فالصقر فيه هو الإمام علىّ ـ كرّم الله وجهه ـ وهذا الصقر أرفع من أن ينظر إلى هذه البومة، أو ينقضَّ عليها؛ وإنما (أُتيح لها) وتهيّأ لها ـ أى للبومة ـ هذا الصقرُ الذى لم يخرج من وُكْنه ووكره، وإنما هو (من الجو آنس)، هو أبصرها، وجال بطرفه نحوها، مستطلعا إياها؛ وبهذا فقط حلّ بها ما حلَّ، وكان ما كان. ولعل فى تلك المقابلة بين الشطرين ـ على هذا النحو ما يؤكد هذا البَوْن الشاسع بين الإمام علىّ فى

ارتقاع منـزلته وسمو قدره؛ ومعاوية فى حقارته ومهانته كما أرادت عاطفة عمرو بن العاص.

ثم يأتى البيت الخامس:

وماذا بقاءُ القومِ بعد اختباطه وإنّ امرأً يلقى عليًّا لآيسُ؟!

ليقدم بهذا الاستفهام ـ المراد به النفى والاستبعاد ـ والذى يفيض سخرية وتهكما ـ يقدم ملمحا آخر من ملامح التدنىّ لمعاوية ؛ وكأنه يقول له: هوّن على نفسك، فلست وحدك فى هذا المصير؛ لأن ضربة علىّ قاضيةٌ لا تبقى ولا تذر، وغارته شعواءُ لا تدع من خصومه ديَّارا.

ثم يأتى الشطر الثانى مؤكدًا عدم تفاؤل كل من يلقاه، مصوِّرًا ذلك بوسائل عِدة؛ منها التعبير بالجملة الاسمية التى تفيد أن يأس من يلقاه من النجاة ثابت دائم لا ريب فيه؛ ومنها أيضًا تأكيد هذه الجملة الاسمية بأداتين هما (إن)، واللام الداخلة على الخبر (لآيسُ)؛ ومنها كذلك نعت اسم إنّ (امرأ) بجملة فعلية مضارعية مفيدة التجدد والحدوث، وكأن عمرًا يبعث هذه الصورة وينشرها أمام المتلقين، ليسلّموا بأنفسهم صحة ما ذهب إليه؛ و"ليشهدوا منافع لهم" تقيهم من أن يُلْقُوا بأنفسهم إلى التهلكة بين يدى الإمام على.

أما البيت السادس والسابع ـ وهما:

دعاك فصُمَّتْ دونه الأُذْنُ هاربًا بنفسك قد ضاقت عليك الأمالِسُ

وأيقنتَ أن المـوتَ أقـربُ موْعـدٍ وأن التـي نـاداك فيهـا الـدَّهارِسُ

فقد وردا ليُقرِّعا معاوية؛ ويُقْرعا أُذنيه بالدليل الدامغ على صحة ما دثّره به الشاعر فى الأبيات السابقة؛ وكأنه يقول له: إن كان قد رابك قولى، وظننت أن ما رميتك به ضرب من الوهم أو التهويل؛ فدونك هذا الدليل الواقعى المؤكد بإطاره الماضوىّ (دعاك...) ـ بما فى إطالة المدّ هنا من هزء وسخرية ـ كما أنّ فى حذف ما دعاه إليه ـ لأن التقدير (دعاك إلى البراز) ـ قيمة فنية كبيرة، توحى بشهرته والتهويل من شأنه، وما جلبه على معاوية من فضيحة وعار.

ثم يرسم سلوكه بعد سماعه الدعوة؛ موظفا (الفاء) ـ التى تفيد الترتيب والتعقيب ـ فى قوله: (فصُمّت دونه الأُذْنْ)؛ ليصور لنا أثر سماع الدعوة، وشدّة وقعها عليه؛ أى أذنُك قد سدّت أو ذهب عنها سمعها لحظة أن (دعاك). وموظفا كذلك التعبير بالماضى المبنى للمجهول ـ ولم يقل (فصمّت دعوتُه أُذْنَكَ) ـ لأن فى إخفاء الفاعل تهويلاً من أثر الدعوة، وتعظيمًا من شأن مصدرها وصاحبها.

هذا، ثم يضيف عمرو خيطا آخر فى نسيج ثوب السخرية منه بالتعبير بالحال (هاربا بنفسك)؛ ليؤكد بهذا التضاد مدى التناقض وشدة غرابته؛ فبدلا من أن يتقدم معاوية إليه، ويسرع إلى برازه إثر دعوته له، آثر النأى عنه، والهروب منه حفاظًا على حياته.

ثم يصور عمق جزعه وشدّة فزعه بجملتين مؤكدتين بصورتهما الماضويتين مع إضافة تأكيد الأولى منهما بقد(قد ضاقت عليك الأمالس). أما الجملة الثانية فهى: (وأيقنت أن...) إلى نهاية البيت. مبيّنًا بالتّعبير بالمصدر المؤول ـ (أن الموت أقرب موعدٍ) ـ الذى سدّ مفعولىّ (أيقنت) والمصدر المؤول المعطوف عليه هو: (وأن التى

ناداك فيها الدهارسُ) ـ مبيّنًا بهما أن معاوية فى هذه اللحظة أيقن أمرين: قرب موعد الموت منه من جهة، وتجمع الدواهى ـ لاَ داهية واحدة ـ عليه فيما دعِيَ إليه من جهة أخرى.

وقد استطاع عمرو بن العاص أن يوظف الكثير من عناصر الموسيقى الداخلية فى هذين البيتين لتصوير حالة معاوية والتنفير منها والتهكم بها؛ من كثرة الأصوات الحلقية التى تُوحى بعمق ضيقه وغور ألمه. وكثرة الأصوات المشكلة بالسكون والمشدّدة التى ترمز إلى شدّة وقع المصيبة التى نزلت بمعاوية فى هذه الآونة. وتكرار صوت النون ـ مضافا إليه الأصوات المنونة ـ وما يكشفه من حزنه وأنينه؛ وتكرار صوت القاف وما يوحى به من قلقلة نفسه واضطراب قلبه؛ وتكرار صوتى (التاء والدال) ـ المتحدين فى المخرج ـ وما يوحيان به من شدّة ودوىّ وانفجار وانتشار لهذه الواقعة؛ وكثرة أصوات المدّ التى ترمز إلى أبعاد الفضيحة وآمادها، كما توحى بعجزه واستغاثته وحاجته إلى من يُنجده، ومن يحفظه ويتستَّر عليه.

هذا، وبعد أن صوّر الشاعر معاوية فى الأبيات السابقة ـ فى أقبح صورة وأبشعها؛ ينكز عليه موقفه منه وشماتته به حين طعنه الإمام علىّ، بقوله فى البيت الثامن:

وتشمْتَ بى أن نالنى حَدُّ رُمحِه   وعَضّضنى نابٌ من الحرب ناهِسُ

أى إذا كان هذا هو قدَرَ من ينظر إلى الإمام مُقبلاً فى خيله؛ أو من يسمع صوته داعيا إياه إلى مبارزته؛ فما بال من لقيه، وتلقّى طعنته، وبقى حيًّا قويًّا ـ

أينبغي أن يُشْمتَ به، كما تَشمتَ بي؟ وأيّ مكروه أصابني حتى تفرح بـه؟ أو أيّـة بليّة طَرقتني حتى تشمت بها وتسعد؟؛ إن ما (نـالني) هـو (حَـدُّ رمحـه)، وكـأن الشاعر يحس بالرضا والسعادة بما حدث له؛ وآية ذلك استخدامه مـادة (نـال) ــ التي تفيد معنى (الخير ـ الجود ـ العطاء) ـ وما اقترب من هذا المعنى ـ من جهـة، وتشخيص (حدّ) رمح الإمام ـ في هذا التعبير الاستعاريّ ـ وجعله إنسانا كريما منّ عليه بعطيته، ولم يضنّ عليه بنوْله والرفق به، من جهة أخرى.

هذا، كما يرد الشاعر كيد معاوية في نحره؛ بالتخفيف من وقع طعنـة الإمـام له؛ بهذا التعبير الاستعاريّ ـ في الـشطر الثـاني ـ حيـث جعـل الحـرب حيوانـا مفترسا ذا نابٍ قاطعٍ؛ وبين أن ما أصابه منه هو (عضعضة) خفيفة، لم تُود به مـن جهة. وبتوظيف بعض عناصر الموسيقى الداخلية ككثرة أصوات الحلق التي توحي هنا بعمق ألم عمرو من تفكير معاويةٍ، وبلاهـة موقفـه منـه؛ وتكـرار صـوت النـون الذي يوحي هنا ـ إلى جانب تقوية النغم وزيادة الجـرس، وإثـارة الانتبـاه ـ بحـزن عمرو على معاوية ـ سخرية وتهكما ـ الذي لم يضع الأمور في نصابها، ولم يقـدّرها حق قدرها. وغير ذلك من العناصر الموسيقية الداخلية في البيت ـ من جـهة ثانية.

هذا، وفي نـهاية القصيدة يعلن الشاعر خـصمه اللـدود، وعـدّوه الـشامت بـه، يعلنه بالهزيمة، ويأذن له بالانسحاب مُدَثَّرًا بخيبة الأمـل وسـوء المنقلـب ـ حينمـا يضع أمامه لُبّ القضية جليّة موجزة في قوله في الأبيات مـن التاسـع إلى الحـادي عشر:

١ــ أبـى اللهُ إلاّ أنـه ليــثُ غابــةٍ   أبــو أشْـبُلٍ تُهــدَى إليــه الفــوارسُ

٢ـ وأنى امرؤ بـاقٍ فلـم يُلـفَ شِـلْوُه   بمْعـــتركٍ تَـــسْفِى عليـــه الـــروامِسُ

٣ـ فإن كنت فى شكٍّ فَأَرْهجْ عَجاجةً   وإلاّ فتلـــك التُّرَّهـــاتُ البـــسابسُ.

مؤكدًا فى البيتين الأولين بأسلوب الحصر والقطع ـ شجاعة الإمام علىٍّ وتفرّده فى فروسيته؛ وسلامته هو ـ أىْ عمرو ـ بعد أن ناله حدّ رمح علىّ. ومفحمًا معاوية ـ فى البيت الأخير ـ بحجته التى لم يسطع لها ردًا، ولم يجد منها مخرجا.

واللافت لعين النقد هنا أن عمرًا ـ مع ما قدّم من أبيات ـ لم تفتر عاطفته، ولم يقرّ وجدانه؛ بل ما فتئت عاطفته الحب والإكبار والإحلال للإمام علىّ ـ كرّم الله وجهه ـ وعاطفة البغض والنقمة على معاوية ـ تعملان عملهما ، وتصبغان التعبير بصبغتهما؛ فالشاعر ـ هنا لم يقض بشجاعة علىّ ـ كما أشاد بها كثيرا صراحة أوضحنا من قبل ـ ولم يُفْتِ بسلامته ـ هو ـ من طعنة الإمام له ـ كما لوّح فى البيت الثامن ـ بل جعل هذا القضاء لله وحده ـ عز وجلّ ـ الذى يأبى أىّ شىء سوى ماقضى. وقد قضى بأمرين:

أولهما : أن عليًّا (ليثُ غابة ـ أبو أشبل ـ تُهدَى إليه الفرائس)

وقد شاءت عاطفة الشاعر أن تزيد معنى شجاعة علىٍّ وضوحا، وتكسبه تأكيدًا؛ بهذا التشبيه البليغ (أنه ليثُ...)، عامدًا إلى المبالغة والإغراق فى ادّعاء أن المشبه هو المشبه به نفسه"؛ ولكى يعمق هذه الصفة، ويضاعف من قوتها ودرجتها؛ جعله (...ليث غابة) وهى "الأجمة ذات الشجر الكثير المتكاثف" فهو بذلك قوىٌّ مهاب يحمى عرينه.

هذا، كما جعل أولاده وأنصاره (أشبالاً) على سبيل الاستعارة التصريحية. وهؤلاء الأشبال لا يسعى هذا الليث لتحصيل قُوتهم، بل إن السباع القاطنة فى الغابة ـ كما يدل التعبير الاستعارىّ المكنىّ ـ هى التى تقدم له الفرائس هدية وولاء، على مرّ الزمان ـ على ما يوحى التعبير بالجملة المضارعية، من تجدد وحدوث، فى قوله:

(تُهدى إليه الفرائس)، الذى جاء الفعل فيها مبنيا للمجهول؛ تعظيما لشأن المُهدَى إليه، وتهويلا من عدد المُهددين له. ولا يخفى ما فى هذه الجملة ـ بعد ذلك من تعبير كنائىّ عن ضآلة معاوية ومهانته، وكأن عمرًا يقول له: دعاك، فهربت منه، فاطمئن الآن، ونم ملء جفونك، لأن الإمام عليا (ليث غابة) أرفع أن يفكر فيك، أو يخرج بنفسه لاقتناصك وافتراسك، فهو الذى (تُهدى إليه الفرائس).

هذا، ولم يقف أثر عاطفة الإجلال للإمام علىّ عند حدّ التصوير الجزئىّ ـ المتمثل فى التشبيه البليغ ـ والاستعارتين تصريحية ومكنية ـ والكناية ـ بل ظهر نتاجها أيضا فى توظيف بعض عناصر الموسيقى الداخلية التى عملت على تقوية النغم، وازدياد الجرس، وإثارة انتباه المتلقين؛ ليشهدوا معه مظاهر هذا الإجلال والتقدير ـ من أبين هذه العناصر تكرار صوت الهمزة سبع مرات، وتكرار صوت الهاء أربع مرات، فإذا أضفنا إليهما صوت (الغين)، أصبح عدد الأصوات الحلقية اثنى عشر صوتا فى هذا البيت، وحسب هذا الكم فائدة أن يعبرّ ـ إلى جانب تقوية النغم و... ـ عن عمق إجلال عمرو للإمام علىّ صاحب الفضل عليه.

ومن أبين هذه العناصر الموسيقية أيضا تكرار صوت اللام تسع مرات فى البيت نفسه على ما يوحى به هذا الصوت بصلصلته، وجلبته - من مظاهر الاحتفال، والاحتفاء، والابتهاج بذكر الإمام علىّ والتحدّث عن فضائله.

ثانيهما : (...أنى امرؤ باق...) فلم يبتر منّى أىّ شلو من أشلائى وبقى فى أرض المعركة تسفى عليه الرياح؛ على ما تعلم ويعلم غيرك. والبيت برمّته كناية ودليل على أن ما ناله من رمح علىّ وطعنته كان خفيفا طفيفا، لا يجرّ شماتة شامت ولا كيد كائد.

وقد آثر الشاعر بناء الفعل (ألفى) للمجهول، وحذف مفعوله الثانى - إذ التقدير: فلم يُلْف شِلْوه مطروحًا، أو لَقًى، أو مُلْقًى بمعترك - ترفعًا عن ذكر المحذوف واستبعادًا لوقوعه.

هذا، وقد كانت طبيعة الصنعة، ومتطلبات تآزر المعانى بعضها ببعض - يقضيان أن يأتى هذا البيت العاشر) بعد البيت الثامن: (وتشمت بى أن نالنى...)؛ لأنه مرتبط به ودليل عليه. ويقضيان كذلك أن يتأخر البيت التاسع: (أبى الله إلا أنه...)، ليقع قبل البيت الحادى عشر؛ لأن البيت الأخير مترتب عليه، وكأن عمرًا يقول مخاطبًا معاوية: على (ليث غابة أبو أشبل...)، (فإن كنت فى شك) - من ذلك (فأرهج عجاجة، و...).

ولكن يبدو أن داهية العرب عمرًا قد ضحّى بمتطلبات الفن، ولم يُضحّ بواجب الاحترام والاحتشام الذى يحول دون أن يتحدث عن نفسه، ويشير إلى ما قضاه الله فى أمره؛ قبل الحديث عن الإمام علىّ وبيان ما قضاه الله له من قوة خارقة تحمى أولياءه، وتردع أعداءه.

أما البيتُ الأخير فى هذه القصيدة ـ وهو:

فإن كنت فى شكٍّ فَـأَرْهِجْ عَجاجـةً وإلاَّ فتلـــك التُّرَّهـــاتُ البـــسابِسُ.

ـ فقد بُدىء بالفاء ترتيبا وتعقيبًا على ما نُعِت به الإمام على فى البيت التاسع واشتمل على جملتين شرطيّتين تحملان المتلقى حمْلا على معرفة جواب الشرط فـى كل منهما، وقد جاءت الأولى منهما (فإن كنت فى شك فـأرهجْ عَجاجـةً)؛ لإفحـام معاوية وإلزامه الحجة؛ أى إن كنت فى شـك ممـا يتحلّـى بـه الإمـام مـن صـفات البطولة والفروسية؛ فتحرك نحوه، وهيِّج الشرّ ضدّه، وأثر غبار حملتك عليه.

وقد تآزرت بعض العناصر الموسيقية الواردة فى هذا الشطر بعـضها مـع بعـض على تصوير موقف معاوية من هـذا العـرض المجحـف، وهـذا الجـواب ـ جـواب الشرط ـ المعجز، المقترن بالفاء ـ التى تتطلب سرعة الإنجاز والتطبيق، بعد ذكـر أداة الشرط وفعله فورًا ـ وهو (فأرْهِج عجاجةً) والذى تشيع فيه الأصوات المجهورة بنسبة: (٧) إلى (٤)، والذى ينتقل النطق فى الكلمة الأولى منه مـن (حركـةِ (أَ) ـ فسكون (رْ) ـ فَحركةِ (هـِ) ـ فسكون (جْ) ـ) فصعوبة النطق بـالعين المفتوحـة فـى الكلمة الثانية (عَجاجةً) ـ وهى من أصوات الحلق ـ بعـد هـذه الجـيم الـساكنة فـى الكلمة الأولى (فأَرْهجْ)، يضاف إلى ذلك كله تكرار صوت الجيم ـ بعضه إثر بعـض ـ فى جملة الجواب، التى تحتوى أيضا على ثلاثة أصوات حلقية فـى كلمـتين فقـط (فأَرْهجْ عَجاجةً)ـ وما يحدثه كل ذلك ـ حـين النطـق بهـا ـ مـن صـعوبة ومـشقة، يصوران حجم هذه المهمة علـى نفس معاويـة، ومقـدار ثقلـها عليـه، وعجـزه عـن أدائها.

هذا، إلى جانب ما فى هذا الشطر ـ أىْ الأوّل ـ من تكرار (الكاف) ثلاث مرات (وهو صوت مهموس). وتكرار صوت (التاء) ـ وهو مهموس أيضا ـ ثلاث مرات. وتكرار (الفاء) ثلاث مرات، مضافا إليها صوت (الشين)، وهما من أصوات الصفير التى تصور بصوتها، متداخلا مع الأصوات الانفجارية التى تحدثها تلك الأصوات المهموسة ـ يصوّر كل هذا أن معاوية صوت بلا عمل، وكلام بلا فعل، أو كما يقول المثل العربىّ: (أسْمَعُ جَعْجَعَةً ولا أرى طِحْنًا) (٢١٠).

أما الجملة الشرطية الثانيةفى هذا البيت فحسبها أنها سجّلت على معاوية بصورة منطقية الهوس والصغار، ودثرته ثوب الخزى والعار وتَوَّجَتْه تاج (التّرهات البسابس)، وسط هذا الإيقاع الموسيقى المنبعث من تكرار صوت (اللام) ثلاث مرات، وصوت (التاء) ثلاث مرات أيضًا ، وهسيس صوت (السين) المكرر مرتين، فضلا عن تكرار صوت المدّ (الألف) فى هذا الشطر ثلاث مرات كذلك. وما يُوحى به هذا الإيقاع من فرحة الشاعر وانتصاره على معاوية من جهة ـ وما يرمز إليه من فضيحة وخزى للشامت المعيِّر غيرهَ بما نكل هو عنه، من جهة أخرى.

هذا، وإذا. نظرنا إلى القصيدة نظرة رأسية ـ بعد أن تتبعناها أفقيًا بيتًا تلو الآخر ـ تبين لنا أن التكرار والمقابلة أدّيا دورهما الفنىّ فى تقوية النغم، وزيادة الجرس، وإثارة الانتباه. وأسهمتا فى التعبير عن عاطفة الشاعر وتصويرها سواء ما يرتبط منها بحبُ الإمام علىّ وإجلاله، أو ببغض معاوية وازدرائه؛ وذلك من أول القصيدة إلى نهايتها. على النحو الآتى:

أولاً : تكرار ذكر الإمام والتنويه به بصور مختلفة:	ثانيا: تكرار ذكر معاوية والتحقير من شأنه كالآتى

(٢١٠) انظر المثل فى (لسان العرب/ طحن).

ـ ذكره باسمه: (وإن امرؤ يلقى عليا لآيس) ـ ذكره بكنيته الحقيقية (إن أبصرت في الخيل...أبا حسن يهوى). ـ ذكره بكنيته المجازية (أبو أشبل...) ـ ذكره بلقبه المجازي (صقر)، و(ليث) ـ ذكره بالضمير الغائب العائد عليه: ـ(وأنه لنفسك ...حابسُ) ـ (لولاقيته...) ـ (ماذا بقاء القوم بعد اختباطه) ـ فصمّت دونه الأذن...) ـ أن نالنى حدّ رمحه) ـ (أبى الله إلا أنه...) ـ (يُهدى إليه الفرائس)	ـ ذكره باسمه (معاوى لاتشمت) و ـ (معاوىَ إن أبصرت) ـ ذكره بلقبه المجازىّ (بُومة) ـ ذكره بتاء الخطاب: ـ (...إن أبصرت فى الخيل...) ـ (وأيقنت أن الموت حق) ـ (وأيقنت أن الموت أقرب موعد) ـ (....لولاقيته كنت بومة) ـ (فإن كنت فى شكٍّ...) ـ ذكره بالضمير المستتر العائد عليه: ـ (... لا تشمتْ) ـ (إن لم تمض فى الركض) ـ (هاربا بنفسك) ـ (فأرْهج)
ـ ذكره بالضمير المستتر العائد عليه:	ـ ذكره بكاف الخطاب:

- (دعاك فصّمت...) - (التى ناداك فيها الدهارس) ...	- (دهتك الوساوس) ـــ (وأنــه لنفــسك إن لم تمــض فــى الركض) - (فإنك لولاقيته...) - (دعاك...) - (هاربا بنفسك) - (قد ضاقت عليك الأمالس) - (التى ناداك منها الدهارس)

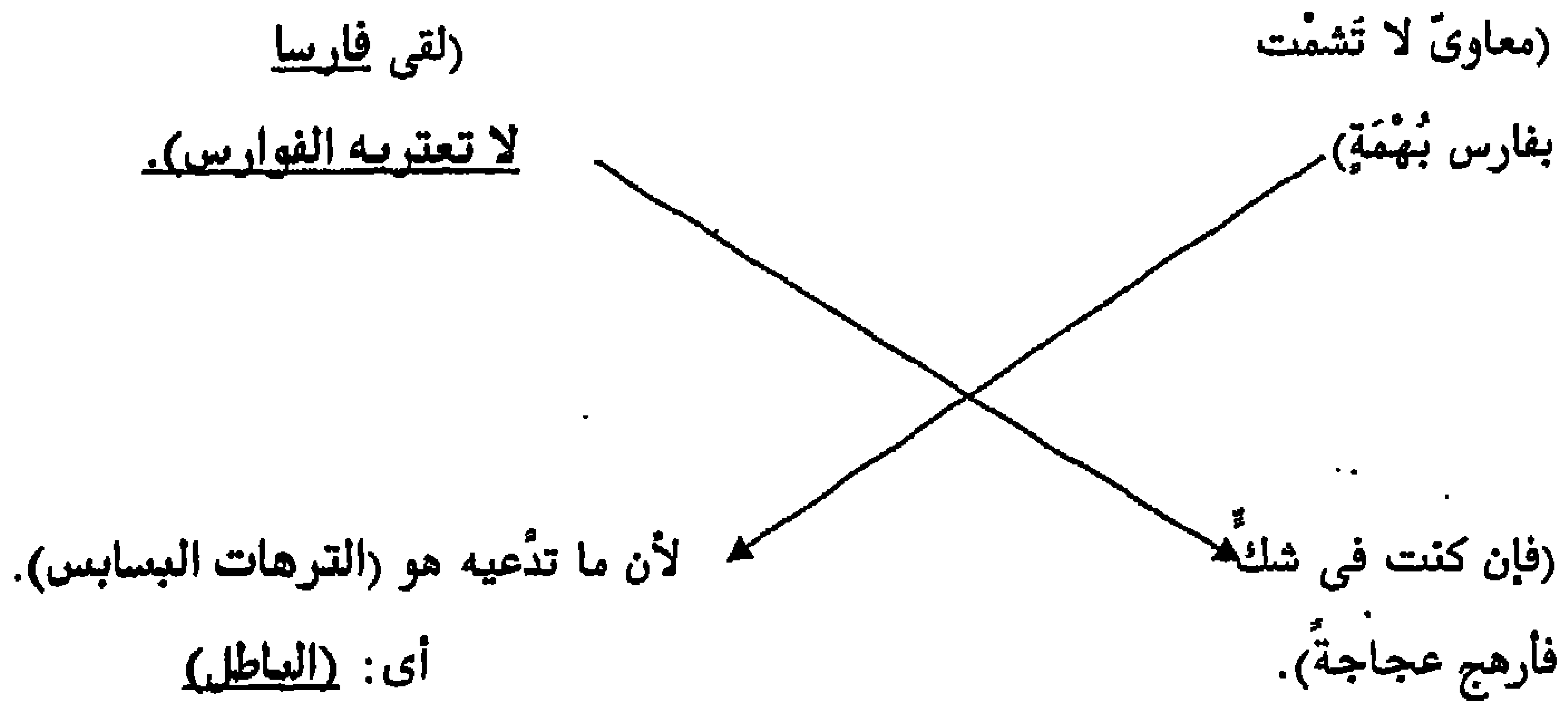
فقد ساعد هذا التكرار المستمر فى كل لوحة على رسم ملامح كل شخصية منهما، وإبراز ما تتسم به. ووضع كل واحدة منهما إزاء ما يناقضها، لتؤكد المقابلة بينهما اختلاف كل واحدة عن الأخرى؛ اختلافا بيّنا، خُلقًا وسلوكًا، من جهة؛ ولتوحى بإيجابية عمرو بن العاص وشجاعته فى ثباته أمام صاحب الصفات المثلى والمنزلة العظمى - ولو لحظة - مهما ناله من طعنة منه؛ وتوحى كذلك بخَوَر معاوية وجبنه يوم رفض عَرْضَه - أى عرض الإمام -، ونكل عن بِرازه من جهة ثانية.

هذا، كما نلتقى فى القراءة الرأسية للقصيدة بتكرار (معاوى) مرتين - وتكرار (تشمت) مرتين أيضا، وتكرار (وأيقنت أن الموت) مرتين كذلك. مما يقوى النغم، ويثير الانتباه من جهة، ويؤكد كراهية الشاعر لمعاوية وازدراءه له من جهة أخرى.

كما قابل الشاعر بين صورته التى رسمها لنفسه مفتخرًا لنفسه فى البيت الأول (بفارس بهمة لقى فارسا) - وبين صورة معاوية التى تُقرر جبنه وعجزه عن

لقاء الإمام عليّ، أو تحريك حملة عليه في قوله في البيت الأخير (فأرهج عجاجة) - أي أنا فارس بهمة قد لقيت فارسا... ولو للحظة، فالقه أنت، - أو جرّد عليه حملة...؛ مما يدل على مدى ترابط أفكار القصيدة، وتآزر معانيها، وتسلسلها، ووضوح رؤية الشاعر فيها؛ ويشهد في النهاية بقوة عاطفة الغضب والبغض لمعاوية من بدء القصيدة إلى نهايتها.

بل ثمة رابط فنيّ آخر قويّ محكم، يشهد بفنيّة عمرو بن العاص وهندسته في شعره، - كهندسته في رسم خططه الحربية، وتكتيب كتائبه، وتنظيم جنوده - هذا الرابط هو ما يمكن أن أُطلق عليه: (ردّ عَجُز القصيدة على صدرها)؛ حيث يرتبط الشطر الأخير من القصيدة بالشطر الأول منها؛ ارتباطا وثيقًا قاطعًا - ومقاطعًا - "قول كل خطيب". كما يلتقي الشطر الأول من البيت الأخير بالشطر الأخير من البيت الأول؛ التقاء قويًّا منطقيا مُفحمًا معاوية وملزمة الحجة البالغة الدّامغة التي تُقْرِرُهُ في حياته مكفنًا ومدثّرا بثياب الخزى والجبن والخور على ما تهوى عاطفة الشاعر. ويمكن أن نشير إلى هذا الالتقاء بالرسم الآتي:



ولعل التقاء الأطراف بهذا الشكل (×) ـ رمز المحو والإلغاء عندنا ـ فيه توكيد لإلغاء دعوى معاوية ضد عمرو، وتقريرُ اجتثاثِها من جُذورها، وبيان أن ما ورد له من الكلام فى هذا الشأن مُحال .

هذا، وإذا كنا قد وقفنا على كثير من الصور الجزئية ـ وبخاصة (الكناية) ـ التى أسهمت مع الكثير من عناصر الموسيقى الداخلية فى التعبير عما فى وجدان الشاعر، وتصوير عاطفته ـ فإننا فى قراءتنا الرأسية كذلك نقف على كثير من العناصر الأخرى التى تشكل ـ مع الصور الجزئية ـ من تشبيه، واستعارة، وكناية ـ الإطار العام للصورة الكلية لهذه التجربة الشعرية. من هذه العناصر:

أولا: (عنصر الصوت) فى القصيدة؛ المتمثل فى نداء (معاوىَ) مرتين فى مقدمة النص، والصوت الصارخ الصادر من هذا النهى (لا تشمت)، والصوت المُتَصَوَّر من إقبال خيل أبى الحسن فى قوله ـ فى البيت الثانى: (إن أبصرت فى الخيل مُقْبِلاً.. أبا حسن)، وكذلك الصوت المتصوّر من الركض فى قوله ـ فى البيت الثالث : (إن لم تمض فى الركض) والصوت المنبعث من الاستفهام فى قوله (وماذا بقاء المرء بعد اختباطه) ـ فى البيت الخامس ـ والصادر من الفعل: (دعاك...) ـ فى البيت السادس ـ والفعل (ناداك) فى قوله (وأن التى ناداك فيها الدهارس) فى البيت السابع ـ والصوت المنبعث من الرياح، وهى تسفى التراب فى قوله:

(بمعترك تسفى عليه الروامس) فى البيت العاشر، والصوت الصادر من قوله (فأرهج عجاجة) فى البيت الأخير. هذا إلى جانب الكثير الوافر من الأصوات التى توحى بها عناصر الموسيقى الداخلية التى أشرنا إليها.

ثانيا: (عنصر اللّون) الذى يتضح فى لون (البومة) ـ لون الصقر ـ لون الرمح ـ لون الناب ـ لون الشلو ـ لون الغبار وغيرها.

ثالثا : وهو أكثر العناصر حضورا وازدحاما في القصيدة - (عنصر الحركة) الذى نراه فى قوله (لقي فارسا لا تعتريه الفوارس)، وقوله: (إن أبصرت الخيل مقبلا.. أباحسن يهوى دهتك...) وقوله: (...إن لم تمض فى الركض)، وقوله: (فإنك لولاقيته) - وقوله: (صقر من الجو) وقوله: (ماذا بقاء المرء بعد اختباطه). وقوله: (وإن امرأً يلقى عليا...)، وقوله: (هاربًا بنفسك) وقوله: (نالني حدّ رمحه)، وقوله: (وعضضني ناب...ناهش) وقوله: (تُهدى إليه الفرائس)، وقوله: (تسفي عليه الروامس)، وقوله أخيرا: (فأَرْهج عجاجة).

ولقد جاءت هذه العناصر كلها متسقة مع أفكار القصيدة، ملائمة لموضوعها، مترابطة بعضها ببعض ارتباطا قويا، متآزرة كلها مع الصور الجزئية الواردة فى القصيدة، تآزرًا كاملا- لا شذوذ فيه ولا نشاز بينها - في تصوير عاطفة الشاعر، والتعبير عما في وجدانه.

أما عن الموسيقى الخارجية فى نقل التجربة والإسهام فى التعبير عنها؛ فقد جاءت القصيدة على (بحر الطويل) ولست بالحديث عنه هنا من المُسلّمين بارتباط الأوزان بموضوعات الشعر وأغراضه؛ والآية على هذا أننا إزاء قصيدة وليدة عاطفة مزدوجة؛ عاطفة الإعجاب والإطراء على الإمام علىّ - كرّم الله وجهه - وعاطفة البغض والازدراء من معاوية بن أبى سفيان، فهما غرضان لا غرض واحد، عبَّر عنهما بحر واحد هو (الطويل).

لكننى أقولُ: إن موضوع هذه القصيدة موضوع جادٌّ حادٌّ، ووقْعَه على نفس الشاعر وقعٌ حزين أليم عميق؛ ومن ثَمّ التقطت عاطفة الشاعر بإيقاع سايرها، وامتزج بها، وعبّر عنها. وهو البحر الذى قيل فيه: "إنه رحيب الصدر، طويل النفس...وإنه بحر الجلالة والنبالة والجدّ... وبحر العمق... (لأنه) يتقبّل العميق

الجادّ من الكلام بأوسع ماللعمق والجدِّ من معان"[٢١١]. ومما يؤكد اتساعه، الذى يستوعب ما في نفس الشاعر، وما يفيض به وجدانه ـ كثرة تفعيلاته، وهى:

(فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن) فى كل شطر من البيت.

والذى ينبغى أن نذكّر به هو أن عمرًا ـ مع التزامه بهذا البحر وغيره ـ كان يجرى فيه ـ وفى غيره ـ بعض التحويلات والتعبيرات فى الوحدات الإيقاعية، تخفيفا لها وكسرًا لرتابتها، كما أشرنا من قبل[٢١٢]؛ وذلك باستخدامه ـ ما أسماه العروضيون فيما بعد ـ الزحاف ومنه فى هذا البحر (القبض) ـ "وهو حذف خامس التفعيلة متى كان ساكنا، وثانى سبب" ـ أى أن تفعيلة (فعولن) تصيرُ (فعولُ) ـ و(مفاعلين) تئول إلى (مفاعلن). وإن جاء الحذف فى هذه القصيدة فى تفعيلة (فعولن) فقط؛ وأسهم بقلته إسهامًا فاعلاً فى زيادة الجرس إحكاما، ومنحه المزيد من الدندنة بما أضافه إليه من عنصر التنويع، كما أسهم فى التعبير عن عاطفة الشاعر الثائرة، وانفعاله الحادّ. وها نحن قد أشرنا إلى أن عاطفة عمرو الغاضبة المبغضة المتقدة قد كشفت عن نفسها فى خطاب معاوية من بداية القصيدة فورًا، وتجلّى هذا فى الشطر الأول في (النداء المرخم)، و(حذف أداة النداء) وغيرهما، فى قوله:

(معاوىَ لا تشمتْ بفارس بُهْمةٍ ...

وقد ظهر أثر تداعى الوزن مع عاطفة الشاعر وانفعاله، وإسهامه فى التعبير عنهما ـ مع الوسائل الفنية الأخرى التى أشرنا إليها ـ على النحو الآتى:

معاوِ / ىَ لا تشمتْ / بفارِ/سِ بُهْمةٍ

---

(٢١١) (المرشد إلى فهم أشعار العرب ـ مرجع سابق ـ: ٣٦٢/١ ، ٣٨١ ، ٤١٣).

(٢١٢) انظر حديثنا عن هذا البحر تحت عنوان: (الموسيقى الخارجية) فى هذا البحث.

فعولُ /مفاعيلن/ فعوُل/ مفاعلن.

حيث استجاب الوزن مع حذف الحرف الأخير من المنادى الرخّم، وحذف أداة النداء ـ بحذف خامس التفعيلة من (فعولن)؛ مما يناسب شدّة انفعال الشاعر واندفاعه فى التعبير عما فى نفسه، وقد تكررت هذه التقنية فى القصيدة ثلاث عشرة مرة. ولكن اللافت للنظر أن أكثر مجيئها كان فى صدر الشطر الأول والثانى من الأبيات التى وردت فيها؛ كالبيت الثانى ـ والبيت الرابع ـ والبيت السادس ـ والبيت الثامن . وإن وردت فى صدر الشطر الثانى فقط فى البيت الثالث، والبيت العاشر، وجاءت فى حشو البيت فى (التفعيلة الثالثة) من الشطر الأول من البيت الأول، والشطر الأول من البيت السابع . ولم تتكرر مرتين فى شطر واحد إلا فى بدء القصيدة فورًا لشدة ضيق الشاعر وقوة انفعاله.

أما القافية فيبدو لى أن جوهر القضية ـ لقاء عمرو بالإمام علىّ، وتلقيه طعنته، وشماتة معاوية به ـ هى التى فرضت لقب (فارس)، وأن الفارس استدعى الجمع (الفوارس)؛ ومن ثم تقلّدت القصيدة قافية السّين. والسّينُ "من الأصوات التى يُسمع لها صفيرٌ واضح... وهو صوتٌ رِخْوٌ مهموس" (يُحدث) حين النطق به ذلك الصفير العالى"[٢١٣]، الذى ناسب انفعال الشاعر واندفاعه وارتفاع صوته حين التعبير عما ضاق به صدره.

وقد جاءت القافية مطلقة مضمومة. "والضّمة حركة تُشعر بالأُبّهة والفخامة"[٢١٤]، أى أن حركة القافية بقوتها وفخامتها كانت بدورها صدى لعاطفة الشاعر، ووسيلة لتصوير عمقها وقوتها.

(٢١٣) (الأصوات اللغوية ـ مرجع سابق ـ ص / ٧٤ ، ٧٦).

(٢١٤) المرشد ـ مرجع سابق ـ: ٦٩/١.

كما جاءت القافية مؤسسة "والتأسيس ألف يكون بينها وبين الرويّ حرف واحد متحرك... ويسمىّ دخيلا[٢١٥]"؛ مما ساعد الشاعر على إطلاق صوته عاليا، عابرًا الصوت المتحرك الدخيل؛ ليصبّ نفثته في السين المضمومة التي تتداعى بصوتها وقوتها معه.

وأخيرا جاءت القافية في كل بيت من أبيات القصيدة؛ متمكّنةً في موقعها مرتبطة بألفاظها، وجاء الوزن مشتملا عليها جالبا لها.

وبعد، فبهذا كله يمكننا أن نقرر في طمأنينة أن جميع الوسائل التعبيرية والفنيّة في هذه القصيدة جاءت متآزرة مع عاطفة الشاعر ـ بنوعيها ـ متعاونة بعضها مع بعض في تصويرها والكشف عن أغوارها. مما يؤكد حكم ابن عبد البرّ[٢١٦] في فنه حين قال عنه: "كان شاعرًا حسن الشعر، حُفِظَ عنه الكثير في مشاهد شتى"؛ وحكم ابن كثير حين قال عنه[٢١٧]: "له أمثال حسنة وأشعار جيدة"، وقبل هذا وذاك رأى معاوية[٢١٨] ـ حين طالب عمرًا أن يكتب إلى عبد الله ابن عباس، فصدع عمرو بأمره، وختم الكتاب بقصيدته السينية التي مطلعها:

طال البلاءُ وما يُرجى له آسِي ... بعد الإله سوى رِفْقِ ابنِ عباس

"فلما فرغ من شعره عرضه على معاوية، فقال معاوية: (لا أرى كتابَك مع رقة شعرك)..." على اختلاف التجربة، وتوجّه القصيدة؛ فإذا كان شعر عمرو

(٢١٥) (عروض الشعر العربي ـ مرجع سابق ـ /١٧٤).
(٢١٦) الاستيعاب ـ مصدر سابق ـ: ٣٣١/٨.
(٢١٧) البداية والنهاية : ٢٦/٨.
(٢١٨) وقعة صفين : ٤١٢.

رقيقا ـ على رأى معاوية ـ فى الاستعطاف والرجاء، فهو عنيف فى التعريض والهجاء؛ فى الوقت الذى يتمتع بجزالته وقوته فى المدح والإطراء وبخاصة إذا كان الممدوح رجلا يحبه الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويحب الله ورسوله، كالإمام علىّ ـ كرّم الله وجهه ـ القائل(٢١٩) :

"إنى لو قُتِلْتُ فى ذات الله وحَييتُ، ثم قُتِلْتُ ثم حَييتُ سبعين مرة، لم أرجع عن الشدّة فى ذات الله والجهاد لأعداء الله."

(٢١٩) وقعة صفين /٢٧١.

أما النموذج الثانى فهو: (التهنئة بالخلافة والفخر بإنجازها)

يقول ابن مُزاحم[٢٢٠]:

"ولما فعل عمروه ما فعل ـ يقصد ما تم فى أمر التحكيم وخداع الأشعرى ـ واختلط الناس، رجع إلى منزله، فجّهز راكبا إلى معاوية يخبره بالأمر من أوله إلى آخره. وكتب فى كتاب على حِدة:

أَتَتْـــكَ الخلافـــةُ مَزْفُوفَـــةً   هَنيئًـــا مريئًـــا تُقِـــرُّ العُيونـــا

تُـــزَفُّ إليـــك كَـــزفِّ العـــروسِ   بـــأهونَ مـــن طعنـــك الـــدَّارعينا

ومـــا الأشـــعرىُّ بـــصلْدِ الزّنـــادِ   ولا خامـــلِ الـــذِّكرِ فـــى الأِشـــعرينا

ولكـــن أُتيحـــتْ لـــه حَيَّـــةٌ   يَظَـــلُّ الـــشُّجاعُ لهـــا مُـــسْتَكينا

فقـــالوا وقُلْـــتُ وكُنْـــتُ أمـــراً   أُجَهْجِـــهُ بالخَـــصْم حتـــى يلينـــا

(٢٢٠) وقعة صفين : ٥٤٧.

فَخُـذْها ابـنَ هنـدٍ علـى بأسـها   فقـــد دافـــع اللهُ ماتَحْــــذرونا

وقـــد صَـــرف اللهُ عـــن شـــامكم   عـــدُوًّا شـــنيًا وحرْبًـــا زَبُونـــا."

واضح أن النص ثمرةُ عاطفة الفرحة والبهجة بالنصر والظفر بالخلافة لمعاوية. وهى عاطفةٌ قويةٌ جياشةٌ؛ استطاع الشاعر من خلالها أن يصور أفكاره، ويعبر عن معانيه التى يجيش بها وجدانه؛ مستخدمًا الجمَّ الغفير من الوسائل الفنية التى منها: الصور الجزئية المتمثلة فى:

- الاستعارة المكنيّة التى شخصت الخلافة عروسًا فى قوله: (أتتك الخلافةُ مزفوفةً - تُزفُّ إليك - فَخُذها ابنَ هند...)؛ والتى شكّلت الحربَ ناقةً شموسًا زَبُونًا - تَزبنُ حالبها، وتدفعه بعيدًا عنها - فى قوله فى نهاية القصيدة: "وقد صرف الله عن شامكم... وحربا زبونا".

والمتمثلة أيضا فى:

- الاستعارة التصريحية فى قوله: "ولكن أُتيحت له حيَّةٌ"، يعنى نفسه.

وكذلك فى:

- التشبيه فى قوله مخاطبا معاوية: "تزف إليك كزفّ العروس".

- والكناية - فى البيت الثالث - عن كرم الأشعرىّ، ونباهته وشهرته. والكناية - فى البيت الرابع - عن قوة عمرو؛ ودهائه -، ومناعة جانبه، وسمو تفكيره. وكذا الكناية عن قوته، وصلابته، وصِرامة موقفه، وحسن تصرفه؛ الواردة فى قوله: "وكنت امرأً أُجَهْجِهُ بالخَصْم حتى يلينا". هذا على أن الأبيات كلّها

تعدّ كناية ودليلا قاطعًا على نصر الشاعر على خصمه، وظفره بمهمّته وتحقيق غايته.

وقد جاءت هذه الصور الجزئية المتنوعة متماسكة مترابطة بعضها ببعض؛ متلائمة مع غرض التهنئة والفخر؛ مُعبّرة عن عاطفة الفرحة والبهجة تعبيرًا واضحا لا لبْس فيه ولا غموض؛ صادقا لا ريب فيه ولا جحود.

ولم تقف الوسائل الفنية عند استخدام الصور الجزئية فحسب؛ بل وظف الشاعر الصورة الكلية بعناصرها المتعددة ـ التى تدخل فيها هذه الصور الجزئية السالف ذكرها ـ والتى منها: عنصر الحركة المتمثل فى قوله:

(أتتك الخلافة مزفوفة ـ تزف إليك ـ من طعنك الدارعينا ـ وما الأشعرى بصلد الزناد ـ أُجَهْجه بالخصم حتى يلينا ـ فخذها ـ فقد دافع الله ... ـ وقد صرف الله ... وحربًا زَبُونا).

ومن عناصر الصورة الكلية أيضا:

عنصر الصوت المتمثل فى موكب الزّفّة (مزفوفة ـ تزفّ ـ كزفّ ـ). والمتمثل كذلك فى ما يتخيل من صوت الطعنات فى قوله: (باهونَ من طعنك الدّارعينا)؛ وما يتخيل أيضا من الصوت الصادر من قدح الزناد الذى يوحى به قوله: "وما الأشعريُّ بصلد الزناد"؛ وصوت الخصوم والردّ عليهم فى قوله: (فقالوا، وقلْتُ)؛ والصوت الوارد من صياحه بخصومه فى قوله: (وكنت امرأً أجهجه بالخصم)؛ والصوت الصادر من الأمر فى قوله (فخذها)، ومن النداء فى قوله: (... ابن هند؛ وكذا الصوت الذى يوحى به نفى خمول الذكر عن الأشعرى فى قوله: (ولا خامل الذكر)؛ وكذلك الصوت المنطلق من الدفاع فى قوله: (فقد دافع الله..)، والحادث من انصراف العدو وانسحابه على ما جاء فى البيت الأخير. هذا كله إلى جانب

الإيقاع المنبعث من الوسيقى الداخلية التى سنتحدث عنها بعد قليل. ولا ريب أن عُنصرَىْ الحركة والصوت يُعدّان صدًى طبيعيا لعاطفة الفرحة والبهجة وأثرًا فاعلا من آثارها؛ فلا غرابة فى كثرتهما وشيوعهما فى القصيدة على هذا النحو المشار إليه.

أما عنصر اللون - وإن جاء أقل منهما شيوعا - فإنه لا يقل عنهما شأنا فى الاحتفاء بالحدث، والاحتفال بأدواته التى حققت النصر والظفر؛ على ما يظهر فى زىّ العروس حين زفافها، والواضح فى قول الشاعر: (مزفوفة - تزفّ - كزفّ)؛ ويظهر أيضا فى لون الدروع فى قوله: (... من طعنك الدّارعينا)، ولون الشرار الصادر من قدح الزناد فى قوله: (... بصلد الزناد)؛ ولون (الحية) و(الشجاع) - أى الحية أيضا، والرجل الجرىء المقدام - فى البيت الرابع.

وقد جاءت كل هذه العناصر يشدُّ بعضها بعضا، معبّرة عن تلاؤمها مع عاطفة الشاعر وارتباطها بوجدانه.

هذا، ومن الوسائل الفنية التى وظفها الشاعر لتصوير عواطفه والتعبير عن أفكاره - احتفاؤه بالوصف، كقوله: (.. حيّةٌ، يظل الشجاعُ لها مستكينا)، (وكنت امرأً أُجْهجِهُ بالخصم حتى يلينا)، و(قد صرف الله ... عدوًا شنئًا وحربًا زبونا).

ومنها أيضا ولعه: باستيعاب سمات الموصوف وتعدد حاله على ما هو واضح فى البيت الأول والثانى: (أتتك الخلافة (مزفوفة)، (هنيئًا مريئًا)، (تقر العيونا)، (تزف إليك كزف العروس)، (بأهون من طعنك الدّارعينا).

ومنها كذلك كثرة المتعاطفات ـ التى توحى بازدحام الأحداث واندفاع بعضها إثر بعض، وتضافر الجهود والعمل الجاد الحثيث على تحقيق الغاية ـ على ما هو مذكور فى الأبيات الثلاثة الأخيرة.

ومنها إيثار العطف بالفاء ـ التى توحى بالترتيب والتعقيب وسرعة الإنجاز ـ كما جاء فى قوله: (فقالوا)، (فخذها)، (فقد دافع الله...).

ومنها استخدام الفعل المبنىّ للمجهول فى قوله: (تُزَفُّ إليك) ـ ولم يقل: أزفّها إليك ـ وقوله: (ولكن أُتيحت له حيَّةٌ) ـ ولم يقل: كنتُ له حيَّةً ـ وذلك للتهويل من شأن الشاعر، وتعظيم عمله وإكبار صنيعه.

ومن الوسائل الفنية التى وظفها الشاعر (تقديم ماحقه التأخير) لإفادة التخصيص والاهتمام بالمقدّم، كقوله: (تزفّ إليك كزفّ العروس)؛ وقوله: (...أتيحت له حيّةٌ)؛ وقوله: (يظل الشجاع لها مستكينا).

ومن الوسائل الفنية أيضا (الحذف)؛ كحذف المفعول به من كلا الفعلين: (فقالوا وقلت)؛ للتهويل من كثرة ما قالوه، وكثرة ما قاله ردًّا عليهم؛ والإشادة بالمجهود الذى بذله فى سبيل تحقيق مأربه. وكذلك حذف حرف النداء فى قوله: (فخذها ابنَ هند) لتأكيد حُبّه له، والإيحاء بقربه من قلبه، والاهتمام بشأنه.

هذا، كما جَدَل الشاعر أسلوبه، وأحكم خَلْقه بتضفيره وتطعيمه ببعض ألفاظ من القرآن الكريم، ليُضفى على معانيه مسحة من القُدسيّة والتعظيم؛ تعميقا لها وشدًّا من أسرها. كما حرص أيضا على جَدْل أسلوبه برِشاء من التراث العربىّ شعرا ومثلا؛ ليحقق لمعانيه الشيوع والشهرة ولأقواله الدوام والخلود. ومن أمثلة ذلك قوله فى البيت الأول: (أتتك الخلافة مزفوفة، هنيئًا مريئًا) ـ من هنأ الطعام، أى صار سائغا هنيئًا بغير تعب ولا مشقة، وطعام مرىءٌ، هنىءٌ، حميد المغبّة، لم

يثقل على المعدة، وانحدر عنها طيبا[٢٢١] ـ وهذا القول مأخوذٌ من قوله تعالى[٢٢٢]: "وآتوا النساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلةً، فإن طِبْنَ لكم عن شيءٍ منه نَفْسًا؛ فكلوهُ هنيئًا مَريئًا".

وقول عمرو في نهاية البيت الأول : (تقرُّ العيونا) ـ أي يسعدها على الدوام، على ما يوحي التعبير بالمضارع في هذه الجملة؛ لأنها صادفت ما يسرّها؛ وظفرت بما كانت متشوّقةً إليه، وحققت ما لا غاية لها بعده؛ ومن ثمّ قرّت وهدأت، فنامت ملء جفونها ـ مأخوذٌ من قوله تعالى[٢٢٣] في صفة من صفات عباد الرحمن: "والذين يقولون ربَّنا هَبْ لنا من أزْواجنا وذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أعْيُن...". وقوله[٢٢٤] ـ جل شأنه ـ: "فلا تعلمُ نفسٌ مّا أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أعْيُن جَزاءً بمَا كانوا يعملون".

أما قول عمرو بن العاص (وما الأشعريّ بصلد الزناد) فمأخوذ من المثل العربيّ: (صَلُدتْ زنادُه) ـ "إذا قُدح فلم يُور. يُضوَّبُ للبخيل يُسألُ فلا يُعطى"[٢٢٥]. ومأخوذ أيضا من المثل العربي: (هو كابي الزّناد، وصلود الزّناد) ـ "إذا كان نكدًا قليل الخير"[٢٢٦]. والشاعر هنا يُطْرِي الأشعريّ، ويرفع من شأنه، وينفي عنه كل ما يشينه أو يزري به، ليُعليَ من قيمة انتصاره عليه، ويهوّل من شأن المجهود الذي بذله معه في سبيل تحقيق هذه الغاية .

(٢٢١) لسان العرب مادة (هنأ ـ مرئ).

(٢٢٢) [الآية /٤ من سورة النساء].

(٢٢٣) [الآية / ٧٤ من سورة الفرقان].

(٢٢٤) [الآية/ ١٧ من سورة السجدة].

(٢٢٥) مجمع الأمثال : ٣٩٧/١.

(٢٢٦) السابق: ٣٩٨/٢.

وقوله أيضا ـ في شأن الأشعرى : (ولا خامِل الذكر) تضمين المثل العربي: (إنه لخاملُ الذكر ـ وخامن الذكر) أى لا يُعرف ولا يُذكر"[٢٢٧].

وقوله: (أتيحت له حيّةٌ)؛ مأخوذ من المثل العربيّ: (فلانٌ حيّةُ الوادى)؛ "إذا كان شديد الشكيمة حاميًا لحوزته"[٢٢٨]. ومأخوذ أيضا من المثل العربيّ: (حيّةٌ وادٍ) ـ "أى أنها حمته، فلا يقرْبه شيءٌ، يُضربُ للرجل المنيع الجانب"[٢٢٩].

وقوله مفتخرًا بقوته ودهائه: (...يظل الشجاعُ لها مُسْتكينا)؛ مأخوذ من المثل العربى: (أطرق إطراقَ الشجاعِ) يعنى الحيّة؛ يُضربُ للمفكر الداهى فى الأمور. وهذا المثل من قول المتلمس:

وأطـرقَ إطـراقَ الـشجُّاعِ ولـو رأى مَـساغًا لنابَيْـهِ الـشُّجاعُ لَـصَمَّما[٢٣٠]

هذا، وقد نظمت هذه القصيدة على وزن مُبْهجٌ، راقصٌ، ظاهرُ الدَّنْدَنة، سهلُ النّغمات، وهو: (بحر المتقارب) الذى "يصلح لكل مافيه تَعْدادٌ للصفات، وتلذّذٌ بجرْس الألفاظ، وسرد الأحداث فى نسق مستمر"[٢٣١]؛ مما يدل على مدى توفيق الشاعر فى توظيفه، والضرب على قيثارته تعبيرا عن فرحته فى هذه القصيدة.

وقد وفّق الشاعر أيضا فى جعل القافية مطلقةً؛ واختيار النون المفتوحة الموصولة بلين رويًّالها؛ ذلك لأن النون صوت من الأصوات المجهورة

(٢٢٧) لسان العرب / خمل.

(٢٢٨) السابق / حيا.

(٢٢٩) كتاب العقد الفريد : ٩٣/١. وانظر المثل (أظلم من حيّة) فى مجمع الأمثال: ٤٤٥/١.

(٢٣٠) مجمع الأمثال : ٤٣١/١.

(٢٣١) المرشد إلى فهم أشعار العرب: ٣٠٩/١: ٣١٢.

المتوسطة[٢٣٢]. وهي بذلك تعد من أنسب القنوات تعبيرا عن هذه التجربة. كما أنها من القوافي الذُّلُل السهلةِ اليسيرةِ[٢٣٣]، التى تتلاءم مع تجربة الشاعر هنا، وتنسجم مع عاطفة الفرحة والبهجة.

والفتحة "... تأتى بالإطلاق، وفى الإطلاق كالصياح، لأنه ألف ممدودة طويلة، ومخرجها من أقصى الحلق"[٢٣٤]؛ وهى بهذا تُعدّ من أدق الوسائل، وأصدقها، وأنسبها للتعبير عن عمق سعادة الشاعر، وطول أمدها ومقدارها بهذا النصر المبين.

هذا، وللموسيقى الداخلية ذَنوبٌ أكبرُ، وحظٌّ أوفرُ فى تصوير عاطفة الشاعر والتعبير عن معانيه التى تفيض بالفرحة والبهجة والزهو والفخر، وكل هذه المعانى تُشايعها تلك الموسيقى المنبعثة من كثرة الأصوات المُسكّنة والمنوّنة والمضعّفة الواردة فى القصيدة برمّتها.

كما يُناسبها ويُمدُّ فى أمدها ومقدارها هذا الإيقاع الصادر من كثرة أصوات المدّ فى الأبيات كلّها .

وإذا كانت الموسيقى الصادرة من كثرة أصوات المدّ فى القصيدة قد صورت مدى السعادة واتساع مساحتها وبُعد مساحتها؛ فهاهى تلك الموسيقى الصادرة من كثرة أصوات الحلق ـ التى دنت من الثمانية والثلاثين صوتا، فى الأبيات السبعة ـ تعبِّر عن عمق هذه المعانى، وتصور غورها فى وجدان الشاعر، وامتداد جذورها فى قلبه ونفسه.

---

(٢٣٢) الأصوات اللغوية / ٦٦.

(٢٣٣) المرشد: ١/٤٦: ٥٩.

(٢٣٤) السابق : ١/٦٨.

هذا، ومادام وجدان الشاعر عامرًا بالبهجة والسرور، ونفسُه تفيض بالزهو والحبور، وقد دانت له أدواته اللغوية والفنية للتعبير عن هذا وذاك؛ فلا مناص من أن تعزف موسيقى التكرار والجناس والتضاد ألحانها نزولاً على رغبة الشاعر من جهة، وإسهامًا في تصوير عاطفته وترجمة وجدانه من جهة أخرى، ومشاركة لباقي الوسائل الفنية التي تملكها الشاعر وأحسن توظيفا من قبل من جهة ثالثة.

أما موسيقى التكرار فتتبدّى في صوت الفاء المتكرر في الشطر الأول من البيتين الأول والثاني، مضافا إليه تكرار صوت الزاى وهما من أصوات الصفير التي تجذب الانتباه بإيقاعها. وتتبدى كذلك في هذا الجرس المنبعث من تكرار - أو ردّ العجز على الصدر - في البيت الثالث (وما الأشعرى... في الأشعرينا)؛ وتكرار (فقالوا وقلْت)؛ واللحن الصادر من هذا البناء الصرفيّ الماثل في قوله: (... وقُلْت وكنْت)، والإيقاع اللافت المُعبِّر؛ المتمثِّل من تكرار صَوْتَيْ الجيم والهاء من قوله (أُجَهْجِهُ)؛ وكذلك اللحن المنبثق من جناس الاشتقاق في قوله: (مزفوفةً - تزفَ - كزفّ) .

أما التضاد - وما يحتويه من إثارة وصدمة لا شعورية خاطفة، يجذبان الانتباه، ويؤكدان المعنى في نفس المتلقى - فيتضح بين شطرىْ البيت الثانى:

تُزَفُّ إليك كَزفِّ العروسِ   بأهونَ من طعنك الدَّارعينا

ويتمثل أيضا بين شطرىْ البيت السادس:

فَخُذْها ابنَ هندٍ على بأسها   فقد دافع اللهُ ماتَحْذرونا

هذا، وقد اعتاد عمرو ـ بفطنته وفنيّته أن يربط بين نهاية تجربته وبدايتها، أو ما يسمى ـ فيما ذهبت إليه من قبل ـ (رَدّ عَجُزِ القصيدة على صَدرها)؛ حيث قرر بدءًا أن الخلافة خلصت لمعاوية، ومن ثم خاطبه مهنئًا إياه بها بقوله في البيت الأول والثاني.

أتتك الخلافةُ	(مزفوفة)؛ أى سريعة مشتاقة إليك. (هنيئًا مريئًا)، أى سائغة مريحةً دون مشقة، حميدةً دون نصب. (تقرّ العيونا)؛ أى مُسْعِدَةً آمنةً من كل حذر وخوف. (تُزَفُّ إليك كزف العروس)؛ أى جميلة بهيّة فرحة سعيدة بك.
وقد جاءتك	(بأهونَ من طعنك الدّارعينا)، أى جاءتك بسلام، لا ثمرة حرب أو طعان.

ثم أشاد بجهوده التى آتت أُكلها وأثمرت هذه الخلافة فى الأبيات من ٤ـ٥.

وأخيرًا يقرّر ما ذهبَ إليه فى البيتين الأولين مركزا معناهما فى البيتين الأخيرين. أو بعبارة أخرى: يردّ عَجزُ القصيدة على صدرها قائلا:

فَخُذْها ابنَ هندٍ على بأسها ... فقد دافع اللهُ ماتَحْذرونا

وقد صَرف اللهُ عن شامكم ... عدُوًّا شنيًّا وحرْبًا زَبُونا."

وعلى هذا النحو نرى أن كل الوسائل الفنية التى وظفها الشاعر فى قصيدته؛ من صور جزئية، وكلية، ولغة وأسلوب، وموسيقى خارجية وداخلية - جاءت متوئمة بعضها مع بعض؛ متلائمة مع عواطف الشاعر وأفكاره؛ مشاركة له فى فرحته وبهجته؛ مشايعة له زهوه وفخره بهذا الانتصار التى تم على يديه.

هذا، ولعل عمرًا أراد أن يرفع من شأن هذا الانتصار، ويُكسبه قوةً خارقة، ويخلع عليه صبغة قُدْسيّة؛ حين جعل الدفاع عن الخلافة من الله، مؤكدًا ذلك بأداتين فى قوله:

(فقد دافعَ اللهُ ما تحذْرونا)

الأداة الأولى: (قد) التى تفيد وقوع الحدث وتحقيقه، وتدل "على أن انقضاء (زمن الماضى) قريبٌ من الحال"[235]؛ وكأن عمر بن العاص يرمز بتوظيف (قد) فى هذا الشطر؛ وفى صدر البيت الأخير: (وقد صرف اللهُ عن شامكم) ــ إلى أن هذا الفضل من دفاع الله كل محذور عن معاوية؛ وصرف العدوِّ الشّنيّ البغيض، والحرب الزبون عن شامه؛ وإحراز الخلافة آمنة مطمئنة له إلا على يديه وحده فى الماضى القريب. أما الماضى البعيد فقد هريقت فيه دماء، وأزهقت أرواح، وتكدست جرحى، دون أن يُحرَزَ فيه نصرٌ، أو تُحققَ غاية.

الأداة الثانية : التعبير بالماضى المؤكدً بنفسه وانقضاء زمنه، الذى لا راد لقضاء فاعله هنا (دافع اللهُ...) إلى جانب جعله صلة (ما) - فى هذا الشطر - جملةً فعليةً مضارعيةً (ما تحذرونا)؛ ليؤكد أن الحذر مدفوع لا فى الوقت الحالىّ فحسب بل فى المستقبل أيضا؛ فهى آمنة مطمئنة على مدى الأيام.

(٢٣٥) (النحو الوافى: ٥٢/١).

وكأنى بالشاعر ـ لإشباع غروره ـ يرى أنه لا يُهدى معاويةَ الخلافةَ فحسب؛ بل الخلافة ـ (على بأسها) وقوتها، وما بذل فيها من جهد جهيد ـ المنيعةَ من أى غدْر، المصونةَ من أى طامع، الآمنةَ من كل خوف وحذر.

هذا، كما أن لا أستبعد عن تفكير عمرو ودهائه، واعتداده بذاته، وشموخه بنفسه ـ أن يكون قد أراد من وراء التعبير بقوله: (فقد دافع الله ما تحذرونا) (وقد صرف الله عن شامكم...)؛ أن يضفى على نفسه طابع الإخلاص والإيثار، وعلى سلوكه صبغة الإيمان والتقوى فهو المدافع ظاهرًا عن معاوية، أو المحتال له ـ وكأنه يرى نفسه سهمًا من سهام الله، أو سيفا من سيوفه، هيأه الله للدفاع عن معاوية، ليقضى كل منهما وطره من دنياه. وعلى أية حال ما شاء الله كان (وعند الله تجتمع الخصوم)، "ولات حين مناص".

وحسبى أن عمرًا بعد أن ظَفِرَ بطُعْمَتِه (مصر)، وتولّى إمرتها، وتقلب فى خيراتها وآلائها ـ كان غير مطمئن إلى سلوكه فى (المرحلة الثالثة) والأخيرة من حياته؛ وقد أعلن ذلك بنفسه في مرض موته، على ما ذكر ابن عبد البر بسنده، قال[٢٣٦]:

"لما حضرتْ عمرو بنَ العاص الوفاةُ بكى، فقال له ابنُه عبدُ الله: لِم تبكى؟ أجَزَعًا من الموت؟ قال: لا، واللهِ؛ ولكن لما بعده. فقال له: قد كنتَ على خير. فجعل يُذكّره صُحبةَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفتوحه الشامَ. فقال عمرو: تركتَ أفضلَ من ذلك شهادةَ أنْ لا إله إلا الله؛ إنىّ كنت على <u>ثلاثة أطباق،</u> ليس منها طبقٌ إلا عرفتُ نفسى فيه: كنتُ أولَ شيءٍ كافرًا، فكنتُ أشدَّ الناس على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلو مِتُّ يومئذ وَجَبتْ لى النار. فلما بايعتُ

(٢٣٦) (الاستيعاب: ٨/٣٣٤ ـ ٣٣٥)، وانظر البداية والنهاية: ٨/٢٦).

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كنتُ أشدَّ الناس حَياءً منه؛ فما ملأتُ عينى من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حياءً منه، فلو مِتُّ يومئذٍ قال الناسُ: هنيئًا لعمرو أسلم، وكان على خير، ومات على خير أحواله، فتُرجى له الجنة. ثم تلبّستُ بعد ذلك بالسلطان وأشياء، فلا أدرى أعلىَّ أم لى...".

وأُردّد معه قوله ـ فى فترة تفاوضه مع معاوية:

أما علىٌّ فدِينٌ ليس يَشْرَكُهُ ... دُنيا، وذاك له دُنيا وسلطانُ

فاخترتُ من طَمعى دُنيا على بَصَرٍ ... وما معى بالذى أختارُ برهانُ.

وأزيد على ذلك طالبًا من الرب الغفور العفوَ عنه؛ وفاءَ ما قدّم للإسلام فى المرحلة الثانية من حياته، وضمّه مصر إلى لوائه، وتوليته إمرتها فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ ثم عودته إليها؛ وحفاظه على صبغتها الإسلامية؛ مما جعلها على رأس الدول الإسلامية عطاء للإسلام؛ وحفاظا عليه؛ وإقامة لشعائره.

المصادر والمراجع

١- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب؛ لابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣هـ - بذيل كتاب الإصابة - ج/٨، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦م - مكتبة الكليات الأزهرية.
٢- الأسلوب، أحمد الشايب - النهضة المصرية بالقاهرة - الطبعة السادسة سنة ١٩٦٦م.
٣- الإصابة فى تمييز الصحابة؛ لابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢هـ، الطبعة الأولى - مكتبات الكليات الأزهرية.
٤- الأصوات اللغوية؛ د/إبراهيم أنيس - مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة السادسة ١٩٨١م.
٥- الأعلام؛ للزركلى ج/٥، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان.
٦- الإمامة والسياسية - وهو المعروف بتاريخ الخلفاء - لابن قتيبة الدينورى، المتوفى سنة ٢٧٦هـ - ج/١ - الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٣م - البابى الحلبى وأولاده بمصر.
٧- البداية والنهاية؛ لابن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ ج/٨ - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦م - مكتبة المعارف بيروت، ومكتبة النصر، الرياض.
٨- البيان والتبين، للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ، ج/١-٢، تحقيق وشرح عبد السلام هارون - مكتبة الخانجى - الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٥.
٩- تاريخ الطبرى - تاريخ الرسل والملوك - لابن جرير الطبرىّ المتوفى سنة ٣١٠هـ، تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الثالث والرابع والخامس - الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٧م - دار المعارف بمصر.
١٠- تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلانى، المتوفى سنة ٨٥٢هـ - ج٨- الطبعة الأولى سنة ١٣٢٦هـ - مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة فى الهند بمحروسة حيدر أباد الدكن.
١١- جمهرة أنساب العرب؛ لابن حزم الأندلسىّ المتوفى سنة ٤٥٦هـ، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون - الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٧م - دار المعارف بمصر.

١٢ـ حياة الصحابة؛ محمد يوسف الكاندهلوى ـ الجزء الأول والثانى ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان.

١٣ـ ديوان قيس بن الخطيم ـ حققه د/ناصر الدين الأسد ـ مكتبة دار العروبة بالقاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢م.

١٤ـ السَّفّاح التغلبىّ ـ ... / ٦٩ق.هـ =.../٥٥٥م ـ : حياته وشعره؛ د/محمد عبد سالم ـ مكتبة الآداب بالقاهرة ٢٠٠٧م.

١٥ـ السيرة النبوية، لابن هشام، حققها و... مصطفى السّقا ـ وـ إبراهيم الأبيارى ـ و ـ عبد الحفيظ شلبى؛ دار إحياء التراث العربى ـ بيروت .

١٦ـ شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي ـ نشره / أحمد أمين، عبد السلام هارون ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧م.

١٧ـ شعراء تغلب فى الجاهلية : أخبارهم وأشعارهم؛ د/على أبو زيد ـ الكويت ـ السلسلة التراثية ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٢١هـ / ٢٠٠٠م.

١٨ـ (شعر زهير بن أبى سُلْمى) ـ صنعة الأعلم الشنتمرى ـ تحقيق د/فخر الدين قباوة ـ الطبعة الثالثة: ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.

١٩ـ الشعر العربى المعاصر ؛ د/الطّاهر أحمد مكى ـ دار المعارف بمصر.

٢٠ـ صحيح البخارى.

٢١ـ الصورة الأدبية ؛ د/مصطفى ناصف ـ مكتبة مصر ـ الفجالة : ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨م.

٢٢ـ طبقات فحول الشعراء؛ لابن سلام الحجمى المتوفى سنة ٢٣١هـ ، قرأه وشرحه محمود شاكر ـ مطبعة المدنى بالقاهرة.

٢٣ـ عروض الشعر العربى بين التقليد والتجديد: دراسة تطبيقية، د/أمين عبد الله سالم ـ مطبعة منجد الحديثة بينها ـ الطبعة الأولى سنة : ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

٢٤ـ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده؛ لابن رشيق ـ حققه ... / محمد محيى الدين عبد الحميد ـ دار الجيل للنشر والتوزيع ـ بيروت / لبنان ـ الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٢م.

٢٥- عيون الأخبار؛ لابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦هـ - الجزء الأول - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣م.
٢٦- فى النقد الأدبى؛ د/عبد العزيز عتيق - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت سنة ١٩٧٢م.
٢٧- كتاب أسرار البلاغة، للشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: هـ. ريتر - دار المسيرة - بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.
٢٨- كتاب الأنوار ومحاسن الأشعار، للشمشاطى؛ تحقيق د/السيد محمد يوسف - مراجعة / عبد الستار أحمد فراج - الكويت - سلسلة التراث العربى سنة : ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م.
٢٩- كتاب الحيوان، للجاحظ؛ تحقيق وشرح/ عبد السلام هارون - دار الجيل - بيروت سنة ١٩٨٨م.
٣٠- كتاب دلائل الإعجاز؛ لعبد القاهر الجرجانى - قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر - مكتبة الخانجي بالقاهرة.
٣١- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، لأبى هلال العسكرى - تحقيق / على محمد البجاوى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم - عيسى البابى الحلبى وشركاه.
٣٢- كتاب العقد الفريد؛ لابن عبدربه الأندلسى، شرحه، و... أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبيارى - الأجزاء من الثانى إلى السادس - دار الكتّاب العربى سنة ١٩٨٦م.
٣٣- كتاب عيار الشعر؛ لابن طباطبا العلوىّ المتوفى سنة ٣٢٢هـ، تحقيق د/عبد العزيز بن ناصر المانع - دار العلوم للطباعة والنشر سنة ١٩٨٥م.
٣٤- كتاب الولاة والقضاة، تأليف أبى عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى - مهذبا ومصححا بقلم (رفن كَست) - مؤسسة قرطبة - الهرم - مصر.
٣٥- مجمع الأمثال، للميدانى - تحقيق/ محمد محيى الدين عبد الحميد - مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م.
٣٦- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، د/عبد الله الطيب - دار الفكر - الطبعة الثانية / بيروت سنة ١٩٧٠م.

٣٧ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦هـ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ الجزء الثانى والثالث ـ المكتبة الإسلامية ـ بيروت.
٣٨ـ المعارف، لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ؛ حققه وقدّم له د/ثروت عكاشة ـ الطبعة الرابعة سنة ١٩٨١م ـ دار المعارف بمصر.
٣٩ـ معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب؛ مجدى وهبه، وكامل المهندس ـ مكتبة لبنان ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٤م.
٤٠ـ المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية؛ د/ثروت عكاشة ـ طبع الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان.
٤١ـ مقدمة العلاقة ابن خلدون ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
٤٢ـ منْهاج البلغاء وسراج الأدباء؛ للقرْطاجنّى ـ المتوفى سنة ٦٨٤هـ ـ تقديم وتحقيق/ محمد الحبيب بن الخوجة، تونس سنة ١٩٦٦م.
٤٣ـ موسيقى الشعر؛ د/إبراهيم أنيس ـ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٢م.
٤٤ـ النحو الوافى؛ عباس حسن ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الرابعة.
٤٥ـ نهج البلاغة ـ مجموع ما اختاره الشريف الرضى من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ شرح الشيخ محمد عبده ـ الجزء الأول والثانى والثالث ـ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ـ لبنان.
٤٦ـ وقعة صفّين، لنصر بن مزاحم المنقرى المتوفى سنة ٢١٢هـ، تحقيق عبد السلام هارون ـ دار الجيل ـ بيروت سنة ١٩٩٠م.

الفهرس

رقم الإيداع
٢٠١٠/١٦٧٨٣
الترقيم الدولي
977/17/9437/x